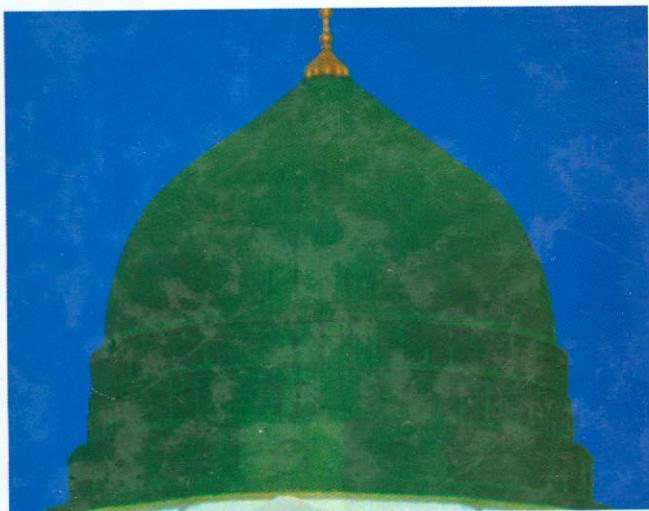


مَوْسُوعَةُ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ

# عَصْرُ النَّبُوَّةِ

عبد الحكيم الكعبي



دارأسامة

موجّه

التاريخ المبسط

عصر النبوة وما قبله

تأليف

الدكتور عبد الحكيم الكعبي

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن - عمان

الفلسفة الأولى

تراث العرب قبل الإسلام

الفصل الأول

تمهيد

لغير أفهم بيهما العرب وسكنانها

## **المبحث الأول: طبيعة بلاد العرب**

- الموقع.
- المناخ.
- المياه.
- نباتات الجزيرة العربية وحيواناتها.
- أقسام جزيرة العرب.

## **المبحث الثاني: السكان**

- العرب: أصل التسمية.
- أصل العرب.
- طبقات العرب.

## المبحث الأول

### طبيعة بلاد العرب

للحزيرة العربية أهمية خاصة عند دارسي تاريخ العرب والإسلام، ولا سيما الجزء الغربي منها، فهي الأرض التي نشأ فيها الرسول الكريم ﷺ طفلاً، والمهد الذي نبتت فيه دعوته وترعرعت وبلغت أشدّها لتطلاق إلى الآفاق، إليها يحج الملايين كل عام، وتقطّع أبصار المسلمين في المشارق والمغارب.

لقد عرفت هذه البلاد عند مؤرخي العرب وجغرافييهم باسم "جزيرة العرب"، وهذه التسمية ليست صحيحة تماماً لأن الماء لا يحيط بها من جميع جهاتها، فهي شبه جزيرة، ولكن العرب كانوا يسمون شبه الجزيرة "جزيرة"، فهم يسمون شبه جزيرة أيبيريا "جزيرة الأندلس"، ويسمون ما بين النهرين في العراق بجزيرة آفور أو الجزيرة الفراتية.

ويجعل الجغرافيون العرب تسميتها بالجزيرة بقولهم "إحاطة الأنهر والبحار بها من جميع أطرافها وأقطارها فصاروا فيها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك لأن الفرات يقبل من بلاد الروم ماراً ببلدة قنسرين ثم ينحطم على أطراف الجزيرة وسود العراق حتى إذا قارب البصرة اتحد بدجلة وصبَا معاً في خليج عمان من بحر الهند، ويأخذ البحر في ذلك الوضع مضرباً طائفاً ببلاد العرب متعمطاً عليها إلى بلاد عمان والشجر وحضرموت إلى تهائم اليمن ويمضي إلى ساحل مكة وساحل المدينة ثم ساحل الطور وخليج أيلة وخليج القلزم

والنيل حتى بحر الروم الذي تقع عليه سواحل قنسرين وهي الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً إلى أعلى أطراف الجزيرة وسود العراق<sup>(١)</sup> ... .

للجزيرة شكل رباعي غير منتظم يبلغ طوله من الشمال الغربي حتى الجنوب الشرقي ٢٢٠٠ كم، ويبلغ عرضه ٢٠٠ كم، وهذا الشكل الرباعي غير المتوازي الأضلاع تعترضه في الشرق مارتفاعات عمان، بينما يحده من الغرب والجنوب والشرق حدود مائية هي البحر الأحمر وخليج عدن وبحر العرب وخليج عمان والخليج العربي، أما من ناحية الشمال فالحدود مع بلاد الشام غير متتفق عليها بين الجغرافيين، وكثيراً ما قام الخلاف حول أين تنتهي حدود الجزيرة وأين تبدأ حدود الشام. ولكن أغلب الجغرافيين العرب يمدون تلك الحدود إلى حد نهر الفرات الذي يدخل بلاد العرب عند مدينة بالس في شمال بلاد الشام ويتوجه جنوباً نحو أرض العراق حتى مدينة البصرة ليصب في الخليج العربي.

ويمكنا أن نصف بلاد العرب بأنها هضبة مرتفعة لا يقل ارتفاع أي جزء فيها عن ١٥٠٠ قدم عن سطح البحر، وهذه الهضبة تحدان اندارين أحدهما نحو الغرب والأخر نحو الشرق.

ويبدأ الانحدارات من سلسلة جبال السراة التي تقع في غرب شبه الجزيرة وتمتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حيث تصل إلى أعلى ارتفاعها وهو عشرة آلاف قدم (أو أكثر من ٣٠٠٠ م)، وانحدار الأرض من هذه القمم الشامخة إلى الشرق تدريجي ويمتد إلى مدى بعيد، أما الانحدار الغربي فهو شديد، وتحصر سلسلة الجبال فيما بينها وبين ساحل البحر الأحمر واديًّا ضيقاً

---

(١) الهمданى، صفة جزيرة العرب ص ٤٧، ياقوت الحموي ج ٢ ص ١٣٧.

متوسطاً عرضه خمسة عشر ميلاً وأقصى اتساع له ثلاثون ميلاً وتحتاله عدة وديان لا يستفاد منها بل كثيراً ما تعوق سير القوافل.

وفي الجنوب الشرقي تبرز سلسلة من الجبال في عمان وهي السلسلة المعروفة باسم الجبل الأخضر، ويبلغ ارتفاعها نحو عشرة آلاف قدم أيضاً.

ويحيط بأطراف الجزيرة الغربية حيث يتراجع البحر عند الساحل بمعدل اثنين وسبعين قدماً في العام، أغوار واسعة تعرف بتهامة.

ويبلغ متوسط ارتفاع نجد، وهي الهضبة الوسطى الشمالية نحو ٢٥٠٠ قدم وفي سلسلة جبالها المعروفة بـ "شمر" قمة من حجر الغرانيت الأحمر اسمها "أجا" يبلغ ارتفاعها ٥٥٠٠ قدماً.

وإذا استثنينا اليمن وعمان وبعض الوديان الواقعة في سلسلة الجبال الغربية وفي نجد والإحساء، فإن الجزيرة في الغالب صحاري ودارات.

وكثبان الرمال في جزيرة العرب لها أشكال متعددة منها نجمي الشكل ومنها على شكل هلال أو قبة. والكتبان الهلالية الشكل تتراوح أحجامها بين المتر والمئتي كيلومتر في الارتفاع ويصل امتدادها في بعض الأحيان إلى عدة كيلومترات، وأغلب كثبان الرمال في الجزيرة تتتألف من الرمال الصافية التي لا تتخللها قطع الصخور أو غيرها. ويختلف لون الرمال وتركيبها من منطقة إلى أخرى، ويكون اللون في الداخل قريباً إلى الحمرة.

تقع أغلب المناطق الرملية في جزيرة العرب في المنطقة الروسوبية الموجودة في الشمال الشرقي، والشرق والجنوب الشرقي، وأكبر الصحاري فيها اثنتان: النقود الكبرى التي تبلغ مساحتها ٧٠ ألف كم<sup>٢</sup>، والربع الخالي التي تبلغ مساحتها في نصف مليون كم<sup>٢</sup>، وصحراء الربع الخالي هي أكبر مساحة رملية

متصلة في العالم كله. وتتصل هاتان الصحراءتان بقوس طويلاً ضيقاً اسمه الدهناء يقع شرقي طويق العرمة. وهناك قوس صحراوي آخر يصل النفوذ بالربع الخالي ويقع غربي طويق، ولكن هذا القوس ليس مستمراً كالقوس الأول بل كثيراً ما يغيب ويعود للظهور ثانية. ويبداً هذا القوس الثاني عند عرق المظور الذي يترك صحراء النفوذ جنوبى النقطة التي تفترق فيها الدهناء عن النفوذ وينقسم إلى ثلاثة سلاسل رملية متوازية هي من الشرق إلى الغرب: نفوذ التؤيرات، نفوذ السر، والشقيقة. ويسمى الامتداد المتوسط للثؤيرات باسم نفوذ البلدين، ويتصل بنفوذ السر نفوذ قفيدة، وفي جنوب قفيدة يغيب القوس الرملي، ثم يعود للظهور ثانية عند عرض الدحي الذي ينهي شمال وادي الدواسر.

ويلاحظ أن الرمال في النفوذ تتحرك دوماً باتجاه الجنوب أو بكلمات أخرى أن رمال صحراء النفوذ تتحرك دوماً باتجاه الربع الخالي. وتعرف في كتب اللغة بالبادية وأحياناً بالدهناء، مع أنَّ النفوذ جافة إلا في واحاتها القليلة فإنه يصيبها في بعض السنين أمطار تساعد على نمو الأعشاب التي ترعاها الإبل والمواشي.

أما الربع الخالي، فعلى الرغم من أنها تظهر على الخريطة ولها ذراعان طويلان يمتدان باتجاه الشمال فإنَّ الذراع الغربي المسمى بالجافورة يعدُّ العرب صحراء مستقلة لا علاقة لها بالربع الخالي، ويفصلها عن هذه الصحراء حوض الجوب وكذلك الذراع الشرقي فإنه يعد منطقة مستقلة لا علاقة لها بالربع الخالي وتمتد حتى شاطئ الخليج العربي<sup>(١)</sup>.

---

(١) المصدر سابق ص ١٣٦ وما بعدها، الاصطخري، المسالك والممالك ص ٢٧، دائرة المعارف الإسلامية، مادة "جزيرة العرب".

ومن المناطق الطبيعية الجديرة بالذكر المنطقة الحرة، وهي أرض من الحجارة الرملية تعلو سطحها حمم البراكين القديمة، وتكثر هذه المناطق البركانية في بقاع الجزيرة الغربية والوسطى وتمتد شمالاً حتى حوران الشرقية، وينظر "ياقوت الحموي" في معجم البلدان ما لا يقل عن ثلاثين حرة أشهرها حرة المدينة<sup>(١)</sup>.

## الموقع:

تقع شبه جزيرة العرب وسط سلسلة من الصحراءوات التي تمتد كالحزام حول العالم القديم، نحو الغرب عبر النيل في الشمال الأفريقي فيما يعرف بالصحراء الكبرى، ونحو الشرق عبر سهول دجلة والفرات وخلال الهضبة الإيرانية إلى بلاد التركستان وصحراءات آسيا الوسطى في التبت وغobi، وهذا الأمر له أهميته فيما يتعلق بتاريخ العرب والإسلام، إذ على أساسه فسر بعض الباحثين طبيعة التوسيع العربي في القرنين السابع والثامن الميلاديين، في شكل أفقى من أسبانيا إلى التركستان، بمعنى أن العرب توسعوا خلال هذا الحزام الأرضي لأنه لا يختلف كثيراً في طبيعته الجغرافية عن بلادهم، أي البلاد التي أفسوا الحياة فيها، ونفس الملاحظة يمكن أن تكون صالحة بالنسبة لعلاقات العرب بمن جاورهم من البلاد والشعوب قبل الإسلام، وبذلك تتضح أهمية دراسة الجغرافيا بالنسبة لتفسير حركة التاريخ خلال العصور.

---

(١) ياقوت الحموي، ج ٢ ص ١٣٧.

هكذا يمكن القول أن بلاد العرب بفضل موقعها المتوسط من العالم القديم، تمثل همسة الوصل بين قارتي آسيا وأفريقيا مما يسمح ببنسبتها إلى القارتين، فهي بطبيعتها الإقليمية جزء من صحراءات أفريقيا الشمالية، على الرغم من وجود البحر الأحمر الذي يعد موصلاً أكثر منه فاصلاً بين سواحل مصر والجaz ، وبين سواحل اليمن والحبشة والصومال، حيث المضيق بشكل خاص، ويفيد ذلك ما يسجله الجغرافيون العرب من أن طريق القوافل بين سواحل عمان وبين تهامة غرباً، وبين سواحل عُمان والبحرين شرقاً كانت من الصعوبة بحيث كان طريق المواصلات فيما بينها هو الطريق البحري<sup>(١)</sup>.

أما عن برزخ السويس فكان البوابة الكبرى لعبور الهجرات من جزيرة العرب ومن آسيا إلى مصر والمغرب، وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار شبه الجزيرة العربية من أفريقيا.

ومثل هذا يقال عن صلات العرب بآسيا فإذا كان الخليج العربي يفصلهما في الجنوب والشرق عن إيران، فإنه كان موصلةً جيداً بين الساحل العربي والساحل الفارسي، انتقلت عبره الجماعات في كل من الجانبين، خلال العصور، وكذلك كان الأمر بالنسبة لسهول دجلة والفرات موصلةً بين بلاد العرب والهضبة الإيرانية التي تعد البداية الطبيعية للقاربة الآسيوية، ومن هذا الوجه تعد بلاد العرب من آسيا.

---

(١) الأسطرخري، ص ٦٣

المُنْتَخَبُ

يسود الجفاف شبه جزيرة العرب بوجه عام، والمطر يندر سقوطه، ولذلك فإن أكثر أراضي جزيرة العرب صحراوية، ومع ذلك فهناك أودية كثيرة تسيل فيها المياه في موسم الأمطار، وهي أودية شديدة الانحدار تصب في البحر الأحمر أو في بحر العرب، والأمطار تسقط في الخريف والشتاء في الشمال، بينما تسقط في الصيف في بلاد اليمن، وإذا سقط المطر في الباية فإنه يتسبّب في إنبات عشب وشيك ينمو سريعاً ثم يذوي سريعاً، ولذلك فإن الحياة في الباية هي التي أملت على البدوي الترحال والانتقال إلى حيث موارد المياه والعشب.

وتهب على الجزيرة رياح تختلف باختلاف المناطق والبحار التي تجاورها، ففي الجزء الشرقي من الجزيرة تهب رياح شرقية تتحول إلى شمالية في بعض الأحيان، أما نجد فتهب عليها رياح شديدة جداً من مختلف الجهات وكثيراً ما يتحول اتجاه الريح فيها كل نصف ساعة، أما الرياح الموسمية التي تهب من المحيط الهندي فتصل إلى المناطق الجنوبية من الجزيرة ولها تأثير كبير على حياة السكان هناك.

ويذكر المسعودي<sup>(١)</sup> أن الرياح أربعة: إحداها تهب من جهة الشرق، وهي القبول، والثانية تهب من المغرب، وهي الدبور، والثالثة من اليمن وهي الجنوب، والرابعة من التيسير، وهي الشمال.

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ٢٣٣.

أما رياح القبول فهي التي يسمونها ريح الصبا، وهي ريح طيبة مقبولة والنفس تصبو إليها، وأكثر هبوبها على إقليم نجد، وكان العرب يفضلون هذه الريح لرقتها ولأنها تجيء بالسحب والمطر وفيها الري والخصب، وهي عندهم اليمنية، وريح الشمال عادة ريح باردة وتهب على الحجاز بعد أن تكون قد اجتازت هضاب الأنضول المغطاة بالثلوج ومرتفعات سوريا، ولذلك عرفت بالشامية، وكانت مكرهة لما يصاحبها من برد وأنها تذهب بالغيم والخصب، وتعرف أيضاً بالحدواه لأنها تحدو السحاب أي تسوقه.

ولما كانت معظم بلاد العرب صحراء فقد اعتمدوا على الأمطار في الرعي وفي الزراعة، ولذلك السبب اهتم العرب بتمييز أنواع السحب الممطرة وبرعوا في التنبؤ بسقوط المطر، وسموا السحاب الذي يرجى منه المطر "الخلق" وسموا السحابة التي يدوم مطرها بالسحابة الداجنة.

وتسقط الأمطار على جبال اليمن بغزارة في فصل الصيف، وينزل في تهامة اليمن في الشتاء أحياناً، ويبلغ تأثير الرياح الموسمية حتى الطائف، ففيها تنزل الأمطار في أواخر الصيف، أما في فصل الشتاء فتسقط الأمطار في شمال بلاد العرب وفي وسطها، والأمطار في بعض الأحيان تشح وقد تتقطع وينتزع عن ذلك جدب وقطف يطول أمده وفي ذلك يقول الشاعر:

إذا سنة طالت وطال طوالها وأقطف عنها القطر وأبيض عودها

ومن هنا ألق العرب على السنوات التي لا ينزل فيها مطر بالسنين البيض أو السنين البيض، وأحياناً يسمونها السنوات الشهباء، وإذا شح المطر

ينتقل البدو من مضاربهم وينتجعون مواضع القطر أو الغيث، ويعد ذلك إيدانًا بالهجرة نحو الشمال.

وفي بعض السنوات تنزل الأمطار بغزارة فتحدث السيول وتتعرض البلاد للأخطار، فتنساقط المنازل والدور وتطيح السيول بالزروع، وقد بادت بالسيول والفيضانات شعوب وأمم عربية، مثل شعب سبا الذي باد على أثر سيل العرم. أما في حالة الأمطار المعتدلة فالناس يشربون ويستقون حيواناتهم، ويررون مزروعاتهم وتمثل الآباء والغدران والخزانات والدارات بالمياه، والدارة رمل أبيض مستدير، في وسطه فجوة مستديرة، وغالبًا ما تكون الدارات محاطة بالجبال، وتكثر فيها الزراعة، وقد أحصى "ياقوت" من دارات العرب نحو ستين دارة<sup>(١)</sup>.

## المياء:

على الرغم من أنه لا يوجد في الجزيرة العربية نهر كبير دائم الجريان، فإن بعض أجزاء الوديان في الجنوب تظل ممتلئة بالماء طوال السنة وذلك بسبب وقوعها في منطقة الرياح الموسمية التي تجلب الأمطار الموسمية الغزيرة. ومن أشهر وديان شبه جزيرة العرب "وادي السرحان"، وبلغ طوله ٣٠٠ كم تقريباً وعرضه ٥٠ - ٧٠ متر وتصب فيه وديان صغيرة على طول مجراه. وهناك واد آخر اسمه وادي الحمنص يصب في البحر الأحمر وترتفع روافد من الشرق تتبع من حرات خير، وبعد مسافة قصيرة باتجاه الشرق يقع

---

(١) معجم البلدان ج ٥ ص ٤٢٤ "مادة دارات".

منبع "وادي الرُّمة" الذي يصب القسم الأسفل منه المعروف باسم الباطن في الخليج العربي قرب البصرة. وتحدر من جبال السراة ثلاثة وديان كبيرة هي: رَنْيَة وبيشة وتلثيث وتقترب من وادي الدواسر هذا أن تغيب في رمال الربع الخالي. وهناك واد آخر معروف حالياً باسم "حَبَّونَا" ويسميه الهمданى باسم "حَبَّونَنْ"؛ ويسير هذا الوادي ووادياً آخر اسمه "وادي نجران" باتجاه الشرق ليغيب في الرمال التي تقع جنوب "طويق" ومن مرتفعات اليمن ينبع وادٍ اسمه "وادي الْخَارِد" ليصب في حوض الجوف "جوف بن ناصر" الذي كان مقر المعينيين.

ومن جبال اليمن تسيل وديان كثيرة باتجاه الجنوب حتى تصل إلى الشاطئ المجاور لعدن ومن بينها وادي "تُبَان" وبني وغيره، ومن المرتفعات الجنوبيّة لمنطقة "الْجَوْل" ينبع "وادي ميفعة" و"وادي حجر" ووادي حجر هذا هو النهر الوحيد الدائم الجريان في الجزيرة العربية، ولكن هذا النهر لا يعد من الأنهار الطويلة إذ أن طوله لا يزيد عن مئة كيلومتر.

وهناك وديان كثيرة أخرى في الجنوب أهمها وادي حضرموت الذي تغذيه وديان صغيرة كثيرة تتبع من شمال وجنوب "الْجَوْل"، ووادي سمائل الذي يصب في خليج عمان، ووديان الباطنة وغيرها. أما في الشمال فتوجد مجموعة من الوديان تسير نحو الشمال الشرقي وتصب في نهر الفرات، وأهم هذه الوديان "وادي تُبَل" و"وادي عرعر" و"وادي الخر". وفي نجد عدد من الوديان الفرعية التي تسيل بين وادي الرمة ووادي الدواسر وأهمها: وادي العنك ووادي حنيفة، ووادي العقمي وغيرها.

إلى جانب هذه الوديان يوجد في شبه جزيرة العرب عدد من البحيرات يقع أهمها في مناطق الخرج والأفلاج، وتشكل هذه البحيرات أيضاً في بعض

الواحات كواحة الحسا بنتيجة تجمع مياه السقاية، وليس كل هذه البحيرات مليئة بالماء، فبعضها جافة ولا تمثل بالماء إلا في الفترات التي تتتساقط فيها الأمطار.

أما المصدر الثالث للمياه في شبه الجزيرة العربية فهو العيون التي توجد في الواحات والتي تقوم حولها في العادة حياة مستقرة. وفي بعض الواحات الكبيرة تقوم عدة قرى تحيطها في الغالب أشجار النخيل، وتبلغ مساحات بعض هذه الواحات الكبيرة عشرات أو مئات الكيلومترات المربعة، وأهم هذه الواحات "الحسا" وفيها مدینتان كبيرتان هما: "الهفوف" و"المبرّ" وواحة بيشه وأهم مدنهما: "الروشن" و"تمران".

والمصدر الرابع والأخير للمياه في الجزيرة هو الآبار التي توجد عدد كبير منها في الصحاري بما فيها الرابع الحالي التي يستقى منها البدو، ويبلغ متوسط عمق أغلبها حوالي ٧٠ م وقد يصل عمق بعضها إلى ١٧٠ م، وليس كل الآبار في الجزيرة معروفة عند السكان، فالكثير منها يكتشفونه صدفة دون سابق معرفة، علماً بأن مياه بعض هذه الآبار مالحة ولا تصلح لشرب الإنسان، وتسمى هذه الآبار باسم "خور - وجمعها خيران" وهي لا تصلح إلا لشرب الجمال<sup>(١)</sup>.

### نباتات الجزيرة العربية وحيواناتها:

إن طبيعة المناخ الجاف وشحة المياه وملوحة التربة يؤثران بدرجة كبيرة في نوعية النباتات ونموها، وأشهر المزروعات في الحجاز النخيل، أما المقع

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة "جزيرة العرب".

فيزرع في اليمن وفي بعض الواحات كما يزرع الشعير والذرة في بعض المناطق والأرز في عمان والحسا. وفي الهضاب المحاذية للساحل الجنوبي يعيش شجر اللبان ولا سيما في مهرة. وقد كان للبان دور هام في تجارة اليمن والجنوب بشكل عام منذ القديم، وينبت الصمغ العربي في منطقة عسير، أما شجرة البن فقد اشتهرت بها اليمن.

وقد دخلت أشجار الكروم إلى الجزيرة في حوالي القرن الرابع الميلادي، وأشهر مناطق زراعتها في الطائف، ويستخرج منها الشراب المعروف بنبيذ الزبيب، وأما الخمرة التي يرد ذكرها في الشعر الجاهلي فقد كانت تستورد من سوريا والعراق.

وكانت الواحات الخصبة تنتج الفواكه والرمان والمشمش واللوز وقصب السكر والبطيخ والبرتقال وغير ذلك. والمرجح أن اليهود هم الذين أدخلوا زراعة هذه الفواكه إلى الجزيرة<sup>(١)</sup>.

أما أشهر الحيوانات البرية التي تعيش في الجزيرة العربية هي النمر والضبع والذهب والثعلب والضب، أما الأسد الذي تكثر الإشارة إليه في الشعر القديم فقد انقرض الآن ولم يعد له وجود.

ومن الحشرات السامة الثعبان والعقرب والرتيلاء، ويكثر الجراد في الصحراء ويسبب آفات كثيرة ويعده البدوي طعاماً شهياً إذا شوي وملح.

أما الحيوانات الأليفة فأشهر ما يوجد منها في الجزيرة الإبل والخيول والشياط والماعز والحمير والبقر والبغال والقردة والنسانيس والكلاب. ومن

---

(١) السيوطي، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٥٤.

الطيور الكواسر في الجزيرة العقاب والبازي والصقر والبوم، هذا إلى جانب الهدد والقبة والعندليب والحمام والقطا والجمل والغراب والبجع وغير ذلك.

## أقسام جزر العرب:

يقسم العرب بلادهم إلى خمسة أقسام كبيرة هي اليمن والجاز وتهمة (وتسمى أيضاً الغور) ونجد واليمامة (وتسمى أيضاً العروض). ويضيف بعضهم قسماً سادساً هو البحرين (وتسمى أيضاً هجر) ويعده بعض الكتاب جزءاً من اليمامة بينما يعده آخرون جزءاً من العراق.

### ١ \_ اليمن:

سميت اليمن يمنا لأنها على حد قول بعضهم تقع على يمين الكعبة، أو لأنها الخير واليمن والبركة على حد قول الآخرين، وكان القدماء يسمونها بلاد العرب السعيدة أو اليمن الخضراء، ويقول الهمданى: "سميت اليمن الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها"، وتمتد اليمن على سواحل بحر العرب وتحدها الحجاز من الشمال والبحر الأحمر من الغرب، وتتكون من عدة أقسام أهمها: حضرموت وشحر وعمان ونجران، وأهم مدنها صنعاء، وتشتهر شحر بإنتاج البخور. شهرة اليمن قديمة جداً ويدرك "سترابو" أن شهرة اليمن وغناها بالخيرات أغرت الإسكندر المقدوني بغزوها، ولكنه أجل مشروعه هذا لما بعد عودته من الهند، وما لبث أن عاجله المنية ولم ينفذ رغبته.

## ٢ـ الحجاز:

وسمى بالحجاز لأنه يقف كالحاجز بين نجد وتهامة، ويقال أيضاً أنه سمي بهذا الاسم لأنه يحجر بين اليمن والشام وفيه سلسلة جبال السراة التي تمتد من اليمن إلى الشام، والأرجح التعليل الأول، وهو أن جبل السراة المعروف بجبل الحجاز "حجر بين الغور، وهو تهامة، وهو هابط، وبين نجد وهو ظاهر، فصار ما خلف ذلك الجبل في غريبه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعك وكنانة وغيرها، ودونها إلى ذات عرف والحجفة وما صاقبها، وغار من أرضها الغور غور تهامة، وتهامة تجمع ذلك كله، وصار ما دون ذلك الجبل في شرقية من صحاري نجد إلى أطراف العراق والسماوة وما يليها نجداً، ونجد تجمع ذلك كله، وصار الجبل نفسه وهو سراته، وهو الحجاز وما احتجز به في شرقية من الجبال وأنحاز إلى ناحية فيد والجلبين إلى المدينة، ومن بلاد مذحج تثليث وما دونها إلى ناحية قيد حجازاً، والعرب تسميه نجداً وجلاساً وحجازاً والجاز يجمع ذلك كله...<sup>(١)</sup>.

وأهم مدن الحجاز مكة والمدينة (يُثرب) والطائف وخمير وفذك والجار وتيماء. (ولن نطيل الحديث عن أهمية مكة والمدينة وعن الحجاز بشكل عام بل سنعود إليه في فصول قادمة).

## ٣ـ تهامة:

تشمل المنطقة الساحلية الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر من اليمن جنوباً إلى العقبة شمالاً، ويحجزها عن داخل شبه الجزيرة سلسلة جبال السراة

---

(١) ياقوت الحموي ج ٢ ص ٢١٩ مادة "جاز".

أعظم جبال العرب، وقد سميت تهامة بذلك الاسم من التهم، وهو شدة الحر ورکود الريح، لشدة حرها وركود ريحها، وقيل سميت كذلك لتغير هوانها، وقيل أن التهمة هي الأرض المنصوبة نحو البحر، ولانخفاض أرض تهامة سميت الغور<sup>(١)</sup>.

ويتألف إقليم تهامة من عدة تهائم، منها ما يدخل في اليمن، ومنها ما يدخل في الحجاز، وتمتد تهامة شماليًّا حتى حدود مكة، وجنوبيًّا حتى حدود صنعاء. وتهامة اليمن سهل خصب تحدُّر إليه الأودية من الجبال وتكثر فيه الأشجار والزروع، ومن مدنه الساحلية الحديدة ومخا وقفذة، ومن مدنه زبيد قصبة التهائم، وفرضتها على البحر علاقة، ومن مؤرخي العرب من يجعل مكة من تهامة، ومن تهامة أيضًا ينبع وهي مدينة صغيرة تقع قريباً من البحر، ومنها أيضًا جدة فرضة مكة وكانت عامرة بالتجارة، ومن تهامة كذلك الحديبية وتبول وهي واحدة تقع بين الحجر وبين أول الشام<sup>(٢)</sup>.

#### ٤- نجد:

وتشمل المنطقة التي تقع شرق الحجاز وتمتد حتى الخليج العربي، وهي هضبة مرتفعة وسط شبه جزيرة العرب، تقع بين بادية السماوة في المال والدهناء في الجنوب وأطراف العراق شرقاً والجاز غرباً، وهي أوسع إقاليم شبه جزيرة العرب، وتخللها أودية كثيرة منها وادي الرمة وروافده، ووادي

(١) المصدر السابق: ج ٤ ص ٢١٧.

(٢) الهمداني ص ٤٧ وما بعدها.

حنيفة، وكان يسمى فلجا، ووادي عاقل، ولذلك كانت نجد أطيب أراضي الجزيرة العربية، فترنم الشعراء برباتها ورياضتها.

وتقسمها العرب إلى قسمين: نجد السافلة ونجد العالية، فالسافلة ما ولـي العراق، والعالية ولـي الحجاز وتهامة. وبنجد جبلان مشهوران صعبـا الارتفاعـ هما جـبلا أجـا وسلمـي المـنسـوبـان إـلـي طـيـ، وبـأـدـنـي جـبـلـ أجـا مـديـنـة حـائـلـ، وـعـلـى سـفـحـ جـبـلـ سـلمـي بـلـيـدـة فـيـدـ، الـوـاقـعـة عـلـى طـرـيقـ الحـجـ العـرـاقـيـ، وـتـصـورـ الـكـثـيرـ مـنـ النـاسـ أـنـ نـجـداـ قـاحـلـةـ تـامـاـ، وـهـذـا خـطـأـ إـذـ أـنـ نـجـدـ تـشـهـرـ بـمـرـاعـيـهـ الـتـي تـرـبـىـ فـيـهـ أـشـهـرـ الـخـيـولـ الـعـرـبـيـةـ.

## ٥ العروض:

وتـعـرـفـ بـالـيـمـامـةـ، وـتـشـمـلـ الـيـمـامـةـ وـالـبـحـرـيـنـ وـمـاـ وـالـاهـمـاـ، وـقـدـ سـمـيتـ عـرـوـضاـ لـأـنـهـ تـعـرـضـ بـيـنـ الـيـمـنـ وـنـجـدـ وـالـعـرـاقـ، وـكـانـتـ الـيـمـامـةـ تـسـمـىـ قـدـيـمـاـ "جوـاـ" وـذـلـكـ عـنـدـمـاـ نـزـلـتـهـ طـسـمـ وـجـدـيـسـ، فـعـرـفـتـ بـالـيـمـامـةـ، نـسـبـةـ إـلـيـ الـيـمـامـةـ بـنـتـ سـهـمـ بـنـ طـسـمـ، وـقـاعـدـةـ الـيـمـامـةـ فـيـ الـقـدـيمـ مـدـيـنـةـ حـجـرـ، أـمـاـ الـبـحـرـيـنـ فـإـقـلـيمـ فـسـيـحـ قـرـيبـ مـنـ الـخـلـيـجـ الـعـرـبـيـ، وـكـانـتـ قـاعـدـتـهـ هـجـرـ، وـقـصـبـةـ هـجـرـ الإـحـسـاءـ<sup>(١)</sup>.

هـذـهـ هـيـ أـقـسـامـ بـلـادـ الـعـرـبـ فـيـ نـظـرـ جـغـرافـيـيـهـ الـقـدـماءـ، وـيـتـضـحـ مـنـ هـذـاـ الـوـصـفـ أـنـ الـعـرـبـ أـطـلـقـواـ عـلـىـ أـقـالـيمـ بـلـادـهـمـ الـمـخـتـلـفـ أـسـمـاءـ مـعـبـرـةـ عـنـ حـالـةـ هـذـهـ الـأـقـالـيمـ الطـبـيـعـيـةـ، مـاـ يـنـمـ عـنـ دـقـةـ فـيـ الـمـلـاحـظـةـ وـمـعـرـفـةـ بـخـصـائـصـ الـبـيـئـةـ، فـالـحـجـازـ مـنـ الـفـعـلـ حـجـزـ وـاحـتـجزـ بـمـعـنـىـ فـصـلـ، فـهـوـ جـبـلـ الـفـاـصـلـ، وـعـرـفـتـ جـبـالـ الـحـجـازـ بـاسـمـ جـبـلـ السـرـاـةـ تـشـبـيـهـاـ بـسـرـاـةـ الـفـرـسـ، بـمـعـنـىـ الـمـرـتفـعـ الـمـسـتـوـيـ

(١) يـاقـوـتـ الـحـموـيـ، جـ٤ـ صـ١١٢ـ "مـادـةـ عـرـوـضـ" وـجـ٥ـ صـ٤٤ـ مـادـةـ "يـمـامـةـ".

حيث تنتشر القرى وواحات النخيل على ظهره، أما نجد فهي من الفعل أجد بمعنى ارتفع (ومنها المرتفع) أو صعد (ومنها الصعيد في مصر). أما الإحساء فأغلب الظن أنها من حسو الماء -الموجود قريباً من سطح الأرض هناك- بمعنى ارتشاقه بعد استبطاطه، فكأنها بمعنى النبط الذي يقال أنه الماء.

أما الدهناء فهي الحمراء والنفوذ تعني التلول، فيما يتعلق باليمن الذي يرى بعضهم أنه من الخير والنماء والبركة، نميل إلى أن نأخذ بمعنى الاتجاه اليمني الذي يقصد به الجنوب على عكس الشام الذي يعني الشمال.

### **بلاد العرب في نظر الجغرافيين القدماء:**

لم تكن كل أقسام الجزيرة العربية معروفة عند الجغرافيين القدماء (اليونان والرومان). وفيما عدا الجزء الجنوبي الغربي حيث بلاد اليمن، والجزء الشمالي المتاخم للشام ومصر، كانت بلاد العرب مجهولة تماماً لدى القدماء ولم تطأها أقدامهم، وتعصمتها الصحاري والبحار المحيطة بها من غزو الأجانب، وقد قسم القدماء بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام:

#### **١ - بلاد العرب الصخرية (Arabia Petrix Or Arabia Petraea)**

وهي عبارة عن المثلث المحصور بين خليجي البحر (شبه جزيرة سيناء) والمنطقة التي تلية إلى الشمال والشمال الشرقي، وعاصمتها مدينة البتراء Petra وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى طبيعة المنطقة الصخرية.

#### **٢ - العرب الصحراوية (Arabia Deserta)**

وكانت تطلق على بادية الشام، ثم شمل اسمها الバادية الواسعة والمناطق الصحراوية التي كانت تسكنها القبائل المتنامية في شبه جزيرة العرب كلها.

٣ - بلاد العرب السعيدة (Arabia Felix):  
وتشمل الجزء الجنوبي الغربي حيث اليمن التي قامت فيها حضارات  
عريقة وهي الأرض الخضراء.

## المبحث الثاني

### السكنان

#### العرب: أصل التسمية

المقصود بالعرب هم أهل البلاد الذين أعطوا اسمهم، فصارت بلاد العرب والذين اشتهروا في التاريخ العالمي منذ كونوا دولتهم الإسلامية وجاوروا الصينيين الذين سموهم بالناشي (أي الناجر على ما يعتقد)، كما سماهم الفرنج بالسراسين Saracens أو المور Maures وهي الأسماء اليونانية والرومانية القديمة، فال الأول يمكن أن يكون نسبة إلى الشرق، والثاني ينسب إلى ولاية موريتانيا في المغرب.

وردت لفظة "عرب" بكثرة في الوثائق الآشورية والبابلية منذ القرن الثامن قبل الميلاد في صيغ متعددة منها Arbi, Urbi, Aribi بمعنى البايدية الواقعة إلى الغرب من بلاد الرافدين وهي بايدية العراق، ثم ظهرت لفظة عربابيارة فيما يقرب من سنة ٣٥٠ق.م لأول مرة في النصوص الفارسية بمعنى البايدية الفاصلة بين العراق والشام بما فيها شبه جزيرة سيناء، كذلك وردت اللفظة في الأسفار القديمة من التوراة بمعنى البدو، في حين كان السكان الحضريون بأسماء قبائلهم أو بأسماء المواقع فيها، ثم أخذ اليونان يذكرون لفظة عرب في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد فذكرها اسكيلوس سنة ٤٦٥ق.م عند

الإشارة إلى قائد عربي كان معروفاً في جيش احشويرش، ثم ذكرها هيرودوت في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد وقدد بها سكان شبه جزيرة العرب كلها بما فيها صحراء مصر الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، وأصبح هذا اللفظ مألوفاً بعد ذلك عند جميع الكتاب اليونان، ولم يرد هذا اللفظ في المصادر العربية الأثرية إلا متأخراً فقد جاء في النقوش السبئية المتأخرة التي لا يرجع تاريخها إلى أبعد من القرن الأول قبل الميلاد<sup>(١)</sup>.

### ولكن ما أصل كلمة "عرب" ومن أين جاءت؟

إن أصل الكلمة "عرب" غير معروف بالتحديد على الرغم من التفاسير التي يقدمها علماء اللغة والفيزيولوجيا<sup>(٢)</sup>. فيقول بعضهم أن الكلمة مشتقة من أصل سامي معناه "الغرب" وأن سكان ما بين النهرين كانوا أول من أطلقها على الأقوام التي تسكن غربى منطقة وادي الفرات. على أن هذا القول صعب الإثبات وتقوم حجج كثيرة ضده، أهمها الاعتراض الذي قد يثار من أنه ليس معقولاً أن يسمى شعب نفسه باسم مشتق من موقعه بالنسبة لشعب آخر، ولعل محاولات ربط أصل الكلمة بقضية حياة البداوة التي هي من صفات هذا الشعب في تاريخه السقيق أجدى وأقرب إلى الواقعية.

كتاب العرب الأوائل ومن نقل عنهم من المؤخرين استلزموا بالمنهج التقليدي في علم الأنساب لتفسير هذه التسمية، وهذا المنهج يرجع -عادةً- أسماء البلاد والشعوب إلى الجنود القدماء أو الأبطال الأسطوريين، فلقد قالوا عن

---

(١) جواد علي، المفصل ج ١ ص ١٧١.

(٢) الفيزيولوجيا: فقه اللغة.

"الترك" إنهم أبناء ترك بن يافث بن نوح، وأن "الخزر" هم أبناء الخزربيين يافث وأن "الفرس" أبناء فارس بن لاوذ بن سام، وأن "النبيط" هم أبناء نبيط بن ماش بن ارم، وأن السريان هم أبناء سريان بن نبط، أو كما قالوا إن إسبانيا نسبة إلى الملك أشبان، أو أن أفريقيا نسبة إلى الملك أفريتش (ملك اليمن الحميري)، أو للملكة أفريقية، أو أن مصر نسبة إلى مصر أو مصراتم بن حام. وهم في بعض ذلك قد تأثروا بالتقاليد اليهودية المعروفة بالإسرائيليات، التي تضع شعوب العالم من شجرة نسب واحدة أصلها: آدم أبو الإنسانية الأول ثم نوح الأب الثاني لها<sup>(١)</sup>.

في إطار هذه التقاليد نسب عبيد بن شريعة الجرمي<sup>(٢)</sup> (وتبعد المؤرخون في ذلك) اسم العرب إلى جدهم يعرب، وهو ابن قحطان بن عابر (هود) الذي كان أول من تكلم باللغة العربية، وعن طريقة تعلمها أخوهه وبنو عمومته الذين تركوا بابل ليقيموا بجواره في اليمن، من: عاد وثمود وجidis وعمليق وطسم وجرهم وغيرهم من المعروفين بالعرب البائدة أي الهاكمة.

وفي رأي فريق من العلماء أن كلمة عرب ذات صلة بكلمة A, rabha "عرابا" العبرية التي تعني "الأرض المظلمة" أو "السهوب" أو بكلمة Erebh "يعرب" العبرية أيضاً التي تدل على الحياة "الفوضى" أو "غير المنظمة" التي هي عكس "الحياة المنظمة" التي يحياها السكان الحضريون، هذه الحياة التي يرفضها البدو ويحتقرونها، أو من الكلمة A,bhar "عبر" وتعني بالعبرية "تحرك" أو "عبر" ومنها اشتقت اسم اللغة العبرية.

(١) انظر: البطري ج ١ ص ٤٠٥-٤٠٥.

(٢) أخبار عبيد بن شريعة ص ٤٣١-٣١٩.

إن الربط بين كلمة "عرب" وحياة البداوة والتقلل أمر ليس بالبعيد الاحتمال، لأن العرب أنفسهم (بما في ذلك القرآن الكريم) استعملوا كلمة "أعراب" للدلالة على البدو الذين تعتمد حياتهم على النجعة والارتحال بعكس سكان المدينة في الجزيرة الذين كانوا مستقرين ويمارسون الزراعة والتجارة وغيرها من أعمال الحضر. ومن هنا جاء التفريق بين "عرب" وأعراب". إذ يقول القرآن الكريم "ولتجدن الأعراب أشد كفراً ونفاقاً<sup>(١)</sup>، والأعراب تستعمل هنا بمعنى البدو، حسبما جاء في كل التفاسير.

وتعد النقش من جنوب الجزيرة العربية أقدم الإشارات العربية المكتوبة، إلى كلمتي "عربي" و"عرب" ففي هذه النقش التي هي من مخلفات الحضارات العريقة التي قامت على أرض اليمن التي أبدعها فرع عرب الجنوب في الحقبة الواقعة بين القرن القليلة السابقة على ظهور السيد المسيح، والقرن القليلة التالية لظهوره تجد أن كلمة "عربي" تستعمل بمعنى "بدوي" أو "غازي" وتصف الإنسان المرتحل تمييزاً له عن ساكن الحواضر المستقر. أما أقدم ذكر للعرب في نقش مستخرج من شمال الجزيرة العربية فيقع في النقش المعروف باسم "نقش النمار" الذي يعود للقرن الرابع قبل الميلاد، وفيه نقرأ اسم امرئ القيس "ملك جميع العرب"، وهذا النقش مكتوب على طريقة الكتابة النبطية الآرامية.

وحيث قام الإسلام في القرن السابع الميلادي استمرت الصلة الواضحة بين كلمة "عرب" ومعنى البداوة، فالقرآن الكريم كما أشرنا آنفاً، يطلق كلمة "الأعراب" على البدو تفرি�قاً لهم عن السكان الحضر الذين كانوا يعيشون في

---

(١) سورة التوبة: ٩٧.

المدن كمكة ويثرب والطائف وغيرها. ويسمى القرآن الكريم اللغة التي يتكلّمها سكان هذه المدن بالعربية.

## أصل العرب:

لا يسمح لنا المقام هنا أن نستعرض جميع النظريات التي تبحث قضية أصل الإنسان الذي سكن الجزيرة العربية، ويكفي أن نقول أن القرائن والدلائل المتوفرة لدينا الآن تشير إلى أن سكان المناطق المرتفعة من اليمن هم أقرب الناس من حيث الصفات العرقية إلى من يسميهم علماء الأقوام بعرق البحر الأبيض المتوسط، وفي شرق مرتفعات اليمن التي يسكنها الناس الذين وصفواهم بأنهم أقرب الناس عرقياً إلى عرق البحر الأبيض المتوسط يتغنى السكان بأغانيات وأشعار قريبة جداً من أغانيات عرق الصيادين الذي كان يسكن في غابات سيلان في الماضي، وتظهر هذه الأغانيات والأشعار بشكل خاص عند قبيلة مهرة والقبائل الأخرى التي تسكن في الجنوب، هذه القبائل التي تتكلم لغة سامية خاصة بها، وتختلف في كثير من التفاصيل مع اللغة العربية. وقد استنتاج العلماء من هذه الأغاني والأشعار ذات الصلة بأغانيات عرق الصيادين الذي سكن سيلان في الماضي (واسمها *Veddah*) بأن هناك صلة عرقية بين سكان الجزيرة وسكان سيلان وربما الهند، وبدو الشمال الذين هم في نظر علماء الغرب الممثلون الحقيقيون للعنصر العربي يشتركون في كثير من الصفات مع عرق البحر الأبيض المتوسط ولكن سكان مرتفعات اليمن يظلون الممثلين الحقيقيين لعرق المتوسط هذا.

إن المسائل العرقية وما يتفرع عنها من نظريات وحلول تهم علماء الأقوام والآثار أكثر مما تهم تلامذة التاريخ العربي، وربما كان من المهم لنا نحن

في دراستنا للتاريخ العربي الإسلامي أن نتعرف وجة نظر المؤرخين والنسابيين العرب في أصل جنسهم، ووجهة النظر هذه فيها الكثير من الصحة والدقة التي ترضي علماء الأقوام المحدثون.

إن أصول وجة النظر العربية تعود إلى الحقبة القديمة من تاريخ الأمم العربية ولكننا لا نستطيع تحديدها بالضبط لأن المصادر التي نستقي منها معلوماتنا متأخرة نسبياً وكل ما يمكننا أن نقوله أن العرب قبل ظهور الإسلام كان عندهم آراء ونظريات تشرح أصلهم وتبيّن نسبهم، وقبل أن نبدأ بشرح وجة النظر العربية يجب أن ننبه إلى أن كافة معلوماتنا عن العصور التي سبقت ظهور الإسلام مستقاة من مصادر إسلامية متأخرة دونَت بعد مدة طويلة من الحوادث نفسها وأن المؤرخين المسلمين نظروا إلى الكثير مما يتعلق بعصر ما قبل الإسلام من خلال إيمانهم الجديد وربما عدوه بما يتنقق مع نظرتهم التي اصطبغت بالصيغة الإسلامية، وهكذا لابد لنا من التحفظ في استعمالنا للمعلومات الواردة في المصادر الإسلامية عن عصر ما قبل الإسلام، هذا فضلاً عن أن وجة النظر العربية في أصل العرب دخلها التعديل في زمان الرسول ﷺ والعصور التي تلت، وأخيراً فإن الإسلام وما دعا إليه من فكرة الإخاء بين جميع المسلمين بقطع النظر عن عرقهم، والتساوي بين العرب وغير العرب، قد ززع الكثير من الأركان التي كانت تقوم عليها وجة النظر العربية في أصل العرب، ولم تعهد نظرية العرق الصافي المنحدر من جد واحد هي الأساس الذي يقوم عليه المجتمع.

لقد وضع النسابيون العرب نظاماً مفصلاً دقيقاً يشرح أصل أمتهم، وعلى الرغم من كل ما في هذا النظام من بعض النقاط الضعيفة أو الغامضة،

والفجوات التي لا يمكن سدها والمتناقضات التي لا يتم معها انسجام النظام لا سيما بالنسبة للعصور القديمة من تاريخ الأمة العربية، فإن النظام بمجموعة يبدو متماسكاً ومحبلاً، ولا تأتي قيمة هذا النظام من كونه نظرية وضعها علماء الأنساب العرب وعليها نحن تلامذة التاريخ العربي في الوقت الحاضر أن ندرسها ونتعرف عليها، بل تأتي من كونه كان الإطار الذي انتظم وأثر في الحياة السياسية والاجتماعية للأمة العربية خلال مراحل تاريخها قبل الإسلام وبعده.

## طبقات العرب:

يكاد الرواة والأخباريون والنسابيون العرب يتفقون على أن العرب ينقسمون إلى ثلاثة طبقات:

١-العرب البائدة.

٢-العرب العاربة.

٣-العرب المستعربة أو المتعربة.

والطبقة الثانية والثالثة يطلق عليها اسم العرب الباقيه، ويعنون بالعرب البائدة الشعوب العربية القديمة التي كانت تعيش في جزيرة العرب، ثم بادت ودرست أخبارهم بعاملين:

- الرمل الزاحف الذي طغى على العمران القديم في أواسط شبه الجزيرة العربية وفي الأحقاف.

- هياج البراكين وما ترتب عليه من تدمير المدن.

والعرب البائدة في نظر النسابيين هم السكان الأصليون لجزيرة العرب:

عاد وثمود وإرم، وجرهم، وطم وجidis، التي انقرضت كلها قبل الإسلام.

وعلى الرغم من الشك الذي يبديه بعض المؤرخين حول وجود قبائل كعاد وإرم فإن القبائل الأخرى كثيرة وغيرها لا خلاف مطلقاً على حقيقة وجودها التاريخي. أما معلوماتنا عن هذه القبائل فقليلة جداً ويكتفينا في أغلب الأحيان الغموض، وكل ما يمكننا أن نقوله بتقى أن هذه القبائل كانت قبائل عربية وتعرف باسم العرب البائدة. وقد أوقع الله بهذه القبائل العقاب وأبادهم لأنهم عصوا أنبياءهم ولم يسيراً في الطريق السوي التي أمر بها الله.

أما العرب العاربة فهم الراسخون فيعروبية والمبتدعون لها بما كانوا أول أجيالها وينسبون إلى قحطان أو يقطن أو يقطن الذي ورد اسمه في التوراة، وهو قحطان بن عابر بن شالخ بن أوفخشذ بن سام بن نوح وكان موطنهم اليمن. إن نسل قحطان هم عرب الجنوب (قبائل اليمن) الذين نشأوا في الزاوية الجنوبية من الجزيرة، في حين أن نسل عدنان هم عرب الشمال الذين ظهروا أول ما ظهروا في القسم الشمالي من الجزيرة، ولسنا نملك من الأدلة العلمية ما يثبت صحة هذا التقسيم أو بطلانه، وهناك بعض المعلومات الثابتة الصحة التي تتناقض مع بعض تفاصيل هذا التقسيم، فمثلاً هناك ما يثبت أن السبئيين كانوا يسكنون الشمال في أول الأمر وهاجروا من شمال الجزيرة واستقروا في الجنوب وأقاموا مملكتهم في اليمن، في حين أن النسائيين العرب يقولون أن سباً هو حفيد قحطان ووالد حمير وكهلان الفرعين الرئيسيين لعرب الجنوب. والشعوب التي عاشت في كنف الدول التي قامت في جنوب الجزيرة -كسباً ومعين وغيرها- كانت تعد أحفاداً لحمير، لهذا أصبح للفظة "حمير" في اللغة العربية معنى يدل على جميع مراحل حضارة دول الجنوب، ولم يقوم هؤلاء الذين انحدروا من صلب حمير بدور هام في الحقبة الإسلامية، بل كان الدور المهم في هذا العصر

لأحفاد كهلان الذين كان من بينهم قبائل طي ومذحج وهمدان والأزد. ومن فروع الأزد قبيلتا الأوس والخزرج اللتان سكنتا المدينة (بترب) وأصبحتا بعد قيام الإسلام تعرفان باسم الأنصار. أما لخم وغسان وكندة وقبائل أخرى من نسل كهلان فقد استقرت في الوسط وفي الشمال قبل قيام الإسلام بمنطقة طويلة، وهذا نرى أنه في القرن السادس ومطلع القرن السابع الميلاديين كانت قبائل كثيرة من أصل جنوبي تقيم في الشمال، وربما أكثر شمالاً من قبائل الشمال نفسها.

وأما العرب المستعربة أو المتعربة فينسبون إلى عدنان بن أدد من ولد نابت بن الهمسع من تيمن بن ثابت بن قيدر بن إسماعيل بن إبراهيم، فـ هم بنو إسماعيل بن إبراهيم (عليه السلام) أو المعديون من ولد معد بن عدنان وقد سمو بالعرب المستعربة لأن إسماعيل عندما نزل مكة كان يتكلم العبرانية، فلما صاهر اليمنية تعلم العربية<sup>(١)</sup>.

إن عدنان جد عرب الشمال تكتف قصة حياته ظلال تجعلها أكثر غموضاً من قصة حياة قحطان لذلك كثيراً ما أرجع عرب الشمال نسبهم إلى معد ابن عدنان، أو حتى إلى حفيده (أي حفيد عدنان) نزار، وإلى مصر وريبيعة ابني نزار يننسب الفرعان الرئيسيان لعرب الشمال، أما أحفاد الابن الثالث لنزار وهو إياد فقد طمس ذكرهم ولم نعد نسمع عنهم منذ قيام الإسلام، وتحتل قيس عيلان - أحد القسمين الكبيرين اللذين تتقسم إليها مصر - مكانة كبيرة في تاريخ عرب الشمال لدرجة أن كلمة "قيس" كانت تستعمل في كثير من الأحيان للدلالة على عرب الشمال بكاملهم، وكان يتبع قيس عيلان قبائل هوزان وسليم، وإلى هوزان

(١) المقدسي، كتاب البدء والتاريخ ج٤ ص ١٠٥.

تنسب قبائل تقيف ومجموعة قبائل عامر بن صعصعة التي من قبائلها قشير وعقيل وجدة وكلاب وهلال. أما خندق، وهي ثاني القسمين الذي تقسم إليه مصر فتضم قبائل هذيل وتميم وكناة (وقريش أحد فروع كنانة)، وعلى الرغم من أن عرب الشمال (بحسب تلك الروايات) لا يتمتعون بدم عربي أصل كعرب الجنوب، وأنهم مستعربون لا عاربة فإن ظهور محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وآله وسلامه خاتم الأنبياء من بينهم (من قريش) رفع مكانتهم بعد الإسلام وجعلهم في مكانة الصدارة بين القبائل العربية.

ومن ربيعة انحدرت قبائل عنزة وعبد القي والنمر وتغلب ومجموعة قبائل بكر بن وائل التي كانت منها قبيلة حنيفة، وقبل ظهور الإسلام بزمن غير قصير هاجرت قبائل من ربيعة ومصر من شبه جزيرة العرب، فسكنت بعض قبائل مصر قرب الفرات في الأرض التي سميت بديار مصر نسبة إليهم، وسكنت بعض قبائل ربيعة قرب دجلة في الأرض التي عرفت باسم ديار ربيعة نسبة إليهم أيضاً، وتختلفت بعض القبائل في شبه الجزيرة ولم تهاجر، فاستقرت هذيل قرب الطائف، وسلمي في الجبال التي تقع بين مكة والمدينة، بينما استقرت تميم وحنيفة وبعض قبائل عامر بن صعصعة في الوسط، وعبد القيس في الشرق.

إن هذا التقسيم الذي أوردناه مختصراً، هو التقسيم الأكثر شيوعاً بين النسابين، وهناك تقسيمات أخرى تعطي اسم العرب العاربة العرب البائرة والذين انحدروا من نسل قحطان، وهناك تقسيم ثالث يسمى العرب المنحدرين من نسل

قططان باسم العرب المتعربة والمنحدرين من نسل عدنان باسم المستعربة<sup>(١)</sup>، ولا شك أن مصدر هذا الانقسام بين العرب إلى قحطانيين وعدنانيين ما ورد في التوراة في سفر التكوين، ومنه أخذ كتاب البدء أي الذين عنوا في أخبارهم ببدء الخلق أمثال وهب بن منبه، وكمب الأحجار، وعبد الله بن سلام، وهم من أهل الكتاب<sup>(٢)</sup>.

لقد أشرنا في الصفحات السابقة إلى أن نظام الأنساب هذا على الرغم من أهميته، فيه الكثير من نقاط الضعف والغموض فضلاً عن الفجوات التي لا يمكن سدها، ذلك أن المعلومات النسبيّة الجاهليّة بقيت شفهية لمدة طويلة بعد ظهور الإسلام، ثم أخذت تחום حول شكلها المسجل لدينا شكوك وتساؤلات كثيرة، وأن بعض هذه التساؤلات والشكوك تستند إلى الحقائق الآتية:

- إن هذا النظام يقسم العرب أفقياً تقسيماً ثلاثياً "عربية - مستعربة - بائدة"، ثم يقسمهم عمودياً إلى أقسام منفصلة "قبائل" وهذا يعني أن العرب ليسوا شعباً واحداً ولكنهم تركيب مزجي استمر خلال العصور الطويلة محتفظاً بعناصره المكونة، دون تفاعل أو امتصاص، إن هذا القول يمكن أن يكون صحيحاً أو ينطبق على بعض القبائل المنعزلة في الصحراء، ولكنه لا ينطبق نهائياً على عرب الجنوب مثلًا "اليمن" الذين أمضوا في حياة الاستقرار والحضارة ما يزيد على العشرين قرناً، كما لا ينطبق على عرب الشام والعراق.
- إن شعر العرب قبل الإسلام (الجاهلي) لا يذكر إطلاقاً عدنان ولا قحطان.

---

(١) طه حسين، في الأدب الجاهلي ص ٧٩، عمر فروخ، تاريخ الجاهليّة ص ٤٥.

(٢) أحمد أمين، فجر الإسلام ص ٥.

- والأكثر من هذا، أتنا لا نجد ذكرًا لأي منها (عدنان وقطان) في أي نقش أو أثر يمني قديم، أو ثمودي أو صفوى وهي نقوش تعد بعشرات الآلاف.
- اضطراب الناس والمؤرخين في مفاهيم "العربية والمستعربة والبائدة".
- اضطراب الناس في تفسير أسماء القبائل التي تدل على تقسيم جغرافي لا تقسيم أنثروبولوجي، وعلى اختلاف مكاني لا عرقي، واختلاف حضاري لا في الأصل أو الجنس.
- لو أجرينا عملية حسابية بسيطة لأجداد القبائل الواردة في سلاسل النسب حتى ظهور الإسلام على أساس معدل معقول للأعمار لوجدنا أن أقدمها لا يتجاوز في الوجود أكثر من خمسمائة سنة، وهذا يدعو للشك في صحة تلك الأنساب.
- إن ما نعرفه من الأنساب بشكل فيه بعض التوسيع والتفصيل هو ما يتعلق بقريش وبعض قبائل الحجاز، وتضعف المعلومات بوضوح ثم تضطرب ثم تختلط كلما ابتعدنا عن هذا المركز وخاصة إذا وصلنا إلى اليمن.
- يضاف إلى ذلك أن علماء الأنثروبولوجيا (علم دراسة الإنسان) لم يلاحظوا وجود فوارق جسمانية بين العدنانيين والقطانيين.
- وأخيراً فوق كل هذه الشواهد فإن القرآن الكريم، وهو أهم مصدر عربي عن تلك الحقبة لم يفرق بين عرب قحطانية وعرب عدنانية، وكل ما جاء فيه أن العرب يرجعون إلى جد واحد هو إسماعيل بن إبراهيم، وأن إبراهيم

"عليه السلام" هو أبو العرب، قال سبحانه وتعالى: (... هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم)<sup>(١)</sup>.

إلى جانب كل ما ذكرناه، لم يصلنا أي أثر يشير إلى انقسام بين العرب في حياة النبي ﷺ كما لم يظهر أي انقسام في عصر الخلافة الراشدة، فضلاً عن ذلك لم يرد في الروايات الخاصة بتنظيمات عمر بن الخطاب رضي الله عنه لديوان العطاء، الذي تم ترتيبه على أساس القرابة من النبي ﷺ والسابقة في الإسلام، ما يشير إلى انقسام أو تمييز بين القحطانية والعدنانية، كذلك لم نشهد مثل هذا التقسيم في توزيع الجيوش العربية في زمن الفتوحات.

إن الحجة التي استند إليها دعاة الانقسام إلى عدنانية وقحطانية هي تأصل العداء بين الجماعتين في الجاهلية والإسلام، وهي حجة ضعيفة لأنه كان هناك عداء أيضاً بين القحطانيين بعضهم بعضاً وبين العدنانيين بعضهم بعضاً، وكيف يجوز لنا أن نتصور انقسام العرب إلى قسمين: قحطانيين وعدنانيين، انقساماً حقيقياً وقد كانت القبائل تحالف فيما بينها وتتحارب بعضها مع بعض بأحلاف قد تكون مزيجاً من قحطان وعدنان؟ فإذا كان الأمر كذلك وإذا كان العرب قحطانيين وعدنانيين بالأصل فكيف تحالفت "جديلة" وهي من طي مع بنى شيبان وهي من عدنان لمحاربة بنى عبس؟ وكيف يفسر تحالف قبائل يمنية مع قبائل عدنانية لمحاربة قبائل يمنية أو لعقد محالفات دفاعية هجومية معها؟<sup>(٢)</sup>.

---

(١) سورة الحج: ٧٨.

(٢) أنظر جواد على ج ١ ص ٢٢٤.

يؤكد العلامة جواد علي أن تقسيم العرب إلى عدنانيين ويمنيين عرف في العصر الأموي، إبان النزاع الحزبي، وبعد شروع نظرية التوراة في الأنساب، ورجوع النسابيين إلى أهل الكتاب للأخذ منهم، إذ أن الانقسام المذكور لم يظهر في العصر الإسلامي السابق لظهوره في زمن الخليفة الأموي مروان بن الحكم<sup>(١)</sup>.

---

(١) المرجع نفسه ج ١ ص ٣٣٢.

**الفصل الثاني**

**كتابات جنوب الجزيرة العربية**

**((طوق الجمن))**

**المبحث الأول: الدور المعيني (الدولة المعينية)**

**المبحث الثاني: الدور السبئي (الدولة السبئية)**

**المبحث الثالث: الدور الحميري (الدولة الحميرية)**

أولاً: عصر الدولة الحميرية الأولى

ثانياً: عصر الدولة الحميرية الثانية

ثالثاً: الاحتلال الحشمي والفارسي للبيمن

## مقدمة

كلمة "العرب" معناها أهل الحجاز من الحضر والبدو فقط. وفي القرآن الكريم البراهين الكثيرة على شمول كلمة العرب، لجميع سكان الجزيرة من الغساسنة والمناذرة، وأهل اليمن.

فالكتاب عربي والرسول عربي والأمة عربية، وتلك آيات القرآن الكريم:

- (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّعِلْكُمْ تَعْقِلُونَ)، [سورة يوسف: ٢].
- (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمَهُ لَيَبْيَنُ لَهُمْ)، [سورة إبراهيم: ٤].
- (نَزَّلْنَا بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُذَرِّينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيًّا مُّبِينًا)، [سورة الشعراء: ١٩٣-١٩٥].
- (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتَذَرُّ أَمَّاقِرِي وَمَنْ حَوْلَهَا) [سورة الشورى: ٧].

إن الجنس العربي لم يكن قاصراً على أهل الحجاز -كما سبق- بل إن الحجازيين كانوا ضمن كيان عام، عربي الجنس، مستقر ومفهوم المدى، في عصر النبي ﷺ، يشعر به غير العرب من الأمم المجاورة لجزيرة العرب، ويشعر به العرب أنفسهم.

وبعبارة أخرى، كان مدلول كلمة: العرب يشكل كل سكان الجزيرة - بما فيهم الحجاز واليمن والشام والعراق- حيث كان فريق منهم غادياً ورائحاً وراء مواقع المطر، أو سائقاً لقوافل التجارة، وفريق آخر كان مستقراً في المدن والحضر: يتمتع بالملك والسلطان، ووسائل الحياة الناعمة المترفة. فكانت الصلات الطبيعية مع الساسانيين في بلاد الفرس وكذلك مع الروس البيزنطيين.

وفي القرآن الكريم، ما يمكن الاستناد إليه في تأييد هذا الذي نقرره، وهو الإشارة إلى الأمة العربية كلها، عندما يوجه الحديث إلى العرب، كما في قوله تعالى: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهادة على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) [سورة البقرة: ١٤٣]، فاستعمال كلمة "أمة" يرشد -حتماً- إلى علوم العرب، وكذلك استعمال كلمة "قوم" في أكثر من موقع يشير إلى ذات المدلول، وسنحاول تتبع الحضارات العربية في مواطنها المذكورة قبل الإسلام، ونببدأ بحضارة اليمن.

تقع اليمن في الطرف الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة، تقطعها من الشمال إلى الجنوب سلسلتان جبليتان تحصاران بينهما هضبة عريضة، وينحدر سطحها نحو البحر بشدة تاركاً سهلاً ساحلياً ضيقاً يقطعه عدد من الوديان التي تصب في البحر، وأمطار اليمن وافرة في الصيف تحملها الرياح الموسمية من شرق أفريقيا، وبعد سقوط الأمطار تتشكل السيلول التي يستعمل ماؤها في الزراعة، وقد أدى توافر الماء إلى قيام مجتمع زراعي مستقر ازدهرت فيه المدنيات منذ القديم.

ولقد عرفت بلاد اليمن قديماً بتجارة العطور والبخور والطيبات والمر والصمغ والكافور والورس، وكان لمنتجات اليمن سوق رائجة في مصر الفرعونية، إذ كان المصريون يستخدمون اللبان اليمني مع البخور في المعابد، كما كانوا يستخدمونه في تحنيط جثث الموتى، وفضلاً عن قيام أهل اليمن بتسويق منتجاتهم الوطنية فقد كانوا يعملون وسطاء للتجارة بين الهند والعراق وببلاد الشام ومصر، فعن طريق اليمن كان لولؤ الخليج العربي وكذلك التوابل

والسيوف الهندية والحرير الصيني والعاج والذهب تصل إلى مصر والشام وال العراق<sup>(١)</sup>.

ولقد أشار عدد كبير من كتاب اليونان والرومان إلى ثروات اليمن فامتدحها هبرودوت لأنها "تزفر أريجاً عطرياً، لأنها البلاد الوحيدة التي تنتاج البخور والمر والقصبعة والقرفة واللادن" وتحدث عنها ثيوفراست، تلميذ أرسطو، في كتابه "تاريخ النبات" كما ذكر خيراتها كل من الجغرافيين المشهورين سترايو وبليني في مؤلفاتهم الجغرافية.

وإلى جانب شهرة اليمن بالطيب واللادن، اشتهرت كذلك بتوافر معدن الذهب، وليس أدل على وفرة الذهب في اليمن مما قاله سيف بن ذي يزن لكسرى عندما نثر دراهمه على خدم القصر: "ما أصنع بالمال، وتراب أرضي ذهب وفضة"<sup>(٢)</sup>.

ومن معادن اليمن أيضاً الرصاص والفضة وال الحديد، فالرصاص يتواجد بين فهم وبين خولان، والحديد يوجد بعدن والأرض الممتدة بين صعدة والجاز، وفي نجران أيضاً جبل يستخرج منه معدن الحديد، وفي نقم وغمدان أيضاً معدن الحديد، واحتهرت الرضراض بالفضة<sup>(٣)</sup>.

أما الأحجار الكريمة فمنها العتيق الذي يكثر في جبل شمام، وفي مخالفه صناع، وأجود العقيق ما استخرج من معدن يسمى مقرى، وقرية يقال لها إلهام

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ١٤٨.

(٢) ابن هشام، السيرة، ق ١ ص ٦٣، الطبرى، ج ٢ ص ٩٤٧.

(٣) الهمданى، ص ٢٠٢.

من جبل قساس، فيصنع بعضه باليمن، ويحمل بعضه إلى البصرة، ومن الأحجار النفيسة معدن الجزع وهو يشبه العقيق بل هو نوع منه، وأجود الجزع القرآنى، ومن الجزع أيضاً أنواع منها العروانى، والفارسى، والحبشى، والعشارى، والسعوانى، والبلور، والمعسل، والمعرق. والمعرق من الجزع تتخذ منه الأواني لكبره، ومن شام أيضاً يستخرج حجر الجمست.

وقد لخص المقدسي خيرات اليمن بقوله: "اليمن معدن العصائب، والعقيق، والأدم، والرقيق، فإلى عمان يخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران والبقم، والساج، والسام، والعاج، واللؤلؤ، والديباج، والجزع، واليواقيت، والأبنوس، والنارجيل، والقندو الصبر، والأسكندروس، والحديد، والرصاص، والخيزران، والغضار، والصندل، والبلور، والفلفل، وغير ذلك. وترزيد عدن بالعنبر، والشروب، والدرق، والحبش، والخدم، وجلد النمر وما لو استقصيناها طال الكتاب".<sup>(١)</sup>.

وقد قسم المؤرخون تاريخ اليمن إلى ثلاثة أدوار تتناسب مع القوى الحاكمة فيها، وربما أضاف بعضهم دوراً يسبق هذه الأدوار يعرف بالدور الخرافي: أو "الدور الميثولوجي". وهو دور لا نملك عنه معلومات تاريخية حقيقة لذلك لا يمكننا أن نحدد له تاريخاً، ولن نخوض في تفاصيله كثيراً.

يببدأ هذا الدور في اليمن بظهور الملك قحطان بن عابر جد عرب الجنوب، ونسب قحطان هذا متصل بسام بن نوح عليه السلام، وينظر المؤرخون العرب أن قطان اتخد صناعة حاضرة له وليس التاج وحكم رعيته بالعدل.

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم ص ٩٨.

وبعد قحطان جاء ابنه يعرب الذي يقال عنه أنه أول من تكلم العربية، ويدعى بعضهم أن يعرب كان كثير الفتوحات وأنه غزا الحجاز وولى أخاه جرهم عليها، كما ولّى أخاه عاد بن قحطان على جبال الشحر، وعماد بن قحطان على أرض عمان. ولما مات ملك من بعده ابنه يشجب بن يعرب، وكان ضعيفاً واهناً لا رأي له ولا قوة، فاستبد به أعمامه واستقروا بمقاطعتهم التي كانوا يحكمونها عنه، ولما مات خلفه ابنه عبد شمس الملقب بسباً.

هذه خلاصة سريعة لرأي المؤرخين العرب عن الأدوار السحرية في  
القدم من تاريخ اليمن، وهناك من يصف دوراً ثانياً يسبق الأدوار المعروفة  
المتفق عليها يطلق عليه الدور البنطي.

## المبحث الأول

### الدورة المعيني (الدولة المعينية) ١٣٠٠-٦٣٠ ق.م

تعد الدولة المعينية أقدم الدول العربية التي قامت في اليمن، وقد أدت الأحوال الطبيعية الملائمة إلى ظهور المدن وازدهار الحضارة منذ أقدم الأزمنة فقامت فيها دول أقدمها الدولة المعينية التي قامت في الجوف وكانت عاصمتها قرناو أو معين.

وقد لاحظ بعض الباحثين ومنهم وينكلر وهو مل ودررتى أن بعض مظاهر الحياة المعينية تشبه حضارة البابليين، فالإلهان شماش وعشتروت البابليان يشبهان شمس وعثر اليمانيين، كما أن النقوش والأختام المعينية تشبه بعض ما وجد في العراق القديم، والمكربين (جمع مكرب) اليمانيين يشبهون الملوك الكهنو السومريين. وقد استنتاج هؤلاء العلماء من ذلك أن المعينيين من أصل عراقي، على أن هذا التشابه الجزئي في الواقع لا يكفي لأن يتخذ دليلاً قاطعاً على أن أصل المعينيين من العراق، وقد يدل على العكس، أي قد يدل على أن سامي العراق قد جاؤوا من اليمن أو ربما يدل على أن العراقيين واليمانيين قد جاءوا من أصل واحد أو من مكان واحد، وقد نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول إن هذا التشابه في المظاهر الحضارية قد يكون دليلاً على وجود صلات بين البلدين منذ أزمنة سحيقة في القديم أدت إلى هذا التشابه الحضاري.

ويعد المعينيون بحق أقدم الشعوب التي حملت لواء الحضارة في بلاد العرب الجنوبية، ويعتقد المستشرق فريتز هومل أن اللفظ الصحيح لاسمهم هو "معان" وليس "معين" وأن "معان" هو النطق القديم جداً للكلمة.

أدى توسيع المعينيين في الشمال إلى احتكاكهم بآشور وفيتنقية ومصر، وكان حكام آشور بحكم إقامتهم بعيداً عن طريق التجارة الرئيسي يتفاوضون مع المقيمين المعينيين في هذه الواحات لا على أنهم يمثلون ملكاً معيناً وإنما على أساس أنهم الملوك الجنوبيين، وفي هذا تفسير للإشارات التي وردت في الوثائق السريانية والعبرية عن السبئيين والمعينيين، إذ تذكرهم هذه الوثائق على أن بلادهم تقع في الجنوب الشرقي للبحر الميت.

وقد استلزم اشتغال المعينيين بالتجارة معرفتهم بتدوين الحسابات التجارية والكتابة، فاقتبسوا الأبجدية الفينيقية لسهولة استعمالها، ودونوا بها لغتهم، وقد عثر على كتابات معينية في مصر في الجيزه، وفي جزيرة ديلوس من جزر اليونان، ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد وتشير هذه الكتابات إلى الصلات التي كانت تربط مصر واليونان بالدولة المعينية في اليمن، كما تشير إلى أن المعينيين حتى بعد سقوط دولتهم بزمن طويل ظلوا يحتفظون بكيانهم الاجتماعي، وتقاليدهم التجارية، كذلك عثر على نقوش معينية في أور والوركاء في العراق، ومن ملوك المعينيين "اليفع وقه" الذي عثر على اسمه في الخربة السوداء، وهي مدينة "تشان" في الكتابات المعينية، كما عثر على اسمه في نقش عثر عليه في براقيش أو "بيثيل" المعينية. وقد ذكر معه اسم ابنه "قه ايل صدق" الذي خلفه في حكم اليمن. كذلك ورد اسم اليفع وقه مع اسم ابن له يدعى "أبو كرب يتع" في نقش عثر عليه في

دين "العلا". ومن ملوك معين أيضاً الملك "أب يدع يثع" الذي عثر على اسمه في خرائب معين نفسها<sup>(١)</sup>.

ونستدل من الكتابات المعينية التي عثر عليها في الجوف اليمني وفي ديدن (العلا) على أن حكومة معين كانت حكومة ملوكية، كما نستدل منها أيضاً على أن لقب ملك كان من الجائز أن يتلقى به اثنان في آن واحد من أبناء الملك أو من أشقاءه. وكانت للمدن المعينية مجالس تدير شؤونها في السلم وال الحرب تعرف باسم "مسود" على النحو الذي كانت عليه "دار الندوة" في مكة قبل الإسلام. كذلك نستدل من النقوش المعينية على أنضرائب كانت تتقسم إلى ثلاثة أنواع: ضرائب تعود جبايتها لخزانة الملك، وضرائب تؤول إلى المعابد، وضرائب إلى المشايخ والحكام. وضرائب المعابد نوعان: نوع يقال له "أكرب"، أي تقدمها القبائل تقرباً للآلهة، ونوع إجباري كان يفرض على الأفراد يقال له عشر<sup>(٢)</sup>.

وعلى الرغم من كل هذه البيانات المهمة فإن ما يؤسف له أن ما لدينا من معلومات لا يساعدنا على رسم صورة متكاملة لتاريخ هذا الشعب القديم ولمؤسساته الاجتماعية والسياسية والدينية، وما وصلنا من أخباره لا يكفي لمعرفة مكانته بين الشعوب العربية الجنوبية الأخرى، والعلماء مختلفون في تاريخ ظهور هذا الشعب على المسرح السياسي. ويلخص الدكتور فؤاد حسين علي<sup>(٣)</sup> في تعقيبه على ما كتبه نيلسن وهومن ورود وكناكس وجرمان هذه

(١) جواد علي ج ١ ص ٣٨٥-٣٩٣.

(٢) المصدر السابق: ج ١ ص ٤٠٥.

(٣) التاريخ العربي القديم، ص ٢٦٩ وما بعدها.

الخلافات بين العلماء بقوله: "فمن العلماء أمثال كلازير و هوبل وفيمر وفيليبي من يقول بقدم المعينيين والقتبانيين والحضارمة وأن تاريخ المعينيين يرجع إلى حوالي ١٢٠٠ق.م، فالمعينيون في رأي هذا النفر من العلماء أقدم من السبائين بينما نجد أمثال موللر ومارتين هارتمان وغيرهما يقولون بالعكس، وهناك فريق ثالث من العلماء على رأسهم ك. ملاكر يذهب طريقاً وسطاً ويقرر أن القتبانيين والمعينيين جاؤوا مباشراً بعد سباً وقد تم في فترة تبلغ نحو قرن.

ولو كان الخلاف بين العلماء يقف عند مكانة كل من معين وسباً من الأخرى لهان الأمر، ولكن الخلاف استتبع خلافات أخرى حول الحقبة التي ظهرت فيها معين أو سباً، ومن العسير حقاً الآن أن يصدر مؤرخ رأياً قاطعاً حول ملوك دولة ما من دول بلاد العرب الجنوبية والزمن الذي ملكوا فيه، ومن هنا أدركنا أن أسلم الوسائل لإعطاء صورة للقارئ عن ملوك تلك الممالك أن نضع تحت يديه الآراء المختلفة حتى تستكمل الدراسة الأثرية لبلاد العرب، وعندئذ فقط يصبح من اليسير على المؤرخ ترجيح رأي على آخر".

وحتى نوضح هذا الخلاف بين العلماء المحدثين ومداه يمكننا أن نذكر الآراء المختلفة والاجتهادات المتباينة التي قدمها العلماء في مجال تاريخ الأسرة المعينية، يعتقد فيليبي أنه تناوبت خمس أسر على عرش المملكة المعينية، وبين حكم الأسرة والأسرة الأخرى فترة مظلمة لا نعرف عنها شيئاً، كما أن مدة حكم كل أسرة من هذه الأسرة الخمس غير معروفة ويقدرها فيليب تقديرًا، فهو يفترض أن مدة حكم كل ملك هي ٢٠ عاماً وأن الفترة الفاصلة بين حكم كل أسرة والأسرة التي تليها هي ٢٠ عاماً أيضاً. ويعتقد هذا المؤرخ أن أول أسرة من الأسر قد بدأت حكمها سنة ١٢٠٠ق.م، وقد تتبع على الحكم منها أربعة ملوك يبلغ مجموع ما حكموه ٨٠ عاماً، وإذا أضفنا إلى هذه الثمانين عاماً عشرين عاماً

أخرى هي المدة الفاصلة بينها وبين الأسرة الثانية لكان المجموع ١٠٠ عام، ومن ثم جاءت الأسرة الثانية، وقد حكم منها ٩ ملوك بلغ مجموع مدة حكمهم ١٥٠ عاماً، لأن فيهم ثلاثة أزواج كل زوج من أخرين، وهكذا يكون بدء حكم الأسرة الثانية في العام ١٠٢٠ق.م، وانتهاؤه في العام ٨٧٠ق.م، فإذا أخذنا بعين الاعتبار مدة العشرين عاماً وهي الفترة المظلمة التي يضعها فيليبى حداً فاصلاً بين حكم الأسرة والأسرة التي تليها لكان بدء حكم الأسرة الثالثة سنة ٨٥٠ق.م وقد ملك من هذه الأسرة الثالثة أربعة ملوك ابتداء من سنة ٨٥٠ق.م يكون بهذا الشكل وعلى أساس تقديرات فيليبى بدء حكم الأسرة الرابعة نحو سنة ٧٥٠ق.م، وقد حكم من هذه الأسرة ثلاثة أو أربعة ملوك، امتد حكمهم حسب تقدير هذا المؤرخ حتى سنة ٦٧٠ق.م وهو تاريخ بدء حكم الأسرة الخامسة التي حكم منها ملakan أو ثلاثة، وهكذا يكون عدد ملوك المعينين حوالي ٢٢ ملكاً حكموا من سنة ١١٢٠ق.م وحتى ٦٣٠ق.م أو ما بعدها بقليل.

ويوافق فيليبى على هذا الرأي علماء آخرون من أمثال هومل وغيره، ويخالفه فيه آخرون أمثال البرايت الذي نشر في (مجلة المدارس الأمريكية للأبحاث الشرقية - العدد ١١٩) بحثاً حول تاريخ بلاد العرب الجنوبية بناء على أساس النتائج الأولى لأعمال الحفر التي قامت بهابعثة الأمريكية الأولى في قتباي. ويحدد البرايت في بحثه هذا مدة حكم الملوك المعينين بين سنتي (٤٠٠-١٠٠)ق.م. أما العالم ملاكر فيرى أن حكم معين يمتد بين القرنين الثامن والثالث قبل الميلاد.

وهكذا نجد الخلافات الكبيرة بين العلماء حول موضوع أساسى كهذا الموضوع، وما يؤسف له أننا لا نملك أية وسيلة لترجيح رأى على رأى لأن المعلومات لم تستكمل وكل يجد ما يبرر به رأيه، وغير خاف أن هذا الخلاف

حول تاريخ حكم معين يؤثر وبالتالي على تاريخ حكم الدول الجنوبيّة الأخرى لأن تاريخ حكم كل دولة مرتبط بتاريخ الدولة التي سبقتها، ولأن تاريخ الدولة اللاحقة لا يمكن أن يحدد ما لم يحدد تاريخ الدولة التي سبقتها.

وهناك قضية أخرى ترتبط بتاريخ دولة معين وهي قضية الحكم في حضرموت، وما إذا كانت حضرموت مستقلة لها أسرة حاكمة خاصة بها أم أنها كانت تتبع معين، الواقع أن بين المؤرخين من يعتقد أن حضرموت كانت تابعة في حقبة من تاريخها لحكم المعينيين بدليل أن بعض الملوك المعينيين كانوا يتلقبون بلقب ملوك حضرموت إلى جانب معين.

ولكن إلى جانب هذه الحقيقة نجد أن بعض النصوص تنص على انتقال حضرموت إلى تبعية سباء وقبان أو بشكل أوضح تختفي حضرموت من التاريخ المعيني وتستقل أو تدخل في تبعية سباء، ويبدو أن حضرموت ظلت تتبع غيرها من الدول التي قامت حتى سنة ٢٠٠ ق.م إذ أن النقوش المتوفّرة حتى الآن لا تشير إلى أي ملك حضرمي جلس على العرش قبل هذه السنة ٢٠٠ ق.م. ويبدو هذا معقولاً لأن سباء التي يمكن أن تكون هي الدولة التي تولت الحكم في حضرموت بعد معين كانت منذ القرن الثالث قبل الميلاد قد بدأت تدب فيها عوامل الانحلال والتدهور، وكان لابد لحضرموت من أن تهتم بإعاش نفسها في هذه الحقبة حتى تستطيع الهيمنة على الطرق التجارية التي تمر منها أو التي ينقال عليها البخور.

ويعتقد بعض المؤرخين أن أول أسرة ملكية حضرمية جاءت إلى الحكم سنة ٢٠٠ ق.م واستمرت في أشغال العرش حتى سنة ١٠٠ ق.م، وأما المدة ما بين ١٠٠ ق.م و٢٩ م التي يطلق المؤرخون عليها اسم فترة شبوة فقد شغل العرش

فيها أسر أخرى وكان في أثناءها طريق تجارة البخور الممتد بين قنا وشبوة تحت سيطرة ملوك حضرموت.

وهناك إلى جانب قضية حضرموت قضية أخرى هي قضية "قتبان" هذه المملكة الجنوبية التي لاشك أنها كانت موجودة في يوم من الأيام، ولكن متى؟ ومن أهم ملوكها هذان أمران ما يزال العلماء في خلاف حولهما، وهناك نفر من الباحثين يعتقد أن قتبان كانت معاصرة لمعين أو سباً أو لمعين وسباً معاً.

والتاريخ القباني الذي يستطيع المؤرخ الاعتماد عليه والأخذ به يعود إلى القرنين الحادي عشر أو العاشر قبل الميلاد، إذ جاءتنا من هذه الحقبة نقوش تثبت أن قتبات في هذه الفترة كانت تعيش مرحلة انتقال في تاريخها إذ جاء بعدها عصر المقربين الذين حكموا قتبان عدة قرون، وقد وصلتنا أسماء عدد منهم حكموا البلاد فيما بين الفترة الواقعة على حكم قتبان ثلاث أسر ملكية ابتدأ حكم أولها في القرن الخامس قبل الميلاد واستمرت حتى سنة ٣٥٠ق.م. ومن (٣٥٠-٢٥٠ق.م) حكمت الأسرة الثانية وكان آخر ملوكها "شهر هلال يوهنعم" الذي أقام السلة التي عثر عليها في مدينة تمنع وبوفاته انتهت الأسرة القبانية الثانية، وتناوب العرش القباني بعدها عدد من الملوك لم يستطع المؤرخون أن يعرفوا أسماءهم أو يحددوا تواريخ حكمهم، واستمر الحال كذلك حتى سنة ١٠٠ق.م حيث اعتلت الأسرة القبانية الثالثة العرش، واستمرت في الحكم حتى سنة ٢٥ق.م، وبانتهاء الأسرة الثالثة جلس على عرش البلاد عدد من الملوك ظلوا يتناوبون الحكم حتى زال استقلال البلاد وخضعت لسباً، ويبدو أنه قبيل بداية القرنين الميلاديين غزا شعب غير معروف عاصمة قتبان "تمنع" وأحرقها، كما ظهرت مملكة جديدة في اليمن عرفت باسم مملكة سباً وذي ريدان وأصبحت

تملك من القوة ما استطاعت به أن تستولي على غيرها من الممالك الموجودة على الأرض اليمنية.

ولم تكن مملكة "سباً وذو ريدان" الوراثة الوحيدة لدولة قتبان بل شاركها في الغنيمة دولة أخرى هي دولة حضرموت التي ضمت إلى أرضها جزءاً من أرض قتبان القديمة. وليس يعني هذا أن قتبان قد فقدت سلطانها وجودها نهائياً بقيام مملكة سباً وذي ريدان، بل يبدو أن ملوكاً قتبانيين استطاعوا المحافظة على الجزء الغربي من قتبان واتخذوا مدينة "حربيب" عاصمة لهم، وذلك بعد أن استولى الحضارمة على الجزء الشرقي من البلاد وخربوا العاصمة "تمنع" في أواخر القرون السابقة للميلاد أو أوائل القرون الميلادية<sup>(١)</sup>.

اشتغل المعينيون بالزراعة والتجارة، وكان بعضهم بدواً يرعون الماشية ويعيشون حياة تنقل وترحال، وكان مجتمعاً معيناً مؤلفاً من عدة طبقات فيه الأرستقراطيون والعبيد وبين الطبقتين طبقات أخرى، وهم بوجه عام متدينون يعيرون الدين أهمية كبيرة وللمرأة بينهم مكانة محترمة ومقام رفيع.

وقد كان المعينيون يتكلون لغة السبئيين نفسها مع اختلاف في اللهجة، وكانوا يستعملون الحروف في كتاباتهم، وهناك من يعتقد بأنهم أول من اخترع الألباء وأنها انتقلت من عندهم إلى سيناء وبلاد الفينيقين ومنها إلى اليونان.

---

(١) انظر، جواد علي، المفصل ج ٢ ص ١٧٣، وما بعدها ونبيه عاقل: تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ص ٨٢ وما بعدها.

## المبحث الثاني

### الدوس السبي (الدولة السبيّة) م.٨٠٠ ق.م - ١١٥ ق.م

ورد اسم سبا في التوراة<sup>(١)</sup> بأنها بلاد تتنج الطيوب واللبان، والأحجار الكريمة ومعدن الذهب وأن ملكة سبا زارت سليمان في أورشليم، وحملت إليه الطيوب والذهب الكثير والأحجار الكريمة، كما جاء ذكر ملكة سبا في القرآن الكريم في سورة النمل<sup>(٢)</sup>.

لا تذكر المصادر التاريخية شيئاً واضحاً عن أصل السبيتين، لذلك اختلف المؤرخون في أصلهم، فبينما تذكر الروايات العربية أن سبا من ولد يشجب بن يعرب بن قحطان وتسميه بعد شمس، وتفسر تسميتها بسبا بأنه كان يسبى الذراري والأطفال، وأنه أكثر من الغزو في أقطار البلاد وسبا خلقاً كثيراً وهو أول من سن السبي عند العرب، نجد أن سبا ورد في التوراة باعتباره من كوشن ابن حام مرة، ومن ولد يقطان مرة ثانية، وأغلب الظن أن السبيتين كانوا في الأصل شعوباً بدويأً يتنقل بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها، ثم استقر هذا الشعب في بلاد اليمن فيما يقرب من عام ٨٠٠ ق.م نتيجة لضغط الآشوريين عليهم من الشمال، واستغل السبيئون ضعف المعينيين فأخذوا يوسعون منطقة نفوذهم على حساب دولة معين، فلما قوي أمر السبيتين قضوا على الدولة المعينية، وأقاموا دولتهم على أنقاضها، وورثوا لغتها وديانتها وتقاليد شعبها،

(١) الكتاب المقدسي، سفر ارميا ٦:٢٠، سفر حزقيال ٢٧:٣٣، ٣٤. سفر الملوك، ١٠:٢، ١:٢.

(٢) الآية: ٢٢-٤.

وخلفوهم في الاشتغال بنقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق، حتى أصبحوا في القرون الأولى قبل الميلاد أعظم وسطاء للتجارة بين الحبشة والهند وبين الشام ومصر، ويرى بعضهم أن السبئيين كانوا يستوطنون الجوف، غير أنهم تركوا مواطنهم وارتحلوا إلى جنوب الجزيرة العربية في القرن الثامن قبل الميلاد، واتخذوا صرواح ثم مأرب عاصمة لهم، ويعتقد أنهم كانوا في الأصل يقيمون في الموضع التي أطلق عليها الآشوريون اسم "عربي" أو "أريبي" ووردت في التوراة باسم "يارب" أو "يعرب"، فلما استقروا في اليمن أسسوا عاصمتهم مأرب التي سميت كذلك نسبة إلى اسم موطنهم الأصلي "أريبي" أو "يارب". وتؤكد النقوش السبئية أن أول مقارب سباً أو رؤسائها المقدسين والمؤسس الأول لدولة سباً هو "سمه على" أو "سمح على" (حوالي ٨٠٠-٧٨٠ ق.م.).

ازدهرت دولة سباً نتيجة احتراف شعبها الزراعة، فضلاً عن سيطرتهم على الطريق التجاري البري الذي يربط الجنوب بالشمال، وأصبح لدولة سباً نفوذ واسع يمتد من اليمن جنوباً إلى نجد والحجاز شمالاً، وأصبحت أيضاً تسيطر على طريق التجارة العالمية الذي يربط جنوب شبه الجزيرة بسوريا ومصر، وكانت حكومة سباً تبعث حكامها يقيمون في الواحات الشمالية التي تقع على هذا الطريق التجاري، إلى جانب حاميات عسكرية، لتضمنبقاء هذه المحطات التجارية في دائرة النفوذ السبئي، وكانت واحة ديدن "العلا" المركز الرئيسي الذي تمارس فيه سباً نفوذها على شمال بلاد العرب.

يمكن تقسيم حكم دولة سباً في اليمن إلى مرحلتين تاريخيتين وذلك حسب الأسماء التي كانت تطلق على الملوك السبئيين، ففي المرحلة الأولى كانوا

يطلقون على رؤسائهم لقب "مكرب" وهي كلمة دينية تعني "المقدس"، وفي مرحلة لاحقة أصبح رؤساؤهم يتلقبون بـ "ملوك سباً".

## مرحلة المكارب:

ذكرنا أن مؤسس دولة سباً هو "سمح علي" وكان أول المكارب، وقد وصلنا من عصر هذا المكرب نقش نتبيان منه أنه كان يقدم البخور والمر هدية لإله المقه الذي أرشد القبيلة بعد تجوالها إلى "أرض فيها اللبن والعسل". وقد خلفه ابنه "يدع ايل ذريح" (فيما يقرب من سنة ٧٨٠ق.م) الذي أسس معبداً للإله المقه في صرواح، كما أقام معبداً آخر للإله المقه في مأدب.

وخلف "يدع ايل ذريح" ابنه "يثع مروتر" الذي ينسبون إليه بناء معبد للإله المقه في بلدة دابر الواقعة بين مأرب ومعين في الجوف، ونستدل من الموضع الذي أقيم فيه هذا المعبد على أن السبئيين اصطدموا بالمعينيين، وقام "يدع ايل بين" بن "يثع مروتر" وخليفته من بعده بتحصين أبراج مدينة نشق المعينية.

واهتم مكارب سباً منذ بداية القرن السابع قبل الميلاد بالإصلاحات الزراعية، فقد وزع "كرب ايل بين" الأراضي الواقعة حول نشق للفلاحين لاستصلاحها واستغلالها زراعياً، ونهج ابنه "ذمر علي ذريح" السبيل نفسه، وينسب إلى "سمح علي ينف" بن "ذمر علي" تنفيذ أعظم مشروع للري عرفه بلاد العرب في العصر القديم، وهو إنشاء سد على فم وادي ذنه بمأرب يعرف باسم سد رحب سنة ٦٥٠ق.م، وذلك لحجز مياه السيول والأمطار، والإفاده منها في ري مساحات كبيرة من الأراضي، وقد ساعد هذا السد على تنظيم ري

المناطق المجاورة للسد طوال العام، ولكنه لم يكن يفي بجميع حاجات الأراضي الزراعية، لذلك عمد "يشع مربين" بن "سمح علي ينف" إلى زيادة رحب طولاً وعرضًا وارتفاعًا، وأقام سداً أعظم منه يعرف بسد "حبابض". وبذلك نجح "يشع مربين" في مد الرقعة الزراعية بمارب وزيادة ثروات البلاد، وكان لهذين السدين بمارب أعظم الأثر في تحويل مأرب إلى جنتين عن يمين وعن شمال.

أقيم سد مأرب المعروف على فم وادي "ذنه" حيث تجتمع معظم مياه السيول عقب هطول الأمطار، ويبلغ طوله نحو ٨٠٠ ذراعاً، وقد بني بالحجارة والتراب، وينتهي أعلاه بسطحين مائلين على شكل زاوية منفرجة تكسوها طبقة من الحصى تمنع انجراف التراب عند تدفق المياه، ويتركز السد على جبلين، ويترفع منه عند كل من طرفيه قنوات تعرف بالميزاب، لها فتحات تترك مفتوحة لري سطح الجبلين، ثم تغلق بعد ذلك، وقد أصلاح هذا السد ورمم في العصور التالية أكثر من مرة.

وقد أضيف إلى السد إضافات متعددة حتى اتخذ شكله النهائي على عهد "شمر يهرعش" حوالي سنة ٣٠٠ ق.م، وقد أدى اضطراب الأحوال في أوار عهد الحميريين إلى إهماله وحدوث تصدع فيه، وقد حاول إبراهيم إصلاحه ولكنه تسبب فيما بعد فأغرق الأرضي وأثر على الزراعة، وللعرب روایات متعددة حول خراب السد تميل إلى الخرافة ويعزون إلى هذا الخراب هجرات الغساسنة والمناذرة والأزد، وليس من شك أنهم مغالون في هذا إذ أن تخريبه أدى إلى تدمير الزراعة في المنطقة المزروعة حول مأرب فقط.

آخر مكارب اليمن و"رب إيل وتر" الذي اعتمد سياسة التوسع العسكري، وأهمل الإعمار، فهاجم الدولة المعينة وقضى عليها، وانتصر على

القبانيين الذين كانوا يسكنون في الطرف الجنوبي الغربي من بلاد اليمن على تخوم حضرموت وجنوب مناطق نفوذ السبئيين، وقد سجل "كرب إيل وتر" هذه الانتصارات على جدران معبد صرواح قرباناً لآلها سباً "المقة وعثرة"، ثم نبذ هذا المكرب لقبه وتلقب بملك سباً، وأصبح بذلك أول حكام سباً الذين تلقبوا باقبح "ملوك سباً".

### مرحلة ملوك سباً:

في هذه المرحلة ازدهرت دولة سباً وأصبح لديها أسطول تجاري كبير ينقل البخور والطيوب إلى مصر، والحرير والتوابيل من الهند، وكان من الطبيعي أن يتقدّم السبئيون في الملاحة إذ أن بلادهم كانت تضم سواحل بعضها على بحر القلزم (الأحمر)، وبعضها الآخر على بحر الهند، وكانت أهم مرافقتها عدن، وكان السبئيون يعتمدون في الملاحة في المحيط الهندي والبحر العربي على حركة الرياح الموسمية ويسيرون سفنهما حسب أوقات حركتها التي تتبدل حسب المواسم تبدلاً تاماً، وقد احتفظوا لأنفسهم بمواعيد هذه الرياح واعتبروا ذلك سرًا لا يطلعون عليه أحداً، مما ساعدتهم على احتكار التجارة مع الهند، هذه التجارة التي كانت تدر عليهم أرباحاً طائلة.

وفي عهد ملوك سباً، وابتداء من سنة ٥٠٠ ق.م. بدأت تظهر أسرات قوية قامت بدور خطير في سياسة بلاد العرب الجنوبية، من بينها أسرة همدانية تمكنت من اغتصاب العرش من ملوك سباً، كما ظهرت آلية جديدة لم نسمع عنها من قبل مثل "ذو السماء" أو "ذو سماوي" أو "رب سماوي"، وهي أسماء تعكس تطوراً

خطيراً في حكومة سبا، وتغييراً مهماً في السياسة وفي الدين وفي النظم الاجتماعية<sup>(١)</sup>.

أخذ مركز ملوك سبا يضع منذ أن عمل البطالمة في مصر على احتكار التجارة الشرقية، ولاقى ملوك سبا منذ سنة ٣٥٠ ق.م. كثيراً من المتابعة التي أثارها الهمدانيون وغيرهم من القبائل الأخرى الطامعة في الحكم.

كانت سياسة ملوك سبا تهدف إلى توحيد الإمارات ودمجها في كيان المملكة، غير أن هذه السياسة اصطدمت سريعاً بالمصالح الإقطاعية التي رفضت التمازن عن استقلاليتها، ونتج عن ذلك قيام اضطرابات عنيفة وثورات داخلية أضرت بالوضع الاقتصادي والسياسي لمملكة سبا، ووّقعت فریسة للتدخل الخارجي في شؤونها، وفقدت سيطرتها على تجارة البحر الأحمر وسواحل إفريقيا، وبالتالي انتقلت التجارة البحرية من أيديهم إلى اليونان والروماني.

وفي العصر الأخير من هذه المرحلة قام نزاع خطير على العرش السبئي كان له أعظم الأثر فيما أصاب البلاد من خراب ودمار، نتج عنه تحول الكثير من الأراضي الزراعية إلى صحراء، استفاد الحميريون من هذه الأوضاع المضطربة ونجحوا في انتزاع العرش السبئي، وأسسوا في سنة ١٥١ ق.م. أسرة جديدة لقب ملوكها بلقب "ملوك سبا وذي ريدان".

---

(١) جواد علي ج ٢ ص ٤٨١.

### المبحث الثالث

## الدور الحميري "الدولة الحميرية" (١١٥ ق.م - ٢٥٢ م)

ينقسم هذا الدور إلى عصرتين:

### أولاً: عصر الدولة الحميرية الأولى (ملوك سباً وذريدان) (١١٥ ق.م - ٣٠٠ م)

أول ذكر للحميريين في آثار اليمن يعود لسنة ١١٥ ق.م حيث تذكر النقوش أسماء الملوك وقد حملت لقباً جديداً وهو "ملك سباً وذريدان"، وريدان هي التي عرفت فيما بعد باسم "ظفار" عاصمة الحميريين، وهي تقع على بعد مائة ميل من مخا، (وهي غير "ظفار" المدينة البرية التي كانت هي العاصمة). في هذه المنطقة البحرية ظهرت دولة حمير الأولى وامتد تاريخها سنة ٣٠٠ م.

لقد وردت أول إشارة للحميريين في المصادر اللاتينية في كتاب "الطواف حول البحر الأرثيري" ومن ثم في كتابات بلينوس، والصلة بين سباً وحمير متينة جداً غير أنه كان للحميريين منذ أيام السبئيين كيان سياسي متميز ويسكنون المنطقة الساحلية، وقد ساعدتهم موقعهم الساحل على أن يقوموا بدور تجاري هام، وكانت الزراعة مزدهرة عندهم وتعتمد على ري الآبار والسدود والأحواض، وكانت بعض مناطق نفوذهم غنية بالذهب ولا سيما في عسير، على أن اللبان كان أهم منتوجاتهم وهو يشكل مادة أساسية من مواد التجارة.

وفي عصر هذه الدولة حدثت الحملة الرومانية المعروفة بحملة "اليوس غالوس" حاكم مصر الرومانية في سنة ٢٥ ق.م للاستيلاء على اليمن بغية السيطرة على طرق التجارة التي كان يحتكرها ملوك سباً، واستغلال ثروات

اليمن، فضلاً عن تطهير البحر الأحمر من القرابنة، واعتمد آليوس جالوس في حملته على مساعدة الأنباط في عهد ملکهم عبادة الثاني، الذي وعد الرومان بتقديم كافة المساعدات، كما وضع وزيره صالح "سايليوس" تحت تصرفهم ليكون دليلاً لهم في بلاد العرب، ويدرك "سترابو" أن الحملة خرجت من ميناء "لويكة كومة" ميناء الأنباط المعتمد أنها "الحوراء"، وسلكت الطريق البري عبر الحجاز، ووصلت إلى "مارسيابا" مارة بنجران ونشق، وبعد ستة أشهر تعرض الجندي لها لأمراض وأوبئة، فضلاً عن متاعب لا حصر لها بسبب عورة الطرق، وقد لقيت الحملة مقاومة شديدة اضطر معها "آليوس جالوس" أن يقل راجعاً بعد أن حاصر مدينة مأرب ستة أيام، وقد لاقى جيشه في عودته الكثير من المصاعب والأهوال وفتاك به المرض والعطش، ويدعى الرومان أن سبب فشلهم يرجع إلى عوامل المناخ، والواقع أن مقاومة اليمنيين هي السبب الرئيسي لعدم نجاحهم في إخضاع البلاد، وهكذا نجت اليمن من الهيمنة الرومانية.

تذكر الأخبار أن أحد ملوك هذه الدولة واسمه "ليشرح بن يحصب" هو الذي بني أفحى قصور اليمن، وهذا القصر هو "قصر غمدان" في صنعاء، ويقول الهمداني وياقوت في وصف هذا القصر: أنه كان مؤلفاً من عشرين طبقة مسقوفة بعضها فوق بعض وبين كل سقفين عشرة أدوع، وكان البناء من الجرانيت والمرمر والبورفير، وكان مجلس صاحب القصر في الطبقة العليا التي كان سقفها عبارة عن رخامة واحدة شفافة، فكان صاحب القصر يستلقي على فراشه في الغرفة فيمر به الطائر فيعرف أغراضاً أم حداً أم غير ذلك، وكان للقصر أربعة أبواب، منها وجه مبني بحجارة بيضاء ووجه بحجارة حمراء، وقد بقي هذا

البناء حتى بعد ظهور الإسلام، وربما هدم في أثناء الحروب التي جرت في اليمن في عصر صدر الإسلام.

نظام الحكم في هذه الدولة كان ملكياً، والملك مستبد وحكمه عبارة عن خليط غريب من النظام القلبي القديم ونظام الطبقات والأرستقراطية والملكية الإقطاعية، وقبيل نهاية الدور الحميري الأول بدأت قوة عرب الجنوب تضعف، وكان ذلك نتيجة مزاحمة الرومان لهم في نقل التجارة بالطريق البحري مزاحمة شديدة، وبسبب عدم تركيز جهودهم على الطريق البري التي كان بإمكانهم احتكارها لكثرة ما عليها من محطات حميرية، ولكنهم أهملوا الاهتمام بالطرق البرية فضعفوا وتضاعلت أهميتهم التجارية. وهذا الطريق البري بمحطاته المتعددة هو الذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة سباء في قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْبَىٰ الَّتِي بَارَكَنَا فِيهَا قَرِيرًا ظَاهِرًا وَقَدْرَنَا فِيهَا السَّيرَ سِيرًا فِيهَا لِيَالِيٍّ وَأَيَامًاٍ آمِنِينَ، فَقَالُوا إِنَّا بَاعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمْنَا أَقْسَمَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمِنْ قَانِمَ كُلَّ مُنْزَقٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَا شَكُورٍ»<sup>(١)</sup>.

ثانياً: عصر الدولة الحميرية الثانية (ملوك سباء وذري ريدان وحضرموت ويمنات)  
"٣٠٠ م - ٥٢٥ م"

بحدود سنة ٣٠٠ م تمكنت دول حمير من استعادة قوتها الثانية وضمت إليها القبائل المجاورة وأخضعت حضرموت وسائر بلاد اليمن وأصبح لقب ملوكها "ملك سباء وذري ريدان وحضرموت ويمنات" ثم أضيف إلى هذا اللقب قسم آخر: "وعربهم في الجبال وفي التهامة"، ويفهم من هذا أن الدولة الحميرية الثانية

(١) سورة سباء: ١٨-١٩.

أصبحت ذات حدود متعددة وتخضع بلاد كثيرة لسلطانها، وقد عرف العرب هذه الدولة الثانية باسم دولة التباعة.

حدث المؤرخين عن ملوك هذه الدولة أقرب إلى الخرافة، فقيل أن مؤسس هذه الدولة "شمر يهرعش" المعروف عند الإخباريين بشمر يهرعش بن ناصر النعم (٢٧٠-٣١٠م) وهو "عندهم" تبع الأكبر، الذي جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى: «أَمْ خِيرٌ أُمُّ قَوْمٍ تَبَعَّدَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكَنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا بُجُورٍ مِّنْ أَنفُسِهِمْ»<sup>(١)</sup>، وذكروا أنه زحف بجيشه إلى أرمينيا، وهزم الترك، وهدم المدائن بدینور وسنجار، قيل إنه عندما افتتح سمرقند هدمها ثم أمر ببنائها، وذكروا أيضاً أنه بسط نفوذه على الهند وغраб على أرض الصين وأخضع فارس وخراسان والشام ومصر<sup>(٢)</sup>.

في عصر هذه الدولة بدأت الديانة المسيحية واليهودية تتسلل إلى اليمن وتحل محل الديانة الوثنية التي كانت تدور حول عبادة النجوم والكواكب والشمس، وكان انتشار المسيحية تدريجياً وقد قام بالدعائية لها المبشرون المسيحيون وخاصة اليعقوبة اتباع مذهب الطبيعة الواحدة الذين جاؤوا من الجبالة وأنشأوا لهم كنائس في عدن وظفار ونجران، ومن الجائز أن إرساليات مسيحية نسطورية من الحيرة وسورية أيضاً قامت بالدعائية للديانة المسيحية، وكسبت المسيحية بعض الأتباع في اليمن، وقد انتشرت اليهودية أيضاً في الجزيرة في عهد الدولة الحميرية الثانية، ويبدو أنها دخلت شمال الجزيرة قبل هذا العهد.

---

(١) سورة الدخان: ٣٧.

(٢) أنظر عبيد بن شريه ص ٢٢٧-٢٣٦، وجود على ج ٢ ص ٥٥٠.

### ثالثاً: الاحتلال الحبشي والفارسي لليمن

في سنة ٣٤٠ هـ هاجم الأحباش اليمن واستولوا عليها فوجدت المسيحية فيهم سندًا قوياً، غير أن الحكم الحبشي لم يتح له أن يعيش طويلاً لأن رجال الدين المتعصبين لوثنيتهم تعاونوا مع أهل البلاد اليمنيين على مقاومة الأحباش النصارى واستطاعوا إخراجهم سنة ٣٧٨ م، وعادت الوثنية تترع المكانة الأولى، وكانت أهداف هذه الحملة الحبشية الأولى على اليمن انتزاع السيادة التجارية من اليمنيين ونشر الدين المسيحي، وقد مهدت هذه الحملة السبيل أمام الأحباش ل القيام بغزوات لاحقة.

تأثرت الديانة المسيحية سلباً بخروج الأحباش من اليمن، من جانب آخر فإن ملوك الدولة الحميرية الذين لجأوا إلى يثرب في الحجاز إبان الاحتلال الحبشي لبلادهم، تأثروا بالديانة اليهودية التي كانت منتشرة هناك في ذلك الوقت، غير أنه ليس هناك من دليل على أن الملوك الحميريين قد اعتنقوا اليهودية، وقد ورد في أحد النقوش أن ملك كرب الذي طرد اليهود كان يعبد "ذي سماوي بعل السموات والأرض" مما قد يستنتج منه أن اليمنيين في هذه الحقبة كانوا يؤمنون بآله عظيم هو "ذي سماوي" رب السموات والأرض، إلا أنهم لم يتركوا آلهتهم الأخرى كما أنهم لم يدينوا باليهودية التي تسمى إليها "يهوه" لا "بعل" كما ورد في النقش.

خلف "ملك كرب" ابنه "أبو كرب أسعد" الذي يسميه المؤرخون العرب "أسعد كامل تبع" وينسبون إليه فتوحات واسعة وصلت حتى تركستان، وأخبار أخرى هي أقرب إلى الخرافة والأساطير منها إلى الحقيقة، ولا وجود لها في تواري الشعوب الأخرى المعاصرة له، ولكنها، من دون شك، تشير إلى قوة

الدولة الحميرية في هذه الحقبة، ويبدو أن أبو كرب قد فرض نوعاً من السيادة على يثرب، وربما كان يتعاون مع اليهود من سكانها ضد الأحباش والنصارى. وخلف "أبو كرب أسعد" أخيه "شرحبيل يعفر" سنة ٤٢٠ م، وفي عهده تم انتقال الحكم من بعده إلى أخيه شرحبيل. ترミم سد مأرب في سنة ٤٩٤ م، ويبدو أن هذه الترميمات لم تجد نفعاً، فقد تهدم السد بعد ترميمه بعام واحد في سنة (٤٥٠-٤٥١ م)، وأدى ذلك إلى فرار جماعات كبيرة من سكان هذه المنطقة إلى الجبال، فقام الملك شرحبيل من جديد ببناء السد، وتم ذلك في سنة ٤٥١ م، وسجل الملك شرحبيل هذه الأعمال في نقش طويل تضمن فيما تضمنه عبارة لا تدل على انتشار عقيدة التوحيد في اليمن في زمان شرحبيل نصها: "بنصر ورداً ألهن بعل سمين وأرضن" أي: بنصر وبعون الإله سيد السماء والأرض، وهي تعبير لا يتفق مع الديانتين المسيحية واليهودية<sup>(١)</sup>.

ثم تعاقب على حكم اليمن -بعد شرحبيل يعفر- ملوك ليس لهم أعمال هامة حتى جاء ذو نواس الذي كان شديد التعصب على المسيحية وأراد اجتثاثها من اليمن، فطلب من النصارى ترك دينهم ولما رفضوا أحرقهم في إحدى حفرياته، وقد ذكرهم الله تعالى في القرآن الكريم في سورة البروج، إذ يقول الله تعالى: «قتل أصحاب الأندود، الناس ذات القدود، إذ هم عليهما قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهدوا»<sup>(٢)</sup>.

(١) جواد علي ج ٢ ص ٥٤٠.

(٢) سورة البروج: ٨-٤.

أعتقد الكثير من المؤرخين أن سبب اضطهاد "ذى نؤاس" للنصرانية هو تعصبه الديني إذ أنه كان يدين باليهودية وهو متغصب لها، وقد يكون هذا التعصب أحد أهم الأسباب التي دعت ذا نؤاس لفعل ما فعل، والحقيقة أنه كانت أسباباً ودوافع سياسية وراء هذا الاضطهاد، منها أن المسيحية في الشرق كانت تحت حماية الدولة البيزنطية -كما تدعى هذه الدولة نفسها-، وكان تحول ملوك الحبشة إلى النصرانية سبباً في تحالف البيزنطيين مع الأحباش، وأن انتشار المسيحية في اليمن يعني ازدياد نفوذ هاتين الدولتين في اليمن، وهو ما لا يرضي اليمنيين، بينما لم يكن يرافق انتشار الديانة اليهودية أي خطر سياسي لأنه لم تكن هناك دولة تحمي اليهود، بل يقال أن اليهود هم الذين حرضوا ذا نؤاس على اضطهاد النصارى لأن أبناء دينهم في بيزنطة كانوا يعاملون معاملة سيئة إلى أبعد الحدود، وعلى الرغم من قسوة ذي نؤاس على النصارى فلا يعرف أنه قسى على الوثنيين اليمنيين، بل ظلت الوثنية قائمة في اليمن حتى ظهور الإسلام، مما قد يستدل منه أيضاً أن قسوته على النصارى لم تكن بداعف العصبية اليهودية، بل بداعف وطنية، لأن الوثنية أخرى بنعمة اليهودي المتندين من النصرانية.

كتب ملك الحبشية إلى قيصر الروم البيزنطيين يعلمهم بما فعله ذو نؤاس من قتل للنصارى ويستأنفه في مهاجمة اليمن، فكتب إليه يأمره بالمسير إليها، فجهز جيشاً بقيادة "أرياط" تمكن من دخول اليمن والانتصار على ذي نؤاس والسيطرة على اليمن، وخضعت اليمن لحكم الأحباش المباشر<sup>(١)</sup>.

---

(١) الدنوري الأخبار الطوال ص ٦٢.

بعد مدة من الزمن وفي إطار الصراع الحبشي على السلطة تغلب "أبرهـة الأشـرم" على أرياطـ الذي حكمـ الـيـمن لـمـدةـ عـشـرـينـ عـامـاًـ وتـولـىـ أـبرـهـةـ حـكـمـ الـيـمنـ،ـ وـازـدـادـ نـفوـذـهـ وـاضـطـهـدـ أـهـلـ الـيـمنـ،ـ وـبـنـىـ كـنـيـسـةـ فـيـ صـنـعـاءـ سـماـهاـ "الـقـلـيـسـ".ـ وـتـذـكـرـ إـحـدـىـ الرـوـاـيـاتـ أـنـ أـحـدـ الـعـرـبـ حـاـوـلـ الـاعـتـدـاءـ عـلـىـ الـكـنـيـسـ وـتـدـنـيـسـهاـ مـاـ أـغـضـبـ أـبـرـهـةـ أـلـاـشـ فـاتـخـذـ ذـلـكـ ذـرـيـعـةـ لـلـهـجـومـ عـلـىـ مـكـةـ وـهـدـمـ الـكـعـبـةـ،ـ فـأـعـدـ جـيـشـاـ ضـخـماـ وـذـلـكـ سـنـةـ ٥٧٠ـ،ـ مـسـتـخـدـمـاـ الـفـيـلـ،ـ وـلـكـنـ لـمـ يـكـتـبـ لـهـذـهـ الـحـمـلـةـ النـجـاحـ وـمـاتـ أـبـرـهـةـ،ـ وـقـدـ أـشـارـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ إـلـىـ هـذـهـ الـحـادـثـةـ فـيـ "سـوـرـةـ الـفـيـلـ".ـ

لـمـ طـالـ الـبـلـاءـ عـلـىـ أـهـلـ مـنـ الـاحتـلـالـ الـحـبـشـيـ ظـهـرـ زـعـيمـ وـطـنـيـ مـنـ حـمـيرـ يـقـالـ لـهـ:ـ "سـيـفـ بـنـ ذـيـ يـزـنـ"ـ الـذـيـ عـزـمـ عـلـىـ تـخـلـيـصـ بـلـادـهـ مـنـ الـأـحـبـاشـ،ـ وـحـاـوـلـ فـيـ الـبـدـاـيـةـ الـاستـعـانـةـ بـمـلـوـكـ بـيـزـنـطـيـيـنـ،ـ الـأـمـرـ الـذـيـ دـفـعـ "سـيـفـ بـنـ ذـيـ يـزـنـ"ـ إـلـىـ الـبـحـثـ عـنـ حـلـفـاءـ آـخـرـيـنـ أـقـوـيـاـ،ـ فـلـمـ يـكـنـ فـيـ السـاحـةـ الـدـوـلـيـةـ آـنـذـاكـ غـيـرـ مـلـوـكـ الـفـرـسـ السـاسـانـيـيـنـ،ـ فـتـوـجـهـ إـلـىـ الـاسـتـعـانـةـ بـكـسـرـىـ مـلـكـ الـفـرـسـ الـذـيـ أـمـدـهـ بـقـوـةـ عـسـكـرـيـةـ أـبـرـحـتـ مـنـ الـخـلـيـجـ الـعـرـبـيـ وـنـزـلـتـ جـنـوبـ الـيـمـنـ،ـ وـاسـتـطـاعـتـ أـنـ تـطـرـدـ الـأـحـبـاشـ مـنـهـاـ،ـ وـبـذـلـكـ تـحـرـرـتـ الـيـمـنـ مـنـ حـكـمـ الـأـحـبـاشـ،ـ وـقـامـتـ فـيـ الـبـلـادـ حـكـومـةـ مـشـترـكـةـ مـنـ أـهـلـ الـيـمـنـ وـالـفـرـسـ،ـ تـولـىـ رـئـاسـتـهـاـ سـيـفـ بـنـ ذـيـ يـزـنـ،ـ وـقـدـ ظـلـتـ الـقـوـىـ السـاسـانـيـةـ فـيـ الـيـمـنـ وـكـانـ مـرـكـزـهـاـ صـنـعـاءـ.

قـتـلـ سـيـفـ بـنـ ذـيـ يـزـنـ فـتـولـىـ الـحـاـكـمـ السـاسـانـيـ أـمـرـ إـدـارـةـ الـيـمـنـ يـسـاعـدـهـ فـيـ ذـلـكـ أـفـرـادـ مـنـ الـقـوـىـ السـاسـانـيـةـ،ـ وـحـدـثـ فـيـ هـذـهـ الـحـقـبـةـ أـزـمـاتـ وـاضـطـرـابـاتـ فـيـ الـدـوـلـةـ السـاسـانـيـةـ جـعـلـتـ مـرـكـزـهـاـ ضـعـيفـاـ فـقـويـاـ نـفـوذـ الـقـبـائـلـ وـالـأـمـرـاءـ

المحلين وثاروا على الحاكم الساساني وحصروا سلطته في صنعاء وما جاورها  
فقط<sup>(١)</sup>

استمر الوجود الساساني في بلاد اليمن، وكان آخر حكامهم فيه "بادان"  
الذي عاصر الرسول محمد ﷺ ثم دخل الإسلام ومعه أهل اليمن.

---

(١) جواد علي ج ٢ ص ٥٦٠

الفصل الثالث

مملكة شمال الجزيرة العربية

((نحو الشام والعراق))

**المبحث الأول: الأنبياط**

**المبحث الثاني: التدمريون**

**المبحث الثالث: الفساسنة**

**المبحث الرابع: المناذرة**

## مقدمة

لم تكن الحضارة العربية قبل الإسلام قائمة في جنوب الجزيرة العربية فقط، بل كانت هناك حضارات أخرى نهضت بها ممالك ودولات أقامها العرب في شمال شبه الجزيرة العربية، على تخوم العراق ولänder الشام، وكان للنشاط التجاري الأثر الأول في قيام تلك الحضارات الشمالية وازدهارها.

لقد استمدت هذه الدول قوتها من البحارة باعتبار أن موقعها الجغرافي سهل لها الاتصال بأقوام غرب آسيا وشرق البحر الأبيض المتوسط، وقد كان الهلال الخصيب منذ أقدم العصور التاريخية مركزاً من مراكز الحضارة، فموئلاته وخصوبته أرضه ساعداً على ازدهار زراعته وتکاثر سكانه وإقامة حكومات مستقرة ذات حضارة فيه، وعلى الرغم من غنى أرض الهلال الخصيب ووفرة منتجاته فإن سكانه كانوا بحاجة دائمة لاستيراد البضائع المكملة لرفاههم ولا سيما ما تنتجه الهند وشرق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية من بخور وعطور وبهارات وعاج وحرير وغير ذلك، كما كان سكان الهلال الخصيب يصدرون ما يفيض من منتجاتهم ولا سيما الزجاج والمنسوجات وغيرها.

فضلاً عن النشاط التجاري المتمثل في الاستيراد والتصدير، كانت منطقة الهلال الخصيب مركزاً هاماً لتجارة الترانزيت، تمر منها وإليها تجارات الهند ولänder البحر الأبيض المتوسط، فقد كانت أوروبا في عهد اليونان والرومان لا تستغني عن منتجات الشرق لا بل تعدّها أساسية لحياتها ورفاهيتها.

وكانت صادرات الهند تنقل عن طريقين بحريين هما: أو لاً طريق الخليج العربي ومنه إلى العراق وسوريا براً وبعد ذلك تركب البضائع البحر ثانية لقطع

البحر المتوسط إلى أوروبا، أو عن طريق ثانية وذلك عبر البحر العربي إلى البحر الأحمر أو إلى ميناء العقبة حيث تنقل منها إلى الموانئ السورية في طريقها إلى البحر المتوسط. والطريق الأول الذي يمر بالخليج العربي أفضل من هذه الطريق الثانية فهو أقصر وتكليف النقل عليه أقل وليس فيه جزر مرجانية كالجزر الموجودة في البحر الأحمر، لذلك كانت القوافل تستعمله أكثر من استعمالها لطريق البحر العربي والبحر الأحمر.

كانت السفن التي تنقل التجارة عبر الخليج العربي تفرغ حمولتها عند الأبلة (جنوب العراق) أو عند البحرين ثم تنقل البضائع عن طريق البر إلى العراق أو سوريا عبر الصحراء، أما السفن التي تأتي عبر البحر العربي فكانت تتهي رحلتها في ميناء عدن حيث تنقل ما تحمله من بضائع عبر اليمن إلى الحجاز ومنها إلى سوريا وفلسطين ومصر وهكذا نرى أن القوافل في كلتا الحالتين كانت مضطرة لأن تقطع الصحراء العربية مما كان يعرضها للكثير من المشاق والصعاب التي أهمها قلة الماء. لذلك فإن موقع الآبار باعتبارها المصدر الوحيد للماء في الصحاري - أصبحت بمرور الزمن محطات تجارية للقوافل، ثم تطورت لتصبح مدنًا مزدهرة تستقر فيها القبائل التي تعيش بالقرب منها، ثم صارت دولاً تتولى حماية القوافل التجارية وتقدم لها حيوانات النقل وتتوفر لها كل الخدمات الضرورية من إقامة وغذاء وغيرها. وهذه الدول حسب ترتيب ظهورها هي: دولة الأنباط، دولة تدمر، دولة الغساسنة، دولة المناذرة في الحيرة.

## المبحث الأول

### الأنباط

قامت مملكة الأنباط في شمال الحجاز، في منطقة "وادي موسى" التي تقع شرق الأردن، وتتنسب هذه المملكة إلى شعب عربي يعرف عند اليونان باسم "Nabataei" أو النبط، سكن في بادية الشام وجنوبى سوريا في القرن السادس قبل الميلاد تقريباً، ولم نعثر في المصادر العربية على أخبار عن الأنباط، كما لم نعثر على أخبار عنهم في الوثائق الخاصة بحملات الآشوريين على الشام ومصر، وإنما وقفنا على أخبارهم من كتابات الإغريق، ومن نتائج الكشوف التي أسفرت عنها الأبحاث الأثرية في البتراء وحوران.

إن أول ذكر للأنباط في التاريخ يرد في قائمة آشورية تعدد أعداء "آشور بانيبال" الذي حكم آشور سنة ٦٤٧ ق.م، ولكن هذه المعلومات تتحدث عن الأنباط قبل قيام دولتهم، أي عن الحقبة التي كانت فيها البتراء بيد الأدوميين، سكان المنطقة الأصليين، وليس من السهل أن نحدد التاريخ الذي بدأ فيه الأنباط سكناهم في البتراء، ويستدل مما يذكره الكاتب القديم "ديو دروس الصقلبي" أنهم كانوا يعيشون في هذه المنطقة منذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد، وإذا أردنا أن نعود إلى بدايات ظهور هذه المنطقة على مسرح السياسة الدولية لوجدنا أن ذلك يعود إلى قيام الإمبراطورية الآشورية وبسط نفوذها على سوريا وفلسطين وتوحيدها الهلال الخصيب تحت رايتها، فانتشر السلام في هذه الربوع وحلت الطمأنينة والأمن محل الفوضى والاضطراب مما ساعد على ازدهار التجارة وتجالس

القوافل بحرية ودون خوف من اللصوص وقطاع الطرق، وهكذا انتعش الطريق التجاري الذي يمر بالعراق وبالتالي ضعفت التجارة التي تمر من غرب الجزيرة، وقد أدرك اليمانيون وعرب الشمال أيضاً أن مصالحهم التجارية قد أصبحت في أيدي الآشوريين لذلك كانوا يتوددون إليهم ويعملون تحت لوائهم حيناً، ويُثُورون عليهم حيناً آخر<sup>(١)</sup>.

تتميز بلاد الأنباط بأنها بلاد جبلية قفراء، قليلة المياه، تكثر فيها المرتفعات الصخرية الوعرة والشعب، وقد انعكست هذه الطبيعة الوعرة على النبط، فطبعتهم بطابعها، ولذلك عرف الأنباط بشدة المراس والعنف، كما عرّفوا بميلهم إلى الغزو، وساعدتهم هذه البيئة الصخرية على مقاومة أعدائهم، فصعب على هؤلاء قهرهم وإخضاعهم لهم، ولهذا السبب لم يتمكن الآشوريون أو الفرس أو الإغريق من قهر هذا الشعب، ولقد سمي الإغريق بلادهم للسبب نفسه باسم "بلاد العرب الصخرية"، كما سميت عاصمتهم بالبتراe Petraea أي الصخرة، وهي تقارب في معناها كلمة "سالع" العبرانية المذكورة في التوراة<sup>(٢)</sup> وتعني الشق في الصخر، والتسمية العربية مترجمة من اليونانية، ونلاحظ أن التسمية العبرانية أكثر دقة، لأن مدخل البتراe يتسم بوجود أخدود عميق بين جبلين يعرف باسم "السبق" ولعله لفظ نبطي متواترث، حرفه الناس عن كلمة "الشق" في اللغة السبئية القديمة<sup>(٣)</sup>.

(١) جواد علي، ج ٣، ص ٦.

(٢) سفر إشعيا ١١:٤٢، ١١:٦.

(٣) لانكستر هارنج، آثار الأردن ص ١١٧.

عندما جاء الإسكندر المقدوني بحملته على هذه البلاد، وأرسل جيشاً بقيادة أحد قواه لاحتلال بلاد الأنباط، توغل هذا الجيش في بلادهم ولكنه عجز عن إخضاعهم، ولما مات الإسكندر انقسمت إمبراطوريته إلى عدة أقسام كما هو معلوم، ووُقعت مصر تحت حكم بطليموس وسوريا تحت حكم سلوقيوس، وكان التناقض شديداً بين بطليموس وسلوقيوس وأراد هذا الأخير أن يقطع التجارة عن منافسه في مصر لذلك أراد احتلال بلاد الأنباط التي تسيطر على طرق التجارة البرية، فأرسل كما يذكر لنا "ديودروس الصقلاني"، حملة مؤلفة من ٤٠٠ جندي مشاة و ٦٠٠ جندي خيال وذلك سنة ٣١٢ق.م، ولكن الفشل كان حليف هذه الحملة وهلك القسم الأكبر من أفرادها. واتبع السلوقيون هذه الحملة بحملة أخرى لعقاب الأنباط فهرب هؤلاء إلى معاقلهم في الجبال والصحاري ومن هناك فاوضوا السلوقيين للصلح ودفعوا لهم مبلغاً من المال. فقبل السلوقيون مصالحتهم بعد أن تأكّدوا أنه لا سبييل إلى الانتصار عليهم<sup>(١)</sup>.

ونستدل مما ذكره "ديودروس الصقلاني" على أن الأنباط بلغوا من القوة ما جعلهم يروون جيش السلوقيين على أعقابه، كما نستدل مما ذكره على أن البتراء لم تكن قد بلغت من العمران ما بلغته في العصور التالية، فلم تكن المدينة مسورة، ومن المرجح أن السوريين الذين تم اكتشافهم بالبتراء قد أسسوا بها الأنباط بعد أن عقدوا الصلح مع السلوقيين.

وأصبحت البتراء في القرن الأول قبل الميلاد أهم مراكز التجارة القادمة من جزيرة العرب، وساعد موقع البتراء على ازدياد أهميتها كونها محطة تجارية

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٩

في ملتقى الطرق التجارية من العراق شرقاً، واليمن جنوباً، وسوريا وفلسطين شمالاً، ومصر غرباً. وقد أثرى الأنباط ثراءً كبيراً بسبب اشتغالهم بالتجارة، فلما عمل البطالسة على احتكار التجارة البحرية و السيطرة على البحر الأحمر عن طريق إنشاء محطات وموانئ على سواحله وإقامة علاقات مع عرب الجنوب الذين يشتغلون بالتجارة في البحر الأحمر، أدرك الأنباط مدى الخطير الذي يتهددهم، كما أدركوا الأضرار الفادحة التي يمكن أن تصيب مصالحهم التجارية بسبب ذلك، واضطروا إلى التحرش بسفن البطالسة، وقطع الطرق البحرية عليها والاستيلاء على حمولتها، الأمر الذي دفع بطليموس الثاني (٢٨٥-٢٤٦ ق.م) إلى إنشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية البطلمية، وتمكن بذلك من السيطرة على شمال البحر الأحمر وخليج العقبة. ولكن الأنباط انتهزوا فرصة انشغال بطليموس بالحرب مع السلوقيين في سوريا فأخذوا يهاجمون سفن البطالسة التجارية بهدف عرقلة نشاطهم التجاري وإضعافه<sup>(١)</sup>.

وفي القرن الثاني قبل الميلاد ضعف البطالسة وتمكن السلوقيون من أن يسترجعوا منهم سوريا، وحاول السلوقيون أن يستجلبوا الأنباط إلى جانبهم وتحسنوا علاقتهم معهم، فعاود الأنباط نشاطهم التجاري مع سوريا.

أعقب هذه الحقبة فترة ضعف فيها السلوقيون وعم الاضطراب منطقة الهلال الخصيب، وقامت في بلاد فارس الإمبراطورية البارثية، واستقرت بعض المناطق في شمال الهلال الخصيب وسوريا مما أدى إلى اضطراب الأمن وانتشار الفوضى وبالتالي ضعف التجارة المارة بالعراق، وقد ساعدت هذه

---

(١) صالح العلي، محاضرات في تاريخ العربي ص ٣٨.

الظروف المستجدة على أن تسترد الطرق التجارية المارة في غربى الجزيرة  
أهميتها فا زدهرت البراء بنتيجة ذلك.

## أشهر ملوك الأنبطاط

أول ملوك الأنبطاط الذين ورد ذكرهم في كتب التاريخ هو الملك Aretas "الحارث الأول" (46-169 ق.م)، وكان معاصرًا للملك أنططوس الرابع السلوقى ملك سوريا، وبطليموس فيلوميتور ملك مصر، وقد حالف الحارث النبطي جيرانه المكابيين ببني حشمناي ضد السلوقيين، ففي سنة 68 ق.م قام يهودا المكابي بالثورة على السلوقيين ونجح في احتلال بيت المقدس.

ومن أشهر ملوك الأنبطاط الحارث الثاني (110-96 ق.م) وفي عهده بلغت الدولة درجة من القوة جعلت المكابيين يلجؤون إليه طالبين النجدة ضد خصومهم ومعترفين بتفوقة العسكري. وقد ظلت الصداقة النبطية - المكابية قائمة لمدة من الزمن حتى تكشف للأنباط أن للمكابيين مطامع في الأرض النبطية نفسها وأن تقربهم منهم لم يكن فقط لنصرتهم على خصومهم بل بقصد التسلل إلى الأرض النبطية نفسها والاستيلاء عليها حالما تحيين الفرصة، فغير الأنبطاط سياستهم تجاه المكابيين، وانقلبوا من حلفاء إلى خصوم، واشتباك معهم في معارك طاحنة استمرت إلى زمن خلفه "عبادة الأول" الذي تمكن من أن يشتت شمل مملكتهم.

ويعد الحارث الثالث (87-62 ق.م) أشهر ملوك الأنبطاط على الإطلاق، كما يعد عصره من أزهى العصور النبطية التي تحقق فيها للدولة الاتساع والمجد

والانتصار على القوى المعاصرة الكبرى كالسلوقيين واليهود، ولذلك يعتبر الحارث الثالث المؤسس الحقيقي لسلطنة الأنباط.

استغل الحارث ضعف السلوقيين عند بداية ظهور روما على اعتاب الشرق، وعندما بدأ "انطيوخوس ديونيسوس" هجومه على بلاد الأنباط، اصطدم مع الحارث الثالث في سنة ٨٦ ق.م في معركة عنيفة حدثت عند قرية Cana الواقعة على ساحل يافا، وفيها انهزم السلوقيون هزيمة نكراء وسقط ملكهم صريعاً، واستجاب الحارث بعد هذا الانتصار الكبير إلى دعوة سكان دمشق ليقيم نفسه حاكماً عليها وعلى الأقاليم الملحقة بها بما فيها من سهول مثل سهل البقاع، وذلك في سنة ٨٥ ق.م، وتخلص سكان دمشق بذلك من أسوأ مصير فيما لو سقطت في يد الأمير الأبتوري الذي كان يطمع في عرش سوريا<sup>(١)</sup>.

لقد أدى امتداد نفوذ الأنباط إلى دمشق إلى تضييق الخناق على المملكة الماكابية اليهودية ومحاصرتها من الشرق والجنوب وإلى تغلغل النفوذ النبطي إلى قلب المملكة الماكابية في بيت المقدس، وقد قامت بين الحارث الثالث واسكندر جينوس الملك الماكابي معركة عند موقع تسميه المصادر باسم Addida على مقربة من اللد أنهزم فيها الماكابيون اليهود هزيمة نكراء وتحطم جيشهم واضطروا لقبول كل ما فرضه الأنباط من شروط<sup>(٢)</sup>.

شهد عصر الحارث الثالث استيلاء الرومان على دمشق سنة ٦٤ ق.م، وقد تولى مملكة الأنباط بعده ابنه "عبادة الثاني ٦٢-٤٧ ق.م)، وفي أيامه امتد

(١) جواد علي، ج ٣ ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق، ج ٣ ص ٢٧.

النفوذ الروماني على الشرق واستولت روما على آسيا الصغرى وسوريا ومصر، فتقلص النفوذ النبطي، وغدت سياسة الملوك الأنباط إزاء هذه القوة الدولية الطارئة على المنطقة ترتكز على حماية مملكتهم وصون استقلالها من الغزو الخارجي، وقد جسد هذه السياسة على أرض الواقع "عبادة الثاني" الذي عقد تحالفًا مع الرومان، ثم ساهمت الدولة النبطية في عصر خليفته "مالك الأول Malichus (٤٧ - ٣٠ ق.م)" بفرقة من الفرسان في الحملة التي قادها يوليوس قيصر على مصر سنة ٤٧ ق.م، وفي عهد مالك الأول تمكن الرومان من إسقاط الأسرة المكابية اليهودية في بيت المقدس، وأقاموا مكانها الأسرة الهيرودية الموالية لهم.

وقد شهد عصر مالك الأول أحداثاً مهمة كان أبرزها الحروب بينه وبين الهيروديين الذين أنابهم الرومان في حرب الأنباط لأن هؤلاء قد نقضوا ولاءهم للروماني وانضموا إلى صف أعدائهم البارثيين الفرس حين حاول الفرس احتلال فلسطين وإخراج الرومان منها، وقد انتهت هذه الحروب بهزيمة البارثيين الفرس أمام الرومان، والأنباط أمام الهيروديين واضطرب الأنباط لدفع الجزية للروماني سنة ٤ ق.م.

وفي عهد الملك النبطي عبادة الثالث (٣٠ - ٣٩ ق.م) اشترك الأنباط في الحملة التي أرسلها القيصر بقيادة اليوس غالوس لغزو بلاد اليمن، وتولى "صالح" وزير عبادة (كما أشرنا سابقاً) مهمة إرشاد الجيش الروماني إلى الطرق التي يسلكها في بلاد العرب، ولكن الحملة انتهت بکوارث تعرض لها الجيش الروماني، وأخفق الرومان في الاستيلاء على اليمن، واعتقد سترايو أن هذا الفشل سببه خيانة الوزير سايلوس (صالح) دليل الحملة، الذي سار بالجيش

الرومني في أكثر مناطق العرب وعوره وأشدها جفافاً حتى أن عدداً كبيراً من الجنود الرومان ماتوا عطشاً وجوعاً وتعباً<sup>(١)</sup>.

ومع مرور الوقت أخذ ملوك البتراء يظهرون بمظهر التابعين للروماني، أكثر فأكثر، فالحارث الرابع (٩٤م - ٤٠م) عاون الرومان في حربهم ضد مملكة يهودا، والظاهر أنه مع تشديد قبضة الرومان على ملوك النبط بدأ هؤلاء يهملون العاصمة البتراء. فلقد بنى عبادة الثاني مدينة أوارا التي بين أيله والبتراء مما يدعو إلى الظن أنها ربما كانت في موضع الحمية، كما يرى جواد علي<sup>(٢)</sup>، وكان المتأخرن من ملوك الأنباط يقيمون في مدينة بصرى مما أدى إلى ضعف العاصمة البتراء، وهكذا ستحل بصرى محل البتراء أهم مركز تجاري في جنوب بلاد الشام، على أيام دولة الغساسنة آخر دول العرب في بلاد الشام قبل ظهور الإسلام.

وكان نهاية دولة الأنباط سنة (٥٠٦م أو ٦٠١م) عندما قررت روما إنهاء استقلالها على عهد تراجان، وأدخلتها ضمن ولايتها العربية في الشام، التي كانت تحدها شماليًّاً أرض دمشق مما يلي حوران والجولان ويدخل في نطاقها مدن: درعة وبصرى وديوم وجرش والبتراء، وعمّان (التي كانت تعرف بفيلادل菲ا)، كما كان يدخل ضمن نطاقها مواضع من النقب غربي العرب، وأيله والحجر (مدائن صالح) وكذلك سيناء.

---

(١) فيليب حتى، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج ١ ص ٤٢٠، هاردنج ص ١٢٣.

(٢) جواد علي، ج ٣ ص ٤٠.

إن نهاية كيان دولة الأنبطاط العربية لا يعني أن المنطقة فقدت أهميتها الإستراتيجية والتجارية، وذلك أن مركز التقل انتقل قليلاً من إقليم البتراه باتجاه الشمال الشرقي، إلى مركز عربي جديد في "تدمر" التي سيؤكد ازدهارها أهمية الأقاليم الشمالية من بلاد العرب ليكون عصباً للحياة الاقتصادية في قلب العالم القديم.

## المبحث الثاني

### التدمر—ون

موقع مملكة تدمر ونشأتها:

أُلْ نجم "البتراء" في مطلع القرن الثاني الميلادي بادخالها في الولاية العربية الرومانية، فكان بشير سعد لمدينة "تدمر" التي أخذت في الازدهار منذ ذلك الوقت إلى أن بلغت ذروة مجدها في القرن الثالث الميلادي بفضل تماكها لناحية التجارة بين المشرق والبحر المتوسط.

ومن العوامل الأخرى المهمة التي ساعدت على نمو "تدمر" وازدهارها موقعها الممتاز بفضل وقوعها في قمة بادية الشام في مركز يكاد يمثل همسة الوصل بين أراضي الفرات الشمالية الغربية الخصبة وأراضي الشام الشمالية الشرقية. فكان بادية الشام أسفلها مثلث متساوي الأضلاع: ضلعه الشرقي من الحيرة إلى تدمر، وضلعه الغربي من تدمير إلى البتراء، بينما قاعده تمر بشمال نجد والجaz عبر البادية، من الحيرة إلى البتراء في جنوب الشام.

نشأت تدمر في بادية الشام حول منبع ماء غزير، وتقع في منتصف المسافة تقريراً بين الفرات من جهة، وبين دمشق وحمص من جهة أخرى، وهي تبعد حوالي ١٥٠ ميلاً عن كل منهما، وكان الذين استقروا فيها بضع قبائل عربية، وقد أدت الاتجاهات الجديدة في الامبراطوريات العالمية والتحول في طرق التجارة الدولية إلى رفع هذه القرية الصغيرة إلى مصاف المدن العظمى

ذات الغنى والسلطة بين مدن العالم القديم. وقد دعا السكان المحليون بلدتهم هذه تدمر. وظهرت بهذا الاسم لأول مرة حوالي عام ٨٠٠ق.م. وكذلك ورد ذكرها في نقوش تجلات بلازر التي دون فيها أخبار حملته ضد العموريين حوالي سنة ١٠٠ق.م في رقيم باسم "تدمر أمورو".

وما زال أصل تسميتها بتدمر مجهولاً على الرغم من الأبحاث التي قام بها العلماء في هذا المجال، وقد عرفت تدمر عند كتاب اليونان باسم "بلميرا Palmyra"، ولوحظ أن المقطع الثاني من بلميرا وهو "Myra" قريب من المقطع الثاني لكلمة تدمر "Mor" الأمر الذي دعا إلى التساؤل عما إذا كان هناك ثمة صلة بين التسميتين، وأن اليونانية أو اللاتينية حرفت اسم المدينة الأصلي من تدمر إلى Palmyra، ويعتقد بعض العلماء أن كلمة "بلميرا" مشتقة من كلمة "Polma" اللاتينية بمعنى النخل، وأن تدمر سميت ببلميرة منذ أن تغلب عليها الإسكندر وذلك لكثره ما كان يزرع فيها من أشجار النخيل<sup>(١)</sup>.

وذهب بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن كلمة بلميرة ترجمة لكلمة "ثamar" العبرانية التي تعني النخلة، وأن ثamar العبرانية اسم بلدة أو موضع تقع إلى الجنوب الشرقي من يهودا وفقاً لما ورد في التوراة<sup>(٢)</sup>، ويذكرون أن ثamar هي البلدة التي بناها سليمان، وورد ذكرها في التوراة في جملة المدن التي أسسها سليمان ولكنها ذكرت تحت اسم تدمر، وأن ورود اسم ثamar على هذه الصورة كانت نتيجة خطأ ارتكبه كتبه أسفار "أخبار الأيام"، فخلطوا بين ثamar الواقعة جنوبى البحر الميت وبين تدمر المدينة المشهورة، ثم كتبت في سفر الملوك

(١) جواد علي، ج ٣ ص ٧٢.

(٢) سفر حزقيال ١٩:٤٧ ، ٢٨:٤٨.

الأول تحت اسم تدمر بدلًا من ثامار، وأصبحت تدمر على هذا النحو من بين المدن التي أسسها سليمان، ومن هنا ارتبط اسم تدمر بثامار أي النخيل وجاءت التسمية اليونانية ترجمة لمعنى كلمة ثامار، وذلك بعد تدوين "أخبار الأيام".

تزعم الروايات العربية التي أخذت عن التوراة أن تدمر مما بنته الجن سليمان، وقد استبعد "ياقوت الحموي" ذلك وعلق على زعم الإخباريين بقوله: "...وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داود، عليه السلام، بأكثر ما بيننا وبين سليمان، ولكن الناس إذا رأوا بناء عجيبةً جهلوه بانيه، أضافوه إلى سليمان وإلى الجن"<sup>(١)</sup>، هذا فضلاً عن روايات أخرى تتسبّب بناء تدمر إلى شخصيات خرافية، وترفع نسب ملوكها إلى سام بن نوح<sup>(٢)</sup>.

إن الواقع يؤكد بأن تدمر لم تكن من بناء سليمان، لأن ملكه لم يمتد إلى هذه المنطقة، وأغلب الظن أن تدمر نشأت حول نبع ماء في الbadia، فقصدتها البدو، واستقرروا فيها، وعندما هاجم "تبودخ نصر" القدس ساعدته أهل تدمر، ومنذ ذلك الحين بدأت تظهر تدمر مركزاً تجارياً هاماً وطريقاً للقوافل بين العراق والشام، خاصة بعد قيام الدولة الأخمينية في بلاد فارس، فلما سقطت الدولة الأخمينية على يد الإسكندر، وربط الإسكندر بين الشرق والغرب، وتابع سلوقس هذه السياسة التي تهدف إلى خلق دولة متحدة بين الفرس والمقدونيين، اشتهرت تدمر دولة تجارية تمر بها قوافل التجارة بين العراق وسوريا، غير أن قيام الدولة (البارثية) منذ نحو ٢٥٠ ق.م، وانتصارها على السلوقيين وامتداد نفوذها من الفرات إلى هرآة، سبب أضراراً جسمية لاقتصاد تدمر، فقد انفصلت العراق

(١) معجم البلدان ج ٢ ص ١٧.

(٢) المسعودي، ج ٢، ص ٩٣.

عن الشام، وهدد ذلك الانفصال التجارية التدمرية التي يرجع الفضل في ازدهارها إلى ارتباط القطرين، فلما سيطر الرومان على بلاد الشام ومصر، وساد السلام بينهم وبين الدولة الفارسية انتعش النشاط التجاري المار بتدمير مجدداً.

لقد درس المستشرقون الكتابات التدمرية وترجموها إلى لغاتهم وشرعوا ما جاء فيها، وهي بالأramaica واليونانية، ثم اللاتينية والعبرانية، وكذلك كتب بعض المؤلفين اليونان واللاتين والسريان كتاباً عن تدمر، أو تعرضوا لذكرها في أثئاء أبحاثهم، ومن هذه المصادر الرئيسية استقى المؤرخون معارفهم عن تاريخ هذه المدينة، هذا فضلاً عن النقوش والكتابات.

وأهل تدمر عرب كالأنباط، يكتبون بالأramaica التي انتشرت في المنطقة ما بين فارس والشام والحجاز، على أنقاض اللغة البابلية القديمة، حتى أصبحت اللغة الرسمية في كل هذه البلاد، كما كانت لغة التجارة والدبلوماسية، وملوك تدمر يظهر عليهم التأثر بالثقافة والعادات الرومانية كملوك البترا، فهم يحملون أسماء عربية وإلى جانبها ألقاباً رومانية، وإذا كان للبترا ملكاتها الشرقيات أو الحقيقيات، فقد كان لتدمير ملكتها الأسطورية "الزياء" أو "زنوببيا" الذائعة الصيت، التي أحياها بسيرتها العجيبة سيرة ملكة مصر البطلمية "كليوباترا".

أما نقوشهم فتظهر فيها أسماء الأصنام العربية التي عبدوها إلى جانب الأصنام العربية القديمة (الأramaica)، فمن أصنامهم: شمش (شمس)، وبيل (بعل) الإله الأكبر في تدمر، وكذلك بعل-شمرين أي رب السماء، وألت (اللات) وأشتار (عشتار).

والخلاصة أن ثقافة تدمر كانت خلاصة ثقافات عديدة عربية وأramaica ويونانية ورومانية، وأنقدم كتابه عشر عليها لا يتجاوز تاريخها سنة 9 ق.م.

ومن الناحية السياسية، فقد حافظ التدمريون على استقلالهم في أثناء النزاع بين البارثيين والسلوقيين، ولكن الرومان طمعوا في الاستيلاء على بلدهم منذ عام ٤١ ق.م، عندما حاول مارك انطونيو غزوها، فاضطر أهلها إلى الجلاء عنها حاملين معهم أموالهم وأمتعتهم، ولا ندرى على وجه الدقة ما أسفرت عنه حملة أنطونيو، وأغلب الظن أن تدمر اعترفت بسيادة روما مع احتفاظها باستقلالها، ولكن من المرجح أنها دخلت في فلك الدولة الرومانية في أواخر القرن الأول الميلادي، إذ كانت من بين المدن التي أدخلها الإمبراطور تراجان في الإمارة العربية سنة ١٣٠، وفي سنة ١٠٦، زارها الإمبراطور هادريان ومنحها لقب "هادريانا بالميرا Hadriana Palmyra" أو تسمى "هادريانا بولس" كما منح أهلها حقوق أهل روما مثل: حق الملكة المطلق والحريمة الكاملة في إدارة سياسة المدينة، وحق إعفاء تجارتهم من الضرائب، وعندما ساد السلام بين البارثيين والرومان بدأ عصر من الرخاء الطويل في تاريخ تدمر.

ثم قام الإمبراطور سبتيموس سفيروس (١٩٣-٢١١ ق.م) فجعل تدمر وملحقاتها مدنًا إقليمية في إمبراطوريته، وفي مطلع القرن الثالث صارت تدمر مستعمرة رومانية، ولكنها لم تفقد الحكم الذاتي، وباعتبار أنها مدينة خلقتها خطوط القوافل فقد أصبحت الوارث الطبيعي لمدينة البتراء.

استغل التدمريون ظروف انشغال الدولة الرومانية بصد هجمات القبائل الجرمانية التي كانت تهدد دولتهم في أوروبا الغربية وأخذوا يتسعون على حساب الأراضي التي تحتلها الدولة الرومانية، فأصبحت دولة تدمر تشمل عدداً من المدن الصغيرة التابعة لها مثل "دورا أوريس" و"الرصافة" ومع ذلك فقد ظلل التدمريون أوفياء للروماني.

## أشهر ملوك تدمر:

كان لتدمر أسرتها الوطنية الحاكمة، التي توارثت الملك أو الإمارة في البلاد، والتي كانت صاحبة السلطة الفعلية، وأشهر ملوك هذه الأسرة هو الملك أذينة Odenatus بن خيران (أو حيران الملقب ببتموس) بن أذينة الذي كان يحمل لقب قائد العرب في الإقليم (فلارك) والذي أعطي لقب القنصل (ساناتور) من قبل الإمبراطور فاليريان، مكافأة له على معاونته له في الحرب ضد الفرس بقيادة سابور سنة ٢٥٨م، وهي التي انتهت بهزيمة فاليريان ووقوعه في الأسر.

بدأت مملكة تدمر تقوم بدور مهم في السياسة الدولية بعد أن تولى عليها أذينة الثاني، هذا وقامت في تلك الحقبة سلالة جديدة نشطة في بلاد فارس هي السلالة الساسانية التي حكمت المنطقة من سنة ٢٢٦م وحتى ظهور الإسلام وانهيار هذه الدولة بعد معركة القادسية سنة ٦٣٧م، وقد حدث أن طالب أذينة الثاني فاليريان لمساعدته للثأر من قاتل أبيه أذينة الأول، ولكن فاليريان لم يكتثر طلبه، فغضب أذينة وأخذ يتحين الفرص للانتقام من الرومان، وجاءت المناسبة حين اتبع الساسانيون سياسة التوسيع وقامت بينهم وبين الإمبراطورية الرومانية وممتلكاتها في الشرق مشاحنات وخلافات حول مناطق النفوذ وخطوط التجارة، وحدث أن بدأت المعارك بين الفرس الساسانيين والرومان في هذا الجزء من العالم القديم، وانتصر الساسانيون بقيادة ملكهم سابور الأول (٢٤١-٢٧٢م) على

الجيش الروماني بقيادة فاليريان في معركة جرت قرب الرها<sup>(\*)</sup>، ووقع فاليريان أسرأً في قبضة الفرس، ولما بلغ أذينة نبا انتصار سابور على فاليريان وجد الفرصة سانحة للانتقام لمقتل أبيه من هذا الأخير فأرسل رسلاً إلى سابور يحملون إليه كتاباً كله ود وعرض للصداقة والتحالف، ولم يتقبل سابور الكتاب والرسل التدمريين قولاً حسناً وعاملهم بجفوة واستهان بأمرهم وأمر بإلقاء الهدايا التي كانوا يحملونها في النهر إمعاناً في إهانتهم. وقد أثار هذا التصرف ثائرة أذينة فما كان منه إلا أن جمع جيشاً كبيراً وهاجم عاصمة الساسانيين "طيسفون أو المدائن" واشتبك مع جيش سابور في معركة عنيفة على ضفاف نهر الفرات انتهت بهزيمة سابور هزيمة نكراء، وتبع أذينة فلول الجيش الفارسي حتى أسوار عاصمته ولكنها لم يستطيع تخليص فاليريان من الأسر.

كافأ الإمبراطور الجديد غالينوس بن فاليريان أذينة على هذا الانتصار الذي أحرزه على الفرس، فأنعم عليه بلقب قائد عام على جميع جيوش الشرق Dux Orientis في سنة ٢٦٢ م. وبدأ أذينة يسترجع أراضي الإمبراطورية من الفرس، فهاجم شابور في طيسفون، ونجح في استرداد المناطق الشرقية، فاستولى على الرها ونصيبين، وكان لهذه الانتصارات أثراً عميقاً في نفس الإمبراطور الروماني فكافأه على إخلاصه مرة ثانية في سنة ٢٦٤ م بأن منحه لقب "إمبراطور بلاد المشرق".

---

(\*) وهي من المدن الهمة والمعروفة في الجزيرة الفراتية، تقع بين الموصل والشام، يسمى بها اليونان Edessa وكانت تسمى في عهد السلوقيين (كالوري) وسمها العرب الرها، تدعى اليوم أورفة، انظر ياقوت ج ٣ ص ١٠٦.

ويبدو أن أذينة شعر بأهمية انتصاراته وموقعه بين كل من كسرى ملك الفرس وقيصر ملك الروم، فاتخذ لنفسه اللقب الفارسي "ملك الملوك"، كما اتخذ لقب القياصرة وهو "أغسطس"، وكأنه أصبح يقف موقف الحكم بين القوتين الكبيرتين المتصارعتين على سيادة المشرق، بدلاً من أن يكون مجرد دولة صغيرة عازلة بين الدولتين<sup>(١)</sup>.

إن هذا الاستقرار والتقدم السياسي الذي أحرزته المملكة التدمرية لابد أن ينعكس على ازدهارها الاقتصادي عن طريق تأمين القوافل وتنظيم التجارة وإقرار الضرائب المقررة على التجارة وعلى تجارة العبور. وكان تجار تدمر وعلى رأسهم الأسرة الحاكمة يتعاملون في منتجات جزيرة العرب وبضائعها من الذهب والزعتر واللبان والصمغ، ولؤلؤ الخليج العربي وفي حرير الصين وطرائف الهند من البهار والقرنفل والعااج والأبنوس.

يبدو أن أذينة لم ينس إهانة سابور له، فعزم على مهاجمة الفرس ثانية، ومضى مع ابنه سبتيموس هيرودس وحاصر عاصمتهم طيسنون "المدائن" مدة من الزمن، ولكنه اضطر إلى العودة إلى الشام مسرعاً لمواجهة خطر القوط الذين نزلوا على سواحل ميناء هرقلية ورمحوا نحو كيادوكيا، فلما علم القوط بعوده أذينة ولوا الأدبار هاربين، وقلعوا هاربين من حيث جاءوا، وبينما كان أذينة يستعد للعودة إلى العراق لمهاجمة عاصمة الفرس "طيساغون" حدثت الفاجعة التي أدت إلى مقتله مع ابنه.

---

(١) جواد علي ج ٣ ص ٩٣-٩٥

ملخص الحادث، كما ترويه أغلب المصادر، أن أذينة كان في مدينة حمص حيث يستريح جنده قبل معاودتهم المسير إلى العراق، وأراد أن يحتفل بعيد ميلاده فأعد وليمة كبيرة حضرها كبار رجالات الدولة وقادة جيشه، واستغل ابن أخيه "معنيوس" بن يران هذه المناسبة فقتلته مع ابنه هيرودوس، وقد نادى معنيوس بنفسه ملكاً بعد مقتل عمه، ولكنه بعد أيام قليلة من جلوسه على عرش تدمر ما لبث أن لقي نفس المصير الذي حضره هو لعمه من قبل إذ انتقمت منه سيفون أهل حمص وألحقته بالمصير الذي أراده لعمه وابن عمه من قبل، وقد تباينت الأخبار والروايات الواردة في هذا الموضوع، لذلك تعددت الآراء حول أسباب مقتل الملك أذينة وهو في ذروة مجده وانتصاراته<sup>(١)</sup>.

بعد مقتل أذينة ومعني، انتقل ملك تدمر إلى وهب اللات ابن أذينة من زوجته زنوبيا أو الزباء، وكان وهب اللات حين قتل أبوه صغير السن، لذلك تولت الوصاية عليه أمه وحكت باسمه، وقادت بأعباء الحكم على خير وجه وسعت لتوسيع حدود مملكتها وبسط نفوذها على أماكن واسعة لم تكن بين الأراضي التابعة لتدمر، وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه السياسة إلى حدوث صدام بينها وبين جيرانها.

وشخصية زنوبيا من الشخصيات الهمامة في تاريخ الشرق الأدنى القديم، فقد كانت تطمح في تكوين إمبراطورية كبرى، وكانت شجاعة جريئة، ويدرك المسعودي<sup>(٢)</sup>، أنها كانت رومية، وكانت تتكلم العربية وفقاً لبعض الروايات، وعربية من أهل بيت عاملة من العمالق الذين كانوا في سليح، وتبالغ الروايات

(١) جواد علي ج ٣ ص ٩٦.

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٩٣.

في الحديث عن الزباء (زنوبিযَا)، فترعم أن جنود الزباء من بقايا العماليق والعربية الأولى وتزيد وسليح ابنى حلوان ابن عمران بن الحاق بن قضاعة، وأنها عندما آل إليها الحكم عزمت على غزو جذيمة الأبرش، وهو جذيمة بن مالك بن فهم التوخي، أول من ملك عرب الصاحبة النازلين بين الحيرة والأنبار في بادية العراق، وكان قد قتل أبيها عمرو بن الضرب، فشتتها أختها عن قصدها، وأقنعتها باصطدام الدهاء لاجتذابه إليها، فكتبت الزباء إلى جذيمة تدعوه إلى نفسها ولملوها وأن يصل بلاده ببلادها، فلما بلغه ذلك طمع في ضم ملوكها إلى ملكه، فأقبل إليها، فلما اجتمعت به قتله، فانتقم عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش منها، فسيئ إليها رجلًا يقال له قصير به سعد اللخمي، فتحايل على قتلاها، ونجح قصير في دخول تدمر بجنود الحيرة، فاضطررت الزباء إلى امتصاص خاتمتها المسموم، فقتلت نفسها، والقصة مليئة بعناصر الخيال والخرافة والإشارة، ومن المرجح أن نهاية زنوبিযَا كانت على يد الرومان، فقد أكدت الروايات أنها حملت أسيرة إلى روما، وأن الغزو الذي تعرضت له بلادها كان غزواً رومانياً.

وهناك روایات تفيد أنها ادعت أنها من مصر من نسل الملكة الشهيرة "كليوباترا" وأنها كانت تتكلم المصرية بطلاقة، وأنها ألفت كتاباً في تاريخ مصر، ولعلها أرادت بتأليفها الكتاب في تاريخ مصر تأييد نسبها هذا، أو أنها تهدف من وراء هذا النسب تحقيق أغراض سياسية منها التقرب إلى الرومان بادعائهما أنها من أصل يوناني، وأنها لم تكن بعيدة عن الحضارة والمعمار، أو من أجل كسب ود المصريين بادعائهما أنها من أصل مصرى، أو ربما كان لها بذلك أهداف أخرى.

أظهرت الزباء حنكة سياسية ومقدرة فائقة في إدارة شؤون دولتها، فكان ذلك مثار قلق للرومان، وقام شيخ روما بتحريض الإمبراطور "غاليليا تونس" على مهاجمة مملكة تدمر والقضاء على زنوبيا قبل استفال أمرها، فأرسل هذا الإمبراطور جيشاً إلى الشرق تظاهر أنه يريد من إرساله محاربة سابور غير أنه كان يريد في الواقع مهاجمة تدمر وإخضاع الملكة، فبلغ به مسامع الزباء فاستعدت لمقابلته وخرجت إليه والتحمت فعلاً بجيش الرومان وانتصرت عليه انتصاراً باهراً، وهزم الجيش تاركاً قائده هرقليانوس قتيلاً في أرض المعركة.

ومن جهة الشرق لم تنسق زنوبيا التحصن والخذر من الخطر الفارسي، فأمرت ببناء حصن على الفرات ليقف أمام الهجمات المتوقعة من الفرس ضدّها، واتسعت الدولة التدمرية في عهدها حتى غدت أشبه بإمبراطورية إذ شملت سوريا وجزءاً من آسيا الصغرى وشمال الجزيرة العربية، وفي عام ٢٧٠ م أصبحت مصر تحت حكم زنوبيا، ويبدو أنها اتفقت مع روما على بقاء حامية تدمرية في مصر نظير اعتراف تدمر بسيادة الرومان على مصر. وقد عثر على عملة تدمرية ضربت في مدينة الإسكندرية سنة ٢٧٠ م نقش عليها صورة وجه وهب اللات إلى جانب صورة وجه أورليان، والجمع بين الصورتين في عملة واحدة دليل على أن وهب اللات أصبح يحكم مصر ممثلاً للإمبراطور الروماني.

من المؤكد أن سياسة الزباء التوسعية لم تكن موضع ارتياح لدى الرومان، لذلك عزم الإمبراطور أورليان على وضع حد لتلك التوجهات والأطماع، فلما علمت الزباء بتلك النوايا غضبت وأرادت تحدي الإمبراطور، فأمرت بضرب عملات في الإسكندرية خالية من صور الإمبراطور الروماني

ما يعني عدم الاعتراف بسلطته، من جانب آخر أقام قائدها زبداً تمثلاً لأذينة الراحل ونقش عليه لقب "ملك الملوك".

هذه الأعمال قصمت ظهر العلاقة التدمرية الرومانية، وفي سنة ٢٧١ م وجهت روما أولى ضرباتها، وتمكن الجيش الروماني من إلحاق الهزيمة بجيش تدمر في مصر، في حين كانت الجيوش الرومانية تجتاح آسيا الصغرى وتحتل بلاد الشام.

حاول الجيش التدمرى إيقاف تقدم الجيش الروماني في الأراضي السورية، ولكن أخفق، فانسحب من أنطاكيا إلى حمص، وفي حمص كانت الهزيمة الثانية لجيش تدمر، وأصبح الطريق مفتوحاً أمام الرومان لاجتياح تدمر التي تحصنت فيها الزباء ودافعت عنها ببسالة وانتظرت أن تأتيها النجدة من الفرس، ولكن هؤلاء كانوا في شغل شاغل عنها على ما يبدو بسبب مشاكل الحكم، ولما أيقنوا بعدم جدو الدفع أمام القوات الرومانية المتزايدة قررت أن تذهب بنفسها إلى ملك الفرس عسى أن يستجيب لها ويعينها على استرجاع ملكها، فخرجت سراً ونجحت في الوصول إلى ضفاف نهر الفرات، وقبل أن تهم بالركوب في زورق ينقلها إلى الضفة الشرقية من النهر اكتشف الجنود الرومان أمرها وقبضوا عليها واستسلمت لهم سنة ٢٧٣ م.

وهكذا استسلمت تدمر ولم يكن أمامها سوى ذلك، فجردها المحتلون من كنوزها الغنية وزخارفها الثمينة، وفرضوا على السكان غرامات كبيرة وعينوا على تدمر حاكماً رومانيا تحميء فرقة عسكرية تتكون من عدد من الرماة.

أما الملكة زنوبيا فقد أخذت أسرية إلى روما مع أحد أبنائها، وسارت محملة بالجواهر ومقيدة بالسلسل الذهبية فازدان بها موكب أورليان عند دخوله

المظفر إلى عاصمته سنة ٢٧٤ م، وقضى على الملكة أن تتبع في بيت مخصص لها في تيبور (تيفولي) مع أولادها، وهناك أمضت بقية حياتها.

وأما تدمر المدينة التجارية الكبرى، فقد صارت خلال قرن من الزمان قرية صغيرة، وحصناً من حصون الحدود التي أحاطت بها روما حدودها، وظل الأمر هكذا خلال القرنين الخامس وال السادس الميلاديين حيث كانت تقيس حامية رومانية مخصصة للدفاع عن حدود الإمبراطورية ضد غارات قبائل البايدية، وكانت تدمر من المواقع التي اتخذها الغساسنة قسراً ريفياً لهم، وظل حالها كذلك إلى أن فتحها المسلمون سنة ٩١٢ / ٦٣٤ م<sup>(١)</sup>.

---

(١) انظر: جواد علي ج ٣ ص ١٢٧ - ١٢٩.

## المبحث الثالث

### الغساسنة

من الدول العربية التي قامت في شمال جزيرة العرب قبل الإسلام دولة الغساسنة التي أسسها العرب على حدود بلاد الشام، فمن الغساسنة؟ وما أصلهم؟ وكيف تمكنوا من إقامة دولة لهم في هذه البقعة من أرض العرب؟.

الغساسنة من قبيلة مازن، فرع من أزد اليمن، نزحوا قبل أو بعد حادثة سيل العرم تحت قيادة زعيمهم عمرو بن عامر مزيقياء من جنوب الجزيرة العربية إلى بلاد الشام. ويزعم نسابو العرب أن هؤلاء الأزد لم يرحلوا إلى الشام مباشرة، وإنما أقاموا حيناً من الوقت في تهامة بين بلاد الأشعريين وعك، على ماء يقال له "غسان" فنسبوا إليه. وقد نزلوا على هذا الماء بعد خروجهم من اليمن، ويفسر المسعودي هذه النسبة بقوله: "إنما غسان ماء شربوا منه، فسموا بذلك، وهو ما بين زيد ورمع، ووادي الأشعريين بأرض اليمن"، ويدعم المسعودي هذا التفسير ببيت شعر لحسان بن ثابت:

أما سألت فإنما عشر نجد الأزد نسبتنا والماء غسان<sup>(١)</sup>

وينتسب الغساسنة أيضاً إلى آل عمرو المعروف بـ"مزيقياء"، وهو عمرو بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس البطريقي بن

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٦-١٠٧.

تعلية ابن مازن بن الأزد بن الغوث، وهناك رأيان مختلفان في تفسير اسم "مزيقاء":

الأول: "أن عمراً إنما سمي مزيقاء لأنه كان يمزق كل يوم من سني ملكه حتى يلتسهـن غيره، فسمـي هو مزيقـاء، وسمـي ولده المـزاقـية".

الثاني: "قيل: إنـما سـمي مـزـيقـاء، لأنـ الأـزـدـ تمـزـقـتـ عـلـىـ عـهـدـهـ كـلـ مـمـزـقـ عندـ هـرـبـهـمـ مـنـ سـيـلـ العـرـمـ، فـاتـخـذـتـ العـرـبـ اـفـتـرـاقـ الـأـزـدـ عـنـ أـرـضـ سـبـاـ بـسـيلـ العـرـمـ مـثـلاـ، فـقـالـواـ: ذـهـبـتـ بـنـوـ فـلـانـ أـيـادـيـ سـبـاـ".<sup>(١)</sup>

ومن المؤكد أن التفسير الأول تفسير خرافي، والمرجح هو التفسير الثاني لأن له صلة بنص قرآنـيـ، في قوله تعالى: «... وـظـلـمـواـ أـنـسـهـمـ فـجـعـلـنـاهـمـ أـحـادـيـثـ وـمـرـقـةـهـمـ كـلـ مـرـقـةـ إـنـ يـفـيـ ذـلـكـ لـآـيـاتـ لـكـلـ صـبـارـ شـكـورـ».<sup>(٢)</sup>

"جـفـنـةـ بـنـ عـمـرـ مـزـيقـاءـ بـنـ عـامـرـ مـاءـ السـمـاءـ...ـ"ـ، وـإـلـىـ جـفـنـةـ يـنـسـبـ أحـدـ أـمـرـاءـ الغـسـاسـنـةـ، هوـ الـحـارـثـ الـأـوـلـ بـنـ ثـعـلـبـةـ بـنـ عـمـرـ بـنـ جـفـنـةـ، الـذـيـ يـسـمـيـ بـالـحـارـثـ الجـفـنـيـ، كـذـلـكـ يـسـمـونـ بـآلـ ثـعـلـبـةـ، نـسـبـةـ إـلـىـ جـدـ لـهـذـهـ أـسـرـةـ يـعـرـفـ بـثـعـلـبـةـ بـنـ مـازـنـ.

ذكر الأخباريون أن جـدـ الغـسـاسـنـةـ عـمـرـ بـنـ عـامـرـ تـبـأـ بـخـرـابـ سـدـ مـأـربـ فـرـحـلـ بـقـوـمـهـ الـأـزـدـ مـنـ مـأـربـ ...ـ "ـيـرـيدـونـ أـرـضاـ تـجـمـعـهـمـ يـقـيمـونـ بـهـاـ".<sup>(٣)</sup>ـ، فـحلـواـ

---

(١) الأصفهاني، ص ٧٧.

(٢) سورة سباء: ١٩.

(٣) المسعودي ج ٢ ص ١٩٠.

بأرض من أعمال الشام كان يملكونها عرب يعرفون بالضجاعمة ولسنا نعرف الكثير عن الضجاعمة، فهم في رأي بعض النساينيين العرب من نسل سليح بن حلوان من قضاة، وقد غلبهم الغساسنة وحلوا محلهم.

لم يتغلب الغساسنة على الضجاعمة بسهولة ويسراً، ويذكر الأخباريون أن سليح بن حلوان (الضجاعمة) ضربت الأتاوة على غسان حين نزلت بقربها، ولما طلب سيدبني سليح بن حلوان من ثعلبة بن عمرو، كبير الغساسنة، دفع الأتاوة قامت الحرب بين الطرفين وكان النصر للغساسنة واندحرت سليح، فصار الملك إلى غسان، على أن هذا النصر الذي أحرزه الغساسنة على الضجاعمة لم يؤد إلى زوالهم نهائياً، أو مغادرتهم للمنطقة فقد ظلت بقائهم تقيم في مواضع مختلفة من بلاد الشام إلى زمن متاخر.

كان من الطبيعي أن تؤدي جبائية هذه الضريبة من غسان الذين كانوا لا يعرفون الجبائية، إلى الصدام بينهم وبين عرب بن سليح، ثم بينهم وبين قوات الروم، وكانت المواجهة الأولى بين الغساسنة - الذين قتلوا الجابي السليحي - وبين عساكر الروم الذين يظن أنهم كانوا من سليح، في موضع عرفة العرب بوادي الكسوة، نظراً لسلبيهم كسوة عسكر الروم الذين قتلوا في المعركة، وهذا تأكّد للروم قوة بني غسان فصالحوهم "... على أن تعطي غسان الذمة، والدخول والخروج في البلد، والمرعى والنصرة ضد العدو، والمواصلة والعدل". وهذا ثبت الغساسنة أقدامهم في أرض الشام إلى جانب السليحيين، وكان من الطبيعي أن ينتهي الأمر بانتزاعهم بعد عدد من الوقائع بين غسان وبين الروم وسليح، منها: يوم بالغة، ويوم مرج الضباء، ويوم حلية الذي وقعت فيه قبائل العرب، من: سليح وكناية وجذام إلى جانب الروم حتى وافت غسان على الصلح نظير

دفع الجزية. وكانت المطالبة بها هذه المرة بالقرب من باب دمشق الذي عرف لذلك السبب بـ "باب الجافية"، وهذا يعني تقدم الغساسنة نحو قلب بلاد الشام، مما أدى إلى الحرب من جديد، ووقفت سليح إلى جانب الروم بينما أتت المعونة إلى الغسانيين من بني عمومتهم في يثرب، وانتهت الأمر بانتصار غسان حتى اضطر القيصر إلى صلحهم على أن لغسان ملك الشام، وأن لملكهم طعمة على الروم وأن ينصروه في الحرب<sup>(١)</sup>.

### أشهر ملوك غسان:

كان أول من ملك من الغساسنة، على حد زعم حمزة الأصفهاني<sup>(٢)</sup>، هو جفنة بن عمرو مزيقياء، وينظر حمزة أيضاً أن جفنة هذا حكم في أيام نسطورس الذي ملكه على عرب الشام، فلما ملك جفنة قتل ملوك قضاة من سليح الذين يدعون الضجاعمة، ودانت له قضاة ومن بالشام من الروم، وبني جلق والقرية وعدة مصانع، وأورد اليعقوبي<sup>(٣)</sup> هذا الخبر مع اختلاف بسيط في اسم الإمبراطور الروماني الذي هو "انسطاسيوس ٤٩١-٥١٨م"، أي أنه حكم في الفترة الواقعة بين نهاية القرن الخامس ومطلع القرن السادس. وتولى الحكم بعد جفنة ابنه عمرو بن جفنة، وكان ملكه خمس سنين، وقد اعتنق النصرانية وبنى أديرة كثيرة.

---

(١) ابن خلدون ج ٢ ص ٢٧٩ وما بعدها.

(٢) الأصفهاني، ص ٧٧.

(٣) اليعقوبي، تاريخ، ج ١ ص ١٦٧.

وخلف عمرو بن جفنة ابنه ثعلبة، وكان ملّكه سبع عشرة سنة، وخلفه ابنه الحارث بن ثعلبة وكانت مدة حكمه عشرين سنة، وجاء بعده جبلة بن الحارث وكان حكمه عشر سنين<sup>(١)</sup>.

وإذا كان أول من ملك من الغساسنة موضع خلاف عند الأخباريين فإن أول من يوثق بصحة إمارته منهم هو جبلة بن الحارث بن ثعلبة، وهو والد الحارث بن جبلة، أول أمراء غسان العظام، والملك الذي يعد ذا الشأن في تاريخ المنطقة وصاحب الصلات مع البيزنطيين من جهة والمناذرة والفرس من جهة أخرى.

والمعروف أن الحارث بن جبلة الأكبر أنه حارب أمير الحيرة وانتصر عليه في ربيع سنة ٥٢٨م، وأنه قمع ثورة السامريين في فلسطين في السنة التالية ٥٢٩م، ومكافأة للحارث قربه الإمبراطور جستنيان واعترف له بالزعامة على عدد من القبائل العربية وخلع عليه لقب "باسيلوس" أي الملك، كما يقول الكتاب البيزنطيون، ولكنه لما كان الباسيلوس خاص بقيصر الروم، فالمفروض أن الحارث حمل لقب "فيلاركوس" بمعنى شيخ القبيلة أو رئيسها، أو أنه حمل لقب "بطريق" بمعنى الزعيم أو القائد، ولا يأس من أن يكون قد جمع اللقبين معاً، فكلا اللقبين من ألقاب الشرف التي لا تمنح إلا لعدد قليل من رجالات الدولة الكبار.

وقد اشتراك الحارث بن جبلة في سنة ٥٣١ في الحرب ضد الفرس، إلى جانب الروم بقيادة القائد البيزنطي المشهور بليزاربوس، وانتهى القتال بهزيمة الروم وأسر واحد من قادة العرب اسمه عمرو في موقعة قنسرين، ثم أن الحرب

---

(١) الأصفهاني، ص ٧٧، جواد علي ج ٣ ص ١٢٤.

اشتعلت بعد ذلك بقليل بين الحارث وبين المنذر بن ماء السماء أمير الحيرة، بسبب التناقض على سيادة القبائل العربية في منطقة تدمر، والظاهر أن ذلك كان من أسباب تأجج الحرب من جديد بين الفرس والبيزنطيين.

وفي سنة ٤١٥ م شارك الحارث في الحملة البيزنطية الموجهة لمحاربة الفرس، تحت قيادة بليزاريوس أيضاً، ولم يك الحارث يعبر نهر دجلة حتى ارتد إلى موقعه السابقة عن طريق أخرى غير الطريق التي سلكها معظم الجيش، وقد أثار تصرفه هذا الشك في إخلاصه للروم، ويبدو أن الحارث أُنف من الاشتراك في حملة يقودها قائد بيزنطي، وأنه كان يعمل على الانفراد بالقيادة، ولعله انسحب لمجرد حدوث خلاف بينه وبين قائد الحملة، أو ربما كان السبب الأهم في هذا الموقف الذي وقفه الحارث هو معرفته الأكيدة بحالة الجيش البيزنطي وانشغاله بعملياته العسكرية في أوروبا، وشعوره بأن المعركة ضد الفرس خاسرة لا محالة في ظروف الإمبراطورية البيزنطية آنذاك، لذا آثر السلامة، وعاد ليتقى رجاله من فاجعة قد تحل بهم، وفعلاً أثبتت الحوادث التالية صحة رأي الحارث، إذ أسرع جستنيان حين تآزرت الأمور بينه وبين فارس إلى عقد اتفاق جديد بينه وبين الملك الفارسي نص أن تزيد بيزنطة ما تدفعه لفارس من جزية وأن تكون مدة هذا الاتفاق خمس سنوات<sup>(١)</sup>.

لم يك يمضي على حملة بليزاريوس ثلاث سنوات حتى اشتبك الحارث في قتال عنيف مع المنذر بن النعمان المعروف بابن ماء السماء ملك الحيرة، وذلك في سنة ٤١٤ م، وانتهى القتال بهزيمة الحارث بن جبلة، ووقع أحد أبنائه

---

(١) انظر: نولكه، أمراء خسان، ص ٤ وما بعدها. جواد علي ج ٣ ص ٣٢٠.

أسيراً في يد المنذر، فقدمه ضحية لإله العزى، ولم يسكت الحارث على تلك الهزيمة، فجمع جموعه وأشتبك من جديد مع المنذر في موقعة انتهت هذه المرة بهزيمة المنذر، وفراره من المعركة تاركاً ولدين من أولاده أسيرين في أيدي الغساسنة، واستمر القتال بعد ذلك سجالاً بين المناذرة والغساسنة على الرغم من الهدنة المعلنة بين فارس وبيزنطة، ولم ينته إلا بعد أن قتل المنذر ملك الحيرة في موقعة دارت بينه وبين خصمه الحارث سنة ٥٥٤م قرب قنسرين، وهذه الموقعة هي الموقعة المعروفة في التاريخ العربي باسم "يوم حليمة" نسبة إلى حليمة بنت الحارث التي كانت تطيب عسكر أبيها وتلبسهم الأكفان والدروع، أو نسبة إلى مرج حليمة المنسوب إلى حليمة بنت الحارث<sup>(١)</sup>، ويوم حليمة هذا عند بعضهم هو يوم عين باع نفسه، وهذا الرزعم غير صحيح استناداً إلى قول النابغة:

ويؤكد نولدكة أن حليمة اسم مكان لا اسم امرأة كما يزعم الأخباريون.

وفي سنة ٥٦٣ م استقبل القيصر في القسطنطينية الحارث بن جبلة، وكان الهدف من الزيارة مفاوضة القيصر فimin يخلفه من أبنائه في إمارة الشام، والإجراءات التي يجب اتخاذها لمقاومة ملك الحيرة، ولقد تأثر الحارث بمظاهر الحضارة التي شاهدها في القسطنطينية، وكان له تأثيره القوي على أهل العاصمة وفي نفوس رجالات القصر والحاشية الإمبراطورية الذين أهابوه.

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٥٤٦، ابن قتيبة، المعارف ص ٢١٦.

(٢) ديوان النابغة، ص ٣٧.

ويبدو أن الحارث لم يكن مرغوباً فيه كثيراً في بلاط الروم بسبب اعتقاده للمذهب اليعقوبي، أي مذهب الطبيعة الواحدة، وهو غير المذهب الرسمي للدولة البيزنطية، وكان الحارث يتولى الدفاع عن معتقلي المذهب الذي هو عليه ويسعى إلى تحريرهم من اضطهاد البيزنطيين لهم، ويقال أنه سعى لدى الإمبراطورية ثيودورا في سنة (٥٤٢-٥٤٥) لتعيين يعقوب بالبرادعي - مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية - ورفيقه ثيودوروس أسقفين في المقاطعات العربية في بلاد الشام، ونشر بذلك مذهب الطبيعة الواحدة في بلاده (والذي يسمى أيضاً المذهب المونوفيزطي)، وظل الحارث طوال سني حكمه حامياً للكنيسة المونوفازنية وبذلك نجح في تحويل عرب بلاد الشام إلى متصرة على هذا المذهب.

توفي الحارث بن جبلة سنة ٥٦٩ أو السنة التي تليها، بعد أن ظل أميراً على عرب الشام حوالي ٤٠ عاماً، قام فيها بالكثير من الأعمال الكبيرة، وربما كان ذلك هو السبب في أن نسب الكتاب العرب الكثير من أعمال ملوك الغساسنة إلى الحارث بن جبلة المشهور بابن أبي شمر، دون مراعاة التسلسل التاريخي لتلك الأحداث.

بعد وفاة الحارث انتقلت إمارة الغساسنة إلى ابنه المنذر، الذي ما أن تسلم الإمارة حتى قام بصد الغارة التي قام بها عرب الحيرة على الشام، وهزم ملوكهم قابوس مرتين في سنة ٥٧٠، ووقعت المعركة الأولى غير بعيدة عن عاصمة اللخميين، ويحدد نولدكته هذه المعركة "بيوم أباغ" الذي تغنى به الشعراء.

ويبدو أن العلاقات ساءت بين المنذر والإمبراطور البيزنطي جوستين، وقامت بينهما خلافات ومشاحنات كان من جملة أسبابها تطرف المنذر في تأييده لمذهب الطبيعة الواحدة، فقطع البيزنطيون إرسال الإمدادات إلى المنذر مدة ثلاثة

سنوات، وأحس المنذر أن بيزنطة تدر مؤامرة لاغتياله، فقاد حاضرة ملكه وتوغل في الباشية وأعلن العصيان على الروم. وحين علم أهل الحيرة (المناذرة) بهذه الأحداث استغلوا الفرصة وأخذوا يشنون غارات متتالية على بلاد الشام، وأوقعوا الرعب في نفوس سكان المنطقة، مما جعل الروم البيزنطيين يشعرون بالفراغ الذي خلفه المنذر فأخذوا يراسلونه مستطلفين ومعذرين، حتى إذا ما شعروا برضائه أرسلوا إليه وسيطاً ليقنعوا بترك معقله في الصحراء والعودة إلى حاضرة ملكه، فاطمئن لوعودهم وعاد المنذر إلى أرضه بعد أن عقد مع البيزنطيين صلحاً وذلك سنة ٥٧٨ م.

وقد قام المنذر بزيارة الإمبراطور الجديد طيباريوس (٥٨٢-٥٧٨ م) في القسطنطينية في (٨ مارس سنة ٥٨٠ م)، ورافقه ابنان له في هذه الرحلة، وقد استقبل في عاصمة البيزنطيين استقبلاً حافلاً، وأنعم عليه بالتاج بدلاً من الإكليل، وكان من إنجازات المنذر في هذه الزيارة حصوله على عفو عن المضطهدين من أنصار أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة (اليعاقبة).

ولكن العلاقات لم تثبت أن ساعت بين المنذر وبين الروم في أثناء حرب الفرس سنة ٥٨٠ م، وتفصيل الأمر أن "موريقى" قائد جيش الروم آنذاك، غزا في هذا العام حدود فارس، فوجد الجسر المنصوب على نهر الفرات مهدمًا مما اضطره إلى التراجع وترك الغزو، وحتى يبرر فشله أمام الإمبراطور ادعى أن المنذر كان على اتفاق سري مع الفرس وأنه هو الذي أزعز بهدم الجسر حتى لا تستطيع الجيوش البيزنطية العبور ومقاتلة الفرس، وقد أدت هذه الدسيسة إلى غضب الإمبراطور من المنذر فأوزع سراً إلى حاكم بلاد الشام البيزنطي بتدبير قتله، ولكن المنذر -إثباتاً لبراءته من هذه التهمة الملفقة- خرج وحده على رأس

جيش كبير من العرب، وأغار على بلاد الـلـخـمـيـنـ، وأحرقـ الحـيـرـةـ، وعادـ منـ غـزـوـتـهـ بـغـنـائـمـ كـثـيرـةـ. ولـعـلـ هـذـهـ الغـزوـةـ كـانـتـ سـبـبـاـ فـيـ أـنـ يـطـلـقـ عـلـيـهـ مـؤـرـخـوـ العـربـ لـقـبـ المـحرـقـ، وإنـ كـانـواـ قدـ أـطـلـقـوـهـ خـطـأـ عـلـىـ جـفـنـةـ الأـصـفـرـ اـبـنـهـ، وـبـهـ سـمـيـ خـلـفـاؤـهـ بـآلـ المـحرـقـ<sup>(١)</sup>.

لم ينجح المنذر في استعادة حسن الظن به، فالروم اعتبروا هذا النجاح الذي أصابه المنذر تحدياً سافراً لجيشهم، وعزموا على الانتقام منه، فصدرت الأوامر إلى ماجنوس حاكم سوريا الروماني بالقبض عليه، على الرغم من أن هذا الحاكم كان صديقاً للمنذر، ولم يجد ماجنوس بدأ من تنفيذ الأمر، فأرسل إلى المنذر يدعوه إلى حضور حفل افتتاح كنيسة جديدة بين تدمر ودمشق، فاستجاب المنذر لهذه الدعوة، ووقع في الكمين، وتم القبض عليه وإرساله إلى القسطنطينية مع ابنيه له وإحدى نسائه حيث فرضت عليه الإقامة الجبرية.

ولما انتقل العرش البيزنطي إلى الإمبراطور موريقي (٥٨٢-٦٠٢) الذي كان يحد أشد الحقد على المنذر للأسباب التي ذكرناها آنفاً، أمر بنفيه إلى صقلية وقطع الإعانة التي كانت تدفعها بيزنطة إلى الغساسنة كل عام.

من الطبيعي أن يؤدي هذا التصرف إلى غضب الغساسنة الشديد، فقام أولاد المنذر بالخروج على دولة الروم، فتركوا ديارهم وتحصنوا في الـبـادـيـةـ، واتخذوها مركزاً لشن الغارات على حدود سوريا، ينهبون ويخربون ملحقين بهم أشد الأذى. ولم يبق أمام موريقي إلا أن يعد حملة لتأديب أبناء المنذر، جعل على قيادتها الحاكم ما جينوس، وفشلـتـ الحـمـلـةـ فـيـ تـحـقـيقـ هـدـفـهاـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ أنـ

---

(١) ابن خلدون، ج ٢ ص ٥٨٦.

ماجينوس تمكن بطريق الخدعة من استدراج النعمان، أكبر أبناء المنذر، والقبض عليه وإرساله أسيراً إلى القسطنطينية سنة ٥٨٣م، حيث انتهى نهاية غامضة. وهكذا أخذت دولة الغساسنة في الضعف، وتصدع أمرها، فانقسم عرب الشام وتفرقوا إلى خمس عشرة فرقة، لكل واحدة منها رئيس أو شيخ، وانتهى أمر هؤلاء بالانحياز إلى الفرس أو الدخول في طاعة بيزنطة أو ترك حياة الجنديّة والتوطّن في المدن والقرى في كل من العراق والجزيرة والشام. وأعقب هذه الحالة حدوث اضطرابات وفوضى في الأمان ومشاحنات بين القبائل التي أخذت تتنافس من أجل الرئاسة، الأمر الذي دفع الروم إلى تعين حاكم جديد على هذه القبائل من آل جفنة، لما لهذه الأسرة من مكانة في نفوس العرب.

ويختلف الأخباريون العرب حول أسماء الملوك الغساسنة الذين تولوا الحكم بعد المنذر بن الحارث، في الوقت الذي لم يعد كتاب اليونان أو السريان يذكرون أخبار آل جفنة بعد هذا التاريخ، ولكن مما لا شك فيه أن من تولى من أمراء الغساسنة بعد المنذر كانوا ضعافاً وأن مدد حكمهم كانت قصيرة، وقد درس نولدكه القوائم المختلفة التي أوردها الأخباريون العرب لملوك غسان بعد الحارث، ونقدتها وحللها وخرج بالقائمة الآتية<sup>(١)</sup>:

١-أبو شمر جبلة (حوالي سنة ٥٠٠م).

٢-الحارث بن جبلة (٥٦٩-٥٢٩م).

٣-أبو كرب المنذر بن الحارث (٥٦٩-٥٨٢م).

٤-النعمان بن المنذر (٥٨٣-٥٨٢م).

---

(١) نولدكه ص٥٧، جواد علي ج٤ ص١٥٥.

٥-الحارث الأصغر بن الحارث الأكبر.

٦-الحارث الأعرج بن الحارث الأصغر.

٧-أبو حجر النعمان (٥٨٣-٦١٤ م).

٨-عمرو ...؟

٩-حجر بن النعمان.

١٠ - جبلة بن الأبيهم ( حوالي سنة ٦٣٥ م).

وجبلة بن الأبيهم هذا هو الذي حارب الفرس إلى جانب الإمبراطور هرقل حين قام هذا الإمبراطور بحملاته المشهورة ضد فارس لاسترداد الأراضي التي اغتصبواها من الإمبراطورية البيزنطية في بلاد الشام وغيرها وإعادة الصليب المقدس الذي نهبه الفرس في إحدى حملاتهم السابقة، ولما ظهر الإسلام واندفع المسلمين خارج جزيرتهم يدكون عروش الأكسرة والقياصرة ويقيمون صرح دولتهم الجديدة، وقف الغساسنة إلى جانب الروم في حروبهم ضد المسلمين، وفي سنة ٦٣٤ م أوقع بهم خالد بن الوليد في معركة جرت في "مرج الصفر" جنوب دمشق، كما قاتلهم خالد في "دومة الجندي" وقد انضم جبلة إلى المسلمين وأعلن إسلامه، وزار المدينة وقابل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم ما لبث أن ارتد عن الإسلام وعاد إلى نصرانيه ولحق بأرض الروم، وذكر ابن قتيبة أنه أسلم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم تتصر بعد ذلك، وأن سبب تتصره "أنه مر في سوق دمشق فألوطاً رجلاً فرسه، فوثب الرجل فلطمه، فأخذه الغسانيون فأدخلوه على أبي عبيدة بن الجراح، فقالوا: هذا لطم سيدينا، فقال أبو عبيدة بن الجراح: البينة أن هذا لطمه، قال: وما تصنع بالبينة، قال: إن كان لطمه لطمه بلطمتك. قال: ولا يقتل، قال: لا، قال: تقطع يده، قال:

لَا، إِنَّمَا أَمْرَ اللَّهِ بِالْقَصَاصِ، فَهِيَ لَطْمَةُ بَلْطَمَةٍ، فَخْرَجَ جَبَلَةً وَلَحَقَ بِأَرْضِ الرُّومِ  
وَلَمْ يَزُلْ هُنَاكَ إِلَى أَنْ هَلَكَ<sup>(١)</sup>.

---

(١) كتاب المعرف، ص ٢١٧.

## المبحث الرابع

### المناذرة (ملكة الحيرة)

كانت بادية العراق مفتوحة لهجرات العرب المقيمين بأطراف شبه الجزيرة العربية أو الوافدين من بلاد العرب الجنوبية، وكانت هجرات هذه القبائل إلى العراق تزداد عندما تكون الحكومات هناك ضعيفة لا تستطيع الدزود عن حدودها، خاصة وأن هذه القبائل تستطيع التوغل عبر الバادية دون أن تصادف ما يعيق سيرها، ولم يكن هناك إلا نهر الفرات الذي يفصل المناطق الخصبة عن الصحراء ويقف حاجزاً أمام تقدم القبائل إلى الداخل، وفي أواخر أيام الدولة البرئية، أي في فترة ضعف هذه الدولة، أخذت القبائل القيمة في غربى الفرات، والتي تمر من مناطق سكانها الطرق التجارية المارة بين سوريا والعراق عبر وادي الفرات تتمتع باستقلال كبير، نظراً لضعف البرئيين من جهة، والثراء الذي تدفق عليها نتيجة عملها كحامية للقوافل التجارية المارة من جهة أخرى. وقد أدى سقوط مملكة تدمر والاضطرابات التي ثلت سقوط البرئيين وقيام الدولة الساسانية من بعدهم، إلى تألق نجم مملكة عربية على شاطئ الفرات الأيمن، على مقربة من الكوفة، هي مملكة الحيرة.

كانت مملكة الحيرة تقوم دوراً فعالاً، دور الحاجز بين العرب والفرس، فضلاً عن كونها دولة عازلة بين الروم والفرس، وكانت مملكة مهمة من الناحيتين السياسية والحضارية، فقد كانت تصنف ضمن الممالك الأربع التابعة التي كانت تحويها كل الإمبراطورية، وكان ملكها يلقب بلقب "شهداران"، أما

دورها التفافي والحضاري فيبدو عظيماً إذ نصبت نفسها مركزاً للشعر العربي الأصيل وملتقى لتأثيرات مختلفة كذلك. أما على الصعيد الديني فقد تعايشت فيها الوثنية العربية والمانوية والمزدكية والنسطورية والمذهب التوحيدى لطبيعة السيد المسيح عليه السلام.

أما عن أصل التسمية (الحيرة) فتقول الروايات العربية أن عابر والد قحطان (وهو هود) هو الذي يحر الحيرة بمعنى أنه هو الذي مدنها أو مصرها، ويذهب معظم المستشرقين إلى القول بأنها "حرتا" السريانية الأصل، ومعناها المخيم أو المعسكر. وقد اشتهرت الحيرة عند العرب بأنها بلد طيب الهواء حتى أنهم قالوا: "يوم وليلة بالحيرة خير من دواء سنة". ويبدو أن الحيرة مدينة قديمة، إلا أن تاريخها قبل الميلاد غامض وغير معروف، ولم يرد لها ذكر في نص تاريخي مدون أو منقوش من العصور السابقة للميلاد. ويرجع بعض الأخباريين عهدها إلى أيام بختنصر، فهو في رأيهم مؤسسها، ومؤسس الأنبار أيضاً.

وأما عن مجتمع الحيرة فكان ينقسم إلى طبقات ثلاثة:

#### ١- تتوزع:

من سكان المظالم وبيوت الشعر والوبر في غربى الفرات من الحيرة إلى الأنبار، ولم يقصد بهم قبيلة معينة.

#### ٢- العباد:

هم الذين سكنوا رقعة الحيرة فابتداوا بها، فهم إذن حضر مستقرون، ويقول أغلب الأخباريين عنهم كانوا من النصارى، وأصل كلمة "العبد" على ما يقول الأخباريون مختلف فيه، فبعضهم يرى أنهم سموا بالعبد لأن وفداً منهم

وفد على كسرى، ولما سأله عن أسمائهم وجد أنها تبتدئ بكلمة "عبد" فقال لهم:  
أنتم عباد لكم، فسموا بالعباد، ويقول آخرون إنهم إنما سموا بهذا الاسم لأنهم  
كانوا يعبدون الله.

ويقول جواد علي: إن هذا الاسم لم يكن يعني قبيلة أو بطناً، وإنما يعني  
جماعة من قبائل شتى جمعت بينهم وحدة الدين ووحدة الوطن، لذلك لم يطلق إلا  
على النصارى من أهل الحيرة، أما غيرهم من نصارى العرب، فلم يشملهم اسم  
العابدين، ويمكن أن نقول استناداً إلى روايات الأخباريين في تحديد مدلول الكلمة  
واقتصرارها على نصارى الحيرة دون غيرهم من نصارى العرب، إن هذه الكلمة  
أطلقت في الأصل على من تتصرّ من أهل الحيرة ليميزوهُم عن غيرهم من  
سكان المدينة (أي مدينة الحيرة) من الوثنيين، ولم يكن أولئك النصارى في بادئ  
أمرهم بالطبع إلا فئة قليلة، ثم توسيع من بعد، فلما انتشرت النصرانية في  
الحيرة لازمت هذه التسمية جميع نصاراها، كائناً من كانوا، وصارت علماً لهم،  
لم تميّزهم عن الوثنيين فحسب، وإنما ميزتهم أيضاً عن بقية النصارى العرب من  
غير أهل الحيرة<sup>(١)</sup>.

### -الألاف:

هم بقية سكان الحيرة ومن نزل فيها من العرب، ولم يكن في الأصل لا  
تتوخيَا ولا من العباد. وكان بين سكان الحيرة جماعات من النبط (وهم بقایا  
سكان العراق القدماء، وهم طبعاً غير الأنباط سكان البتراء) وكذلك من الفرس  
واليهود.

---

(١) جواد علي، ج ٤، ص ١٥-١٦.

## أشهر ملوك الحيرة:

يعرض علينا الكتاب العرب قوائم لملوك الحيرة يعددون فيها أكثر من أربعين سنة، ولكن على الرغم من محاولتهم ترتيبهم وتحديد تواريخ ملوكهم بالنسبة لملوك فارس، فإن الملاحظ هو أن كثيراً من هؤلاء الملوك يشتركون في الأسماء نفسها، فالمنذر يتكرر خمس مرات، والنعمان ثلاث مرات، وعمرو ثلاث مرات، وامرئ القيس ثلاث مرات، مما يحتمل معه أن تكون الأحداث قد تكررت مع تكرار الأسماء أكثر من مرة، ومثل هذا حدث بالنسبة للغساسنة الذين امتد ملوكهم عند الكتاب العرب القدماء إلى حوالي ٦٠٠ سنة، بينما أثبت المؤرخون المدققون أن الأمر لا يتعدي مائتي سنة على أكثر تقدير، وفي هذا الصدد نلاحظ أن هناك من ملوك المناذرة من ينسب إليه في الروايات العربية أنه حكم أكثر من مائة سنة، وهذا ما لا يطابق الحقيقة ويندرج في نطاق أسطورة الأحداث التاريخية التي يكتفها الغموض.

ويجمع المؤرخون العرب على أن أول من حكم من بني تتوخ كان مالك ابن فهم، وهو في نظرهم من الأزديين، وكانت مدة حكمه عشرين عاماً، وقد انتقل الملك من بعده إلى أخيه عمرو بن فهم، أو إلى جذيمة الأبرش المعروف بجذيمة الوضاح، بحسب تعدد الروايات، ويبدو أن الأخبار عن مالك وأخيه عمرو قليلة جداً، فلم يصلنا عنهم شيء مهم أو مفصل، وجل ما وصلنا عن الاثنين متراقص وأقرب إلى الأسطورة منه إلى التاريخ الحقيقى، أما جذيمة الأبرش فقد كان حظه عند الأخباريين أوفر، فقد تحدثوا عنه ورووا أخباره بشيء من التفصيل.

جذيمة الأبرش هو جذيمة الصباح بحسب رأي بعضهم، وأبواه هو مالك بن فهم بن غانم بن دوس الأزدي، وهناك من يرفع نسبه إلى كهلان بن سبا، ويرفعه آخرون إلى العرب العاربة الأولى منبني وبار بن أميم بن لوذ بن سام بن نوح. وقد بالغ الأخباريون في مدحه، فيقول عنه الطبرى أنه كان: "من أفضـل ملوك العرب رأياً، وأبعدـهم مغاراً، وأشدـهم نكاية، وأظـهرـهم حزماً، وأولـ من استـجمعـ لهـ الملكـ بأرضـ العـراقـ، وضمـ إلـيهـ الـعربـ، وغـزاـ بالـجيـوشـ"<sup>(١)</sup> ويعـالـلـون تـقبـهـ بـالأـبرـشـ وـالـوضـاحـ أـيـ الأـبـرـصـ بـيرـصـ كـانـ بـهـ، "فـكـنـتـ الـعـربـ عـنـهـ وهـابـتـ الـعـربـ أـنـ تـسـمـيـهـ بـهـ وـتـسـبـهـ إـلـيـهـ، إـعـضـامـاـ لـهـ، فـقـيلـ جـذـيمـةـ الـوضـاحـ، وجـذـيمـةـ الأـبـرـشـ". وكان ملكـهـ عـلـىـ رـأـيـ الطـبـرـيـ فـيـمـاـ بـيـنـ الـحـيـرـةـ وـالـأـبـارـ وـبـقـةـ وـهـيـتـ وـنـاحـيـتـهـ، وـعـيـنـ التـمـرـ وـأـرـافـ البرـ إـلـىـ الـغـمـيرـ وـالـقـطـقـاطـانـةـ، وـخـفـيـةـ وـمـاـ وـدـهـاـ". أما بـقـةـ فـتـقـعـ بـيـنـ الـأـبـارـ وـهـيـتـ، عـلـىـ نـهـرـ الـفـرـاتـ<sup>(٢)</sup>، وـهـيـتـ مـدـيـنـةـ قـدـيمـةـ أـسـسـتـ فـيـ عـصـرـ يـسـيقـ الـمـيـلـادـ بـقـرـونـ<sup>(٣)</sup>، وـالـقـطـقـاطـانـةـ مـوـضـعـ قـرـبـ الـكـوـفـةـ مـنـ جـهـةـ الـبـرـيـةـ بـالـطـفـ<sup>(٤)</sup>، وـخـفـيـةـ أـجـمـةـ فـيـ سـوـادـ الـكـوـفـةـ<sup>(٥)</sup>، وـعـيـنـ التـمـرـ بـلـدـةـ عـلـىـ الـأـبـارـ

(١) الطبرى، ج ١ ص ٦١٣.

(٢) المصدر السابق: ج ١ ص ٦١٣.

(٣) ياقوت الحموي: ج ٢ ص ٤٧٣.

(٤) المصدر السابق: ج ٥ ص ٤٢١.

(٥) المصدر السابق: ج ٤ ص ٣٧٤.

(٦) المصدر السابق: ج ٣ ص ٣٨٠.

تقع غربى الكوفة<sup>(١)</sup>. ويتبين من هذا الوصف أن هذه المملكة كانت تقوم على أرض العراق وحول نهر الفرات الأوسط.

كان لجذيمة غزوات كثيرة، فقيل أنه غزا طسماً وجديساً في اليمامة، ومن جملة أخباره أنه تباً وتکهن، وعمل صنمين يقال لهما الضيزيتين، وضعهما بالحيرة في مكان معروف، وكان يستسقى بهما ويستنصر بهما على العدو<sup>(٢)</sup>.

يذكر الطبرى أنه كانت تقوم بين جذيمة وبين بنى إياد النازلين في عين أباغ غزوات، وقد ذكر لجذيمة مرة أنه ينزل في إياد غلام من لخم اسمه عدي ابن نصر بن ربعة، وبنو إياد هم أخوال عدي هذا، فلما بلغ جذيمة أمر هذا الغلام أراد أن يستقدمه، فغزاهم جذيمة، ولكنه لم يستطع أن يظفر بالغلام، وحدث أن قامت بين الطرفين حرب أخرى استطاع خلالها بنو إياد أن يسقوا سدنة الضيزيتين، صنمى جذيمة الخمر، وأن يسرقوا الصنمين.

ولما أصبح الصنمان في إياد راسلوا جذيمة وفاوضوه أن يردوا له الصنمين مقابل لا يعود لحربيهم أو غزوهم، فوافق جذيمة على أن يرسلوا إليه عدي بن نصر، فأرسلوه إليه مع الصنمين، فضمه إليه، وولاه شرابة، فأبصرته رقاش أخت جذيمة، فوقع من قلبها موقعاً حسناً، وعشقته، وتزوجته بحيلة احتالتها على أخيها، ومن هذا الزواج المزعوم جاء عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة الذي خلف حاله على الملك<sup>(٣)</sup>.

(١) ياقوت الحموي، ج ٣ ص ١٧٦.

(٢) الطبرى: ج ١ ص ٦١٤.

(٣) المصدر السابق: ج ٢ ص ٦١٤-٦١٥.

## إمارة المناذرة أو اللخميين على الحيرة:

تولى عمرو بن عدي الإمارة على عرب الحيرة والأنبار بعد جذيمة، وهو عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مسعود بن مالك بن غنم ابن ثمارة بن لخم، ولهذا فعمرو يعد مؤسساً لإمارة اللخميين في الحيرة، وهناك رواية أخرى تجعل عمراً هو عمرو بن عدي بن ربيعة بن نصر، وأن جده ربيعة بن نصر، تتبأ بغلبة الأحباش على اليمن والفرس من بعدهم، فقرر أن يبعث بنيه وأهل بيته إلى العراق بما يصلحهم، وكتب لهم إلى سابور ذي الأكتاف فأسكنهم الحيرة<sup>(١)</sup>، ولكن هذه الرواية مليئة بعنصر الخيال وفيها الكثير من عناصر الأخلاق والتشويق، ومن المعروف أن عمرو بن عدي ينسب إلى عدي ابن نصر بن ربيعة اللخمي. وعمرو هذا "هو أول من اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب، وأول من مجدهم أهل الحيرة في كتبهم من ملوك العرب بالعراق، وإليه ينسبون، وهم ملوك آل نصر"<sup>(٢)</sup>.

يحدثنا المؤرخون عن عمرو بن عدي فيقولون إنه كان "منفرداً بملكه" مستبداً بأمره، يغزو المغاربي ويصيّب الغنائم، وتقد عليه الوفود دهره الأطويل، لا يدين لملوك الطوائف بالعراق ولا يدينون له<sup>(٣)</sup>. وقد اتبع سياسة سلفه في التحالف مع الفرس فساعد ذلك على تقوية نفوذه.

(١) المسعودي ج ٢ ص ١٩٣.

(٢) ابن الأثير ج ١ ص ٢٠٢.

(٣) الطبرى ج ١ ص ٦٢٧.

كان زمن جذيمة قد شهد سقوط دولة البارثيين وقيام الدولة الساسانية في بلاد فارس، وتذكر المصادر أن اردشير بن بابك مؤسس الدولة الساسانية بعد أن ضبط أمره بلاده الداخلية التفت إلى العراق فوجد أنه يحوي كثرة من قبائل تتوخ فكره ذلك وأخذ يضيق عليها الخناق حتى يتركوا مواقعهم في العراق ويهاجروا منها، وفعلاً خرج منهم من كان من قبائل قضاة الذين كانوا قد أقبلوا مع مالك وعمرو أبني فهم، ومالك بن زهير وغيرهم، ولحقوا بالشام إلى من هناك من قضاة فانضموا إليهم. ولم يزل عمرو بن عدي ملكاً على الحيرة حتى مات وهو ابن مائة وعشرين سنة على ما يزعم الطبرى<sup>(١)</sup>، وكان حكمه خمساً وخمسين سنة.

تولى الحكم بعد وفاة عمرو ابنه امرؤ القيس، ويعرف بأمرئ القيس البدء أي الأول، وهو أول من تصر من ملوك آل نصر بن ربيعة، ويقال أنه ملك ١٤ سنة، وأنه عاصر جملة من ملوك الفرس هم: سابور بن اردشير، وهرمز بن سابور، وبهرام بن هرمز، وواضح أن مدة حكم امرئ القيس البدء على ما رواه ابن الكلبي مبالغ فيها، في حين ذكر اليعقوبى أنه حكم ٣٥ سنة<sup>(٢)</sup>.

ويبدو أن ملك امرئ القيس البدء كان عظيماً ويمتد "على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر من بادية العراق والحجاز والجزيرة". ونص النماراة الذي ثُر عليه في جبل حوران يتضمن هذه الألقاب إذ نقرأ فيه "هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي تقلد التاج وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكيهم وهزم مدحج إلى اليوم وقد على الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر وأخضع

(١) الطبرى ج ١ ص ٦٢٧.

(٢) اليعقوبى ج ١ ص ١٧٠.

معدا واستعمل بنيه على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم، فلم يبلغ ملك مبلغه إلى اليوم<sup>(١)</sup>. وقد توفي هذا الملك في حوران سنة ٣٢٨ م.

بعد امرئ القيس البداء أو الأول حكم ابنه عمرو بن امرئ القيس، وأمه هند بنت كعب على إحدى الروايات، أو مارية البرية على رواية أخرى. ويعتقد أن عمروا هذا كان يعاصر من ملوك الفرس سابور ذا الأكتاف وأخاه اردشير بن هرمز وبعض أيام سابور بن سابور، وقد حكم على ما يذكر بعضهم خمساً وعشرين سنة، وكان محارباً جريئاً له غزوات وفتوحات<sup>(٢)</sup>.

ترد في المصادر أسماء عدة ملوك لخميين حكموا الحيرة بعد عمرو بن امرئ القيس، ولكن دون أن تتفق هذه المصادر على تواليهم أو أسمائهم أو مدة حكمهم. كما أن الصفة الخرافية هي الغالبة على الروايات الوارددة عنهم، وقد حكم هؤلاء الملوك حتى أواخر القرن الرابع الميلادي<sup>(٣)</sup>.

في أواخر القرن الرابع الميلادي يطل علينا اسم ملك لخمي مهم هو "النعمان الأول بن امرئ القيس الثاني" الذي حكم بين (٤١٨-٣٩٠ م)، وقدحظى بشهرة كبيرة بين ملوك بحيرة، فهو النعمان الأعور، وهو النعمان السائح، لأنّه زهد في الدنيا في آخر عمره، فتخلّى عن الملك وليس المسووح وساح في الأرض. وذلك بعد ٢٩ سنة وأربعة أشهر من الحكم، وشهرته أيضاً تأتى من أنه هو الذي بنى "الخورنق" و"السدير"<sup>(٤)</sup>، وربما قصر الخورنق فقط، الذي اشتهر في

(١) رينيه رسو: العرب في سوريا قبل الإسلام ص ٣٦.

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٦٢.

(٣) حول هذا التباين في الروايات، انظر: اليعقوبي، المسعودي، الطبرى، ابن الأثير.

(٤) اليعقوبي، ج ١ ص ١٧٠، ابن قتيبة ص ٢١٨.

كتب الأدب والتاريخ، ويتحدث الطبرى عن سبب بنائه للخورنق فيقول: "وكان سبب بنائه الخورنق، فيما ذكر، أن يزدجرد الأثيم بن بهرام كرمان شاه بن سابور ذي الأكتاف، كان لا يبقى له ولد، فسأل عن منزل بريء مريء صحيح من الأدواء والأسقام، فدل على ظهر الحيرة، فدفع ابنه بهرام جور إلى النعمان هذا، وأمر ببناء الخورنق مسكنًا له، وأنزله إياه<sup>(١)</sup>.

وهناك قصبة معروفة في كتب الأدب والتاريخ تمتاز بالطرافة عن بناء هذا القصر، فتذكر الروايات العربية أن شخصاً اسمه سنمار، وهو على ما يذكر بعضهم، بناء رومي، كلفه النعمان بناء القصر، فلما فرغ منه تعجبوا من حسنه واقتان عمله، فقال لهم سنمار: "لو علمت أنكم توفونني أجري وتصنعون بي ما أنا أهله ببنيته بناء يدور مع الشمس حيث دارت، فقال: وإنك لتقدر على أن تبني ما هو أفضل منه ثم لم تبني، فأمر به فطرح من رأس الخورنق" ومن هذه القصة جاء المثل الشهير: جراء سنمار!.

لقد نال النعمان الأكبر من الشهرة ما لم ينله أحد من ملوك الحيرة قبله أو بعده، ويبعدو أن النعمان كان جديراً بهذه الشهرة، فقد وصفه الأخباريون بأنه كان صارماً حازماً ضابطاً لملكه وأنه اجتمع له من الأموال والأتباع والرقيق ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة، وكان أشد الملوك العرب نكأة بالأعداء، وأبعدهم مغاراً، وغزا الشام مراراً كثيرة وأكثر المصائب في أهلها وسبى وغنم، وكان يستعمل في هجومه على الشام كتيبة: الدوسري وأهلها من توخ الشهباء وأهلها من الفرس، وقد اشتهرت كتيبة الدوسري بشدة بطشها حتى ضرب بها المثل فقيل:

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٦٥.

أبطش من دوسر، ويذهب بعضهم إلى حد القول أن جيشه كان يتكون من خمس كتائب: منها: الأشاهب وكتائب ثلاثة أخرى هي:

الرهائن: وكانوا خمسماة رجل رهائن لقبائل العرب يقيمون على باب الملك سنة، ثم يحل ملهم خمسماة آخرون في فصل الربع، فكان الملك يغزو بهم ويوجههم في أموره.

الصناع: وهم بنو قيس وبنو نيم اللات بن ثعلبة، وكانوا خواص الملك لا يبرحون بابه.

الضوائع: كانوا ألف رجل من الفرس يضعهم ملك فارس في الحيرة نجدة لملوك العرب، وكانوا يرافقون أيضاً لمدة سنة، ثم يأتي بدلهم ألف جدد، وينصرف أولئك<sup>(١)</sup>.

وقد خلف المنذر الأول (٤٦٢-٤١٨م) أباه النعمان على العرش، وكانت له منزلة رفيعة عند الملك الفارسي يزدجرد، حتى أنه "شرفه وأكرمه"، وملكه على العرب" وأمر له بصلة وكسوة بقدر استحقاقه لذلك في منزلته، وقد فوض يزدجرد المنذر بحكم جميع العرب<sup>(٢)</sup>.

لقد كان للمنذر دور مهم في الحرب التي وقعت بين الروم والفرس بعد مدة قصيرة من تولي بهرام جور، ابن يزدجرد، العرش وكانت مشاركته بطلب من بهرام جور، الذي أراد أن يستعين بالمنذر ليخفف ضغط الروم عليه، وفعلاً شاركت جيوش المنذر في هذه الحملة، إلا أنها أصيبت بكارثة اضطرتها للتراجع

---

(١) جواد علي، ج ٤ ص ٣٨.

(٢) المصدر السابق، ج ٤ ص ٤٤.

والعودة إلى الحيرة، فقد غرق منهم خلق كثير في أثناء عبورهم نهر الفرات، وقد جرت هذه المعارك حوالي سنة ٢١٤م، وفي السنة التالية تجددت المعارك أيضاً بين الفرس والروم، وشارك فيها المنذر أيضاً، ولكن كان نصيبه فيها كنصيبه في العام الفائت.

حكم مملكة الحيرة بعد المنذر ابنه الأسود، وكان يعاصر من ملوك فارس فiroz بن يزدجرد، وبلاش بن فiroz وقباذ بن فiroz، وهناك من يقدر مدة حكم الأسود بعشرين عاماً (٤٧١-٤٩١م). وقد وقعت بين الأسود والغساسنة حروب كان النصر فيها له، حتى أنه أسر عدداً من ملوكهم، كما أنه غزا بني ذبيان وبني أسد وأوقع فيهم، ولسنا نعرف الشيء الكثير عن نهايته سوى ما يذكره الطبرى من أنه ظل أسيراً في فارس لمدة عشرين سنة<sup>(١)</sup>.

وتتالى بعد ذلك عند المؤرخين أسماء الملوك اللخميين من بينهم المنذر بن المنذر (٤٩٨-٤٩١م) والنعمان بن الأسود (٤٩٨-٥٠٢م) وأبو يعفر بن علقة الذمي (٥٠٥-٥٠٢م) وامرئ القيس الثالث بن النعمان (٥١٢-٥٠٥م)، وليس هناك من التفصيات ما يستحق الذكر عن هؤلاء الملوك، حتى تحل ولاية المنذر بن ماء السماء.

يعرف المنذر بن امرئ القيس (٥١٢-٥٥٤م) عند الأخباريين بالمنذر بن ماء السماء، كما يعرف أيضاً بذى القرنين، وماء السماء هو لقب أمه مارية بنت عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة بن زيد مناة بن عامر الضحيات بن الخزرج

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٩٠.

بن تيم الله ابن النمر بن قاسط، وقد سميت بماء السماء لجمالها وسبب تسميتها  
بذى القرنين فيرجع إلى ظفيرتين برأسه من شعره.

كان المنذر بن ماء السماء محارباً شجاعاً، قضى مدة حكمه في غزو  
بلاد الروم والإغارة على بعض القبائل العربية، ففي سنة ٥١٩ م أغار على بلاد  
الروم، وتمكن في بعض حروبه من أسر قائدين هما ديموستراتوس ويونينا،  
 فأرسل إليه الإمبراطور البيزنطي جستين وفداً من إبراهام وشمعون الأرشامي  
وسرجيوس أسقف الرصافة سنة ٤٥٢ م للمفاوضة في إطلاق سراح القائدين  
المذكورين، وفي سنة ٥٢٨ م هاجم المنذر بلاد الروم مؤيداً الفرس، وتغل في  
بلاد الشام، وغنم غنائم كثيرة، ثم عاود غزوه لبلاد الشام في العام التالي، وتقدم  
حتى بلغ حدود انطاكية، ولم تقطع المناوشات بين المنذر وبين الحارث الجفني  
بسبب تنازعهما على الأنواة التي كانت تجبى من عرب منطقة تدمر، ولم تنته  
هذه الحروب إلا بمصرع المنذر بن امرئ القيس في موقعة حليمة أو موقعة  
خيار سنة ٥٥٤ م<sup>(١)</sup>.

ويروي الأخباريون أن المنذر بن ماء السماء هو صاحب الغرائب الذين  
بنياها بظاهر الحيرة، والسبب في ذلك كما يقول الأخباريون أنه كان له نيمان  
من بني أسد شرياً مرة فتملا فراجعاً في بعض كلامه فأمر وهو سكران أن  
بحفر لها حفريتين في ظهر ظهر الكوفة ودفنهما حين، فلما أصبح استدعاهما،  
نأخبر بالذى أمضاه فيهمان فغمى ذلك، وقصد حفريتهما، وأمر بناء طربالين  
عليهما وهما صومعتان، فقال المنذر: ما أنا بملك إن خالف الناس أمري، لا يمر

---

(١) جواد علي، ج ٤، ص ٥٣.

أحد من وفود العرب إلا من بينهما، وجعل لهما يوم في السنة يوم بؤس ويوم نعيم، يذبح في يوم بؤسه كل من يلقاء ويغري بدمه الطربالين، ويحسن في يوم نعيمه إلى كل من يلقى من الناس ويحملهم ويخلع عليهم.

وفي أيام المنذر، وقع الاحتلال الحبشي لليمن، الذي تحدثنا عنه سابقاً، فاتسع بذلك نفوذ الروم في بلاد العرب، وذلك لما بين الأحباش والروم من تحالفات ومصالح، فضلاً عن تدينهما بدين واحد، وفي سنة ٤٥٤ م وقعت فارس وبيزنطة هدنة جديدة مدتها خمس سنوات، ولكن هذه الهدنة لم تؤد إلى توقف المناوشات بين الحارث بن جبلة والمنذر بن ماء السماء، على أن الدولتين الكبيرتين، لم تتدخلا في هذه المنازعات المحلية تدخلاً مباشراً، وتمكن المنذر في إحدى المرات من أسر ابن الحارث فقدمه للإله العزى، وكان رد الحارث على هذا الحادث أن جمع قوات كبيرة واشتباك مع المنذر في حرب طاحنة كان النصر فيها له وأسفرت عن أسر ولدين من أولاد المنذر وقتل عدد كبير من جنوده وفراره ناجياً بنفسه<sup>(١)</sup>.

خلف المنذر بن ماء السماء على ملك الحيرة بعد وفاته ابنه عمرو بن هند (٤٥-٤٧٤ م) وقد لقب عمرو بنت هند نسبة إلى أمها هند بنت عمرو بن حجر آكل المرار الكندي، فهو كندي من جهة أمها، ويعرف عمرو أيضاً بعمرو مضطط الحجارة إشارة إلى قوته وشدة بأسه، ويدرك الأخباريون أن عمرو قضى حياته يحارب العرب والروم، ويدركون أنه غزا تميماً في دارها فقتل منبني دارم ١٥ شخصاً في يوم أوارة الثاني، وذكروا أنه ألقى بالقتل في النار ولهذا

---

(١) جواد علي، ج ٤، ص ٥٤.

لقب أيضاً بالمحرق. وفي سنة ٥٦٣ م أغار عمرو بن هند على بلاد الشام، وكان يحكم العرب هناك الحارث بن جبلة الغساني، ثم عهد إلى أخيه قابوس بمواصلة غزو ديار الغساسنة في عامي ٥٦٦ و ٥٦٧ م لتأديب الروم الذين أساءوا إلى رسوله في القسطنطينية لمحاوضة القيصر على دفع الأتاوة، ونسبت إلى عمرو جملة غزوات منها غزوه لتغلب، وغزوه لطبي.

ولعمرو بن هند شهرة وأخبار مطولة في كتب الأدب، ولأكثر الشعراء الجاهليين خبر عنه، فقد كانوا يقدون إليه من مختلف أصناف الجزيرة العربية وينشدونه الشعر وينالون أعطياته وهداياته، ويدعى بعض الأخباريين أن عمرو هذا هو الذي توسط بين بكر وتغلب وأصلاح بينهما بعد حرب البسوس، ويدذكر المؤرخون أن عمرو بن المنذر قتل على يدي عمرو بن كلثوم، وكان سبب قتله غروره البالغ، فقد قال لجليسائه يوماً: "هل تعلمون أن أحداً من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمه أمي؟ قالوا: ما نعرفه إلا أن يكون عمرو بن كلثوم التغلبي، فإنه أمه ليلي بنت مهلهل بن ربيعة، وعمها كلبي وائل، وزوجها كلثوم، وأبنها عمرو، فسكت مضرط الحجارة على ما في نفسه، وبعث إلى عمرو بن كلثوم يستزيده ويأمره أن تزور أمه ليلي أم نفسه هند بنت الحارث، فقدم عمرو بن كلثوم في فرسان بني تغلب ومعه أمه ليلي، فنزل على شاطئ الفرات، وبلغ عمرو بن هند قدومه، فأمر فضربت خيامه بين الhire والfrat، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فصنع لهم طعاماً، ثم دعا الناس إليه، فقرب إليهم الطعام على باب السراوق، وليلي أم عمرو بن كلثوم معها في القبة، وقد قال مضرط الحجارة لأمه: إذ فرغ الناس من الطعام ولم يبق إلا الطرف فتحي خدمك عنك، فإذا دنا الطرف فاستخدمي ليلي ومريها فلتتاولك الشيء بعد الشيء، ففعلت هند ما أمرها

به ابنها، فلما استدعي الطرف، فقالت هند لليلى: ناوليني ذلك الطبق، قالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها. فألحت عليها، فقالت ليلى، وأذلاه يا آل تغلب، فسمعها ولدها عمر بن كلثوم، فثار الدم في وجهه والقوم يشربون، فعرف عمرو بن هند الشر في وجهه، وهرع ابن كلثوم إلى سيف ابن هند وهو معلق في السرادق، وليس هناك سيف غيره، فأخذه، ثم ضرب به رأس مضطط الحجارة فقتله، وخرج، فنادى يا آل تغلب، فانتهوا ماله وخيله، وسبوا النساء وساروا فلحقوا بالحيرة. وإلى هذا تشير معلقة عمر بن كلثوم الشهيرة والتي مطلعها: "ألا هبّي بصحنك فاصبحينا.....".<sup>(١)</sup>

- خلف قابوس بن المنذر أخاه عمرو بن هند على ملك الحيرة (٥٧٤-٥٧٨) وكان أثيراً لدى أخيه الملك، حيث كان يعهد إليه بإدارة بعض شؤون الدولة، وقيادة بعض الجيوش وغير ذلك من جلائل الأعمال، وكانت مدة حكمه أربع سنين، وقد قام قابوس بعدة غارات على بلاد الشام التي كانت تحت حكم المنذر بن الحارث بن جبلة آنذاك، وقد استغل قابوس في هجومه هذا فرصة وفاة الحارث بن جبلة، فأراد أن يفاجئ ابنه المنذر قبل أن يأخذ استعداداته، ولكن المنذر بن الحارث جمع جموعه ورد على هجوم قابوس بهجوم معاكس لم يتمكن قابوس من الثبات له، وفر من ساحة المعركة باتجاه نهر الفرات تاركاً وراءه عدداً كبيرة من القتلى من أمراء المناذرة، ولكن المنذر الغساني لم يقتصر، على ما يبدو، بهزيمة المناذرة بل تعقبهم حتى وصل إلى مشارف الحيرة، وهذه المعركة هي معركة "عين أباغ" بحسب رأي نولدكة، وقد حاول قابوس بعد مدة قصيرة

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٣٣١.

من هذا الهجوم أن يرد بغارة على خصومه الغساسنة ولكن محاولته هذه باءت بالفشل أيضاً<sup>(١)</sup>.

يبدو أن نفس قابوس ظلت توافة للانتقام من الغساسنة، فاغتنتم فرصة الخلاف الذي وقع بين الملك الغساني، المنذر وبين الامبراطور البيزنطي حوسين الثاني، فجدد غاراته على حدود الروم في بلاد الشام وتوغل فيها حتى استطاع أن يصل إلى حدود أنطاكية. واستمرت غارات عرب العراق على حدود الروم في الشام مدة ثلاثة سنوات، أي خلال القطيعة التي قامت بين المنذر بن الحارث والبيزنطيين والتي كان خلالها المنذر بعيداً عن حاضرة ملكه مقيناً في الصحراء، ولما تم الصلح بين المنذر وبيزنطة عادت جيوش الغساسنة إلى مهاجمة الحيرة.

تولى ملك الحيرة بعد قابوس المنذر بن المنذر، وقد حكم مدة أربع سنوات (٥٧٩-٥٨٣م) ولم يتميز حكمه بأي حدث كبير، وجاء من بعده ابنه النعمان بن المنذر الذي يعد من أشهر ملوك الحيرة<sup>(٢)</sup>.

كان النعمان (٥٨٣-٦٠٥م) أكبر أبناء المنذر من زوجته سلمى بنت وائل بن عطيه الصائغ من أهل فدك، ونسبها بعضهم إلى كلب، وذكر الطبرى أنها كانت أمّاً للحارث ابن حصن بن ضمضم بن عدي بن جناب بن كلب، ونستدل من هذا أن أم النعمان كانت من طبقة وضيعة لا تليق بأسرة الملوك، ولعلها من أصل يهودي، لأن معظم أهل فدك من اليهود، يضاف إلى ذلك أن

---

(١) جواد على ج ٤ ص ٨٣.

(٢) الطبرى ج ٢ ص ١٩٠.

جدها كان صائغاً، وهو أمر يزيد من احتمال كونها يهودية، لأن حرف الصياغة كانت من الحرف الرئيسية التي يحترفها اليهود. ويفهم هذا المعنى أيضاً من شعر لعمرو بن كلثوم يهجو فيه النعمان ابن المنذر أن حاله كان صائغاً ينفع الكبير ويصوغ القروط، ويعرف النعمان بن المنذر بأبي قابوس، وكان النعمان أحمر الوجه، أبراً، قصير القامة، دميم الخلقة بخلاف أخوته الآخرين الذين كان يقال لهم الأشاحب لجمالهم<sup>(١)</sup>.

كان جميع أبناء المنذر طامعين في الملك، حتى استعصى على أبيهم أن يختار واحداً من بعده، لذلك لم يصل النعمان إلى العرش بسهولة بعد وفاة أبيه، فقد نافسه الملك أخوته الثلاثة عشر، ولو لا الحيلة التي ابتدعها ودربه عليها عدي بن زيد العبادي<sup>(٢)</sup> لما صار إليه الملك. ولا نعلم عن أعمال النعمان شيئاً كثيراً يتتساب مع المدة الطويلة التي حكمها، عدا بعض الغارات على حدود بلاد الشام، ولا نسمع إلا ببعض أخباره التي لها صلة بالقبائل المجاورة، وقد امتد سلطان النعمان جنوباً إلى منطقة البحرين وغرباً إلى جبلي طي، وكانت قواقله التجارية تذهب إلى الحجاز، وقد أدى اتساع رقعة الأراضي التي حكمها إلى احتكاكه مع كثير من القبائل العربية، فاشتبك معبني يربوع ومعبني عامر، ولم يكن المنذر موفقاً في حروبها مع العرب إذ لم يكتب له النصر في حروبها معهم.

وقد فتح النعمان بن المنذر أبواب قصره لكتاب الشعراء، أمثال النابغة الذبياني والمنخل اليشكري والمتنبّع العبدى والأسود بن يعفر وحاتم الطائى، وعرف النعمان بأنه "صاحب النابغة" إذ كانت صلته به وثيقة للغاية، وقد جلبـت

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٩٤.

(٢) أنظر التفاصيل في المصدر نفسه ج ٤ ص ١٩٤-١٩٥.

هذه الصلة للنابغة البلاد وأثارت أحقاد خصومه، كما حضر مجلسه طرفه بن العبد، وفي شعر هؤلاء جميعاً ذكر للنعمان وروعة بلاطه واتساع سلطانه.

تحدث المصادر بأسباب عن موضوع العلاقة التي ساعت بين النعمان وكسرى وكانت سبباً في نهايته، وقد اختلف المؤرخون في أسبابها، فمنهم من يزعم أنها كانت بسبب سجن أبي قابوس لعدي بن زيد العبادي الذي كان سبب وصوله إلى الحكم والذي كان من المقربين إلى كسرى، وقتل إياه. وقد استغل ذلك خصوم النعمان وأوغرروا صدر كسرى عليه فقتله، ولكن الدنیوری ینفی هذا السبب مستنداً إلى نص رسالة من كسرى إلى ابنه توضح سبب قتل النعمان، يقول كسرى في نص رسالته إلى ابنه:

"... وأما ما زعمت من قتلي النعمان بن المنذر وإذ التي الملك عن آل عمرو بن عدي إلى إيس بن قيصة، فإن النعمان وأهل بيته واطئوا العرب، وأعلمونهم توكلهم (توقعهم) خروج الملك عنا إليهم، وقد كانت وقعت إليهم ذلك في كتب، فقتلته، ووليت الأمر أعزابيا لا يعقل من ذلك شيئاً"<sup>(١)</sup> واضح من هذه الرسالة أن الذي جعل كسرى يقتل النعمان ويشتت شمل أسرته وينزع الملك منها هو ميلها العربية ونزع عنها الاستقلالية، ولا سيما وأنه ثبت من هذه الأمور من كتب وصلت إلى حوزته.

وقد أكدت المصادر موقف النعمان المتحدي للدولة الساسانية، والذي كان يعبر عن تبلور وعي قومي عربي في تلك الحقبة، كما كان انعطافاً خطيراً في تاريخ العلاقات العربية - الساسانية التي شهدتها القرن السادس الميلاد، فقد تأك

---

(١) الدنیوری، الأخبار الطوال ص ١٠٩-١١٠.

للنعمان حقيقة مواقف الدولة السياسية المناهضة للعرب، في الوقت نفسه الذي كانت فيه قوة القبائل العربية في العراق في تعااظم مستمر، تجسد من خلال وحدتها ومقاومتها للهيمنة الفارسية، لذلك اختط النعمان لنفسه سياسة جديدة هي بالتأكيد لا تتسمg والمصالح السياسية.

فبعد أن لمس النعمان أن كسرى كان يحاول الاستخفاف بالعرب ويضمّر لهم شرًا للغدر بهم بعد لقاء جمعهما، أرسل إلى رؤساء القبائل العربية، واستقبلهم في قصره في الحيرة، وخطّبهم: "قد عرفتهم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها، وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور أو يكون أظهرها لأمر أراد أن يتذبذب به العرب خولاً كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله" وأخبرهم بما دار بينه وبين كسرى من حوار يشير الريبة ويدعو إلى الحذر، وكان النعمان قد أوصاهم عندما أشار إليهم بالتوجّه إلى كسرى لمقابلته: "... وإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه، ولا تخذلوا له انخذال الخاضع الذليل"، وعندما وصلوا المدائن واجتمعوا بكسرى وتحدث كل منهم بما كان عليه العرب من العز والإباء، وما يتمتعون به من الفصاحة والمنطق دهش كسرى وقال لمن حوله من الوزراء والمرازبة: "... ما خفت من العرب كخوفي قط منهم كالليوم وإنني لأحسب الأمر الذي كنا نتوكه من إفضاء الملك لهم قد دنا".<sup>(١)</sup>.

يعلق كستر على ذلك بقوله: "ينبغي أن يكون هناك شيء من الحقيقة في شكوك كسرى"<sup>(٢)</sup> هذه، ويبدو أن الخوف من العرب قد سيطر على تكير كسرى

(١) الدنوي، الأخبار الطوال، ص ١١٠.

(٢) كستر، الحيرة ومكة ص ٤٢.

وبدأت شكوكه من نوايا النعمان الاستقلالية تتحول إلى حقيقة، وربما انحصر تفكيره وتخطيطه بالأسلوب أو الصيغة التي يمكن بواسطتها أن يأمن جانب العرب لذلك نراه يسرع بالتخطيط للغدر بالنعمان بن المنذر وأخيه، وقد أوكل أمر الحيرة إلى إيس بن قبصية الذي لا يتزعم عصبية قبلية تهدد النفوذ الفارسي في العراق، وبذا حاول أن يبدد أحالم العراقيين بالاستقلال في أرضهم، فكانت تلك التطورات سبباً مباشرأً لقيام معركة "ذي قار" التي هزمت فيها قبائل ربيعة جيش كسرى وحققت انتصارها الباهر عليه.

## معركة ذي قار:

كانت معركة "ذي قار" تعد أول مواجهة بين العرب والفرس على أرض مكشوفة وتنستد أسباب نشوئها إلى تاريخ العلاقات بين الدول الساسانية ومملكة الحيرة، وهي العلاقات التي بلغت مرحلتها الأخيرة من التدهور، فقد تحدثت الروايات العربية أنه لما ساعت العلاقات بين كسرى والنعمان، كتب كسرى إلى النعمان يأمره بالقدوم إليه، فأدرك النعمان سوء المصير، فحمل سلاحه وما قوي عليه، ثم مضى لبني طيء لصهر كان له فيهم، وعرض عليهم أن يمنعوه، ولكنهم أبوا خوفاً من كسرى، فأخذ يطوف بقبائل العرب يطلب المنعة إلى أن نزل بذي قار في بني شيبان سراً، فلقي هاني بن مسعود بن عامر بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن شيبان، وكان سيداً منيعاً، فاستودعه سلاحه وأولاده، وهناك من يرى أن هاني بن مسعود هو الذي كان زعيماً لبني شيبان في هذه الحقبة، وهو الأرجح.

لقد حدث ما توقعه النعمان، فقد سجن ثم قتل بأمر من كسرى، ثم راح هذا الأخير يطالب بتركة النعمان، فأخبره إيس بن قبصية بأنها وديعة عند بكر

ابن وائل، فأمره كسرى بضمها إليه، فأرسل لإياس إلى هاني بن مسعود أو هاني ابن قبضة بن هاني بن مسعود يأمره برد ودائع النعمان من أموال ودروع وغيرها، وعدتها ثمانمائة درع، وقيل سبعة آلاف، فامتنع هاني وأبى أن يسلم ما استودعه النعمان، وبلغ الخبر كسرى فغضب، وهدد باستئصالبني بكر بن وائل، وقد جرت بين كسرى وبينبني بكر مفاوضات وعرض عليهم كسرى إحدى الشروط الآتية: الاستسلام لكسرى ويفعل بهم ما يشاء، أو الرحيل من ديارهم، أو الحرب<sup>(١)</sup>.

اجتمعت كلمةبني بكر على الحرب وعدم الاستسلام، فأرسل إليهم كسرى جيشاً من الفرس على رأسه الهرمز التستري المرزبان الأعظم لكسرى وكان يقود ألف فارس من العجم، وجلازيين في ألف فارس آخرين، وإياس بن قبيصة في كتيبتين، هذا فضلاً عن عدد آخر من الزعماء العرب الموالين لدولة الفرس، وأمر أن تكون قيادة الجيش العليا لإياس بن قبيصة، كما أرسل الفرس مع جيوشهم الفيلة، وجمع عرب العراق شتاتهم ورصفوا صفوفهم وشعروا أنها المعركة التي ستقرر مستقبل العرب ومصيرهم، فخاضوها أياماً، وخاضها إلى جانببني بكر وزعيمهم هاني، بنو عجل وبنو إياد، الذين في حلف مع الفرس، نقضوه وقاتلوا إلى جانب أبناء جلدتهم، وكذلك بنو شيبان وغيرهم من القبائل، وكان النصر في النهاية للعرب، وفي هذا النصر يقول الرسول محمد ﷺ "هذا أول يوم انتصاف العرب فيه من العجم وبه نصرولا" وقد سميت هذه المعركة بمعركة ذي قار نسبة إلى ماء لبكر بن وائل جنوب الكوفة<sup>(٢)</sup>.

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٩٣.

(٢) المسعودى ج ١ ص ٢٧٨، الطبرى ج ٢ ص ٢٠٦، ياقوت ج ٤ ص ١٩٣، مادة "قار".

أما تاريخ حدوث هذه المعركة فقد اختلف المؤرخون فيه، فمنهم من جعلها يوم ولادة الرسول ﷺ، أو بعد أن هاجر النبي إلى يثرب، وبعضهم يحدوها بعد وقعة بدر بأشهر، وبعضهم يجعلها عند منصرف الرسول من وقعة بدر، وأخرون يرون أنها حدثت لتمام أربعين سنة من مولد الرسول، وهو بمكة بعد أن بعث، وقد أدى الاختلاف في تاريخها من قبل الأخباريين، إلى تخطي المستشرقين والمورخين المحدثين كذلك، فهي قد حدثت عند بعضهم سنة ٦٠٤ م أو ٦١٠ م أو ٦١١ م، والمرجح أن تاريخها كان بين سنة ٦٠٨ م و ٦١٠ م<sup>(١)</sup>.

ومهما يكن من أمر، فإن لهذه المعركة أهمية كبيرة في التاريخ العربي والإسلامية، فهي أول معركة تنتصر فيها القبائل العربية على الجيش الفارسي، وقد منحهم هذا النصر ثقة كبيرة بأنفسهم، وتجزأ القبائل العربية الأخرى على رفض الهيمنة الفارسية وأخذت تهاجم قواتهم على أرض العراق بشكل منظم ومستمر، فكانت تلك الغارات بمثابة مقدمات لحركة الفتوح العربية الإسلامية، التي انطلقت مع الإسلام لتحتسب إمبراطورية الساسانيين وتقصي عليها إلى الأبد.

من نتائج معركة ذي قار قيام الفرس بإقصاء إياس بن قبيصة عن حكم الحيرة وتعيين حاكم فارسي يحكمها حكماً مباشراً هو آذاده بن ماهان (٦١٤-٦٣١ م)، وعلى الرغم من أنه حكم سبع عشرة سنة إلا أن المصادر لا تتحدث عنه بشيء، ويبدو أن سلطته اقتصرت على الحيرة فقط، ذلك أن بكر بن وائل منذ انتصارت في ذي قار أصبحت لا ترتبط بالدولة الساسانية بشيء، ويبدو أنها استقلت في منطقة البحرين، التي كانت تابعة لحكومة الحيرة في عصر المناذرة،

---

(١) أنظر : ياقوت الحموي ج ٤ ص ٢٩٤ ، المسعودي ج ١ ص ٢٧٨ ، جواد علي ج ٤ ص ١٠٤ .

مع استمرار وجود بكر الكثيف على أرض العراق، كما حذت بعض قبائل العرب الأخرى حذر بكر بن وائل في الاستقلال ورفض الهيمنة الفارسية عليها، بسبب انقطاع الحكم العربي عن مملكة الحيرة، وبسبب ضعف الدولة الساسانية وانشغالها بأزماتها ومشاكلها الداخلية<sup>(١)</sup>.

يبدو أن انقلاباً سياسياً حدث في الحيرة في السنة الأخيرة من حكم آذذبة الفارسي، فولى عرب الحيرة على أنفسهم ابناً للنعمان الأخير هو المنذر (المغرور)، فقد كانت العناصر العربية في الحيرة ما زالت تحتفظ بقوتها، وظهر منهم في العصر السابق مباشرة على الفتح العربي الإسلامي شخصيات عظمى مثل عبد المسيح بن عمر بن قيس بن بقيلة وغيره.

وقد استغل عرب الحيرة فرصة الفتن التي كانت تمزق الدولة الساسانية وعزلوا آذذبة وأقاموا المنذر المغرور، غير أن المنذر لم يلبث أن فزع عندما بلغه خروج جيوش المسلمين إلى العراق، ويبدو أنه عزله من الحيرة إما بايصال من كسرى أو نتيجة ثورة قام بها أهل الحيرة، فمضى إلى البحرين، فوصلها في الوقت الذي ارتد فيه أهلها من ربيعة وقيس بن ثعلبة، فأمروه عليهم، وزحف المنذر بمن أنضم معه من عرب ربيعة حتى نزل "جواثاً" حصن البحرين، وفيها هزم جيوش المسلمين بقيادة العلاء بن الحضرمي، فلجا المسلمون إلى الحصن، وحاصرهم، والحطم وهو شريح بن ضياعة بن عمرو بن مرثد من بني قيس بن ثعلبة، ولكن العلاء خرج من الحصن بعثة بمن معه من المسلمين واشتبك مع الحطم والمنذر في قتال عنيف انتهى بهزيمة الحطم ومقتله، ثم فر المنذر بمن

---

(١) الطبرى، ج ٢ ص ٢١٣.

معه من فلول ربيعة إلى موضع الخط، ولكن العلاء أدركه وقتل هناك، وقيل إن المنذر نجا فدخل إلى المشقر، ثم لحق بمسيلمة وقتل معه وقيل قتل في يوم جواثاً، وهكذا انتهت دولة المناذرة وزال آخر من حكم من أفرادها، أما الحيرة، فقد ظلت تنتظر مصيرها حتى وصلت طلائع الفتح العربي الإسلامي إلى غرب العراق بقيادة خالد بن الوليد، فتمكن من فتحها بعد مقاومة بسيطة، وفرض عليها مائة ألف درهم تدفعها كل عام للمسلمين، كما نصت شروط الصلح مع أهلها على أن يكونوا عيوناً للمسلمين على أهل فارس، وأن لا يهدم المسلمون لهم قصرأ ولا بيعة<sup>(١)</sup>.

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان ص ٣٤٥.

الفصل الرابع

الجهاز قبل الإسلام

**المبحث الأول: حواضر المجاز**

**المبحث الثاني: أحوال العرب العامة**

**المبحث الثالث: الحالة الدينية في المجاز قبيل  
الإسلام**

## المبحث الأول

### حواضر الحجاز

أولاً: مكة

يواجه الباحث في دراسته لتاريخ الحجاز القديم صعوبات جدية لسبعين:

الأول: أن الحجاز -بعكس الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة ومن أقسامها الشمالية- أمضى قرونا طويلة من حياته في القديم وهو في شبه عزلة عن العالم المتمدن، اللهم إلا بعض ما كان له من نشاط تجاري، فجذب الحجاز، وقساوة إقليمه، وصعوبة الوصول إليه، ووعورة مسالك، كانت كلها عوامل أبعدت الطامعين من قادة الدول الكبرى في التاريخ القديم من غزو هذه البقعة من الجزيرة العربية أو محاولة ضمها إلى إمبراطورياتهم، لهذا كله عاش الحجاز حياته الخاصة بعيداً عن أصوات السياسة العالمية والاحتكاك المباشر بالدول الكبرى آنذاك، لذلك خلت مؤلفات المؤرخين الأجانب القدامى عن أية تفاصيل مهمة عن هذا البلد.

الثاني: أن المعلومات عن تاريخ الحجاز القديم يكتفى الغموض، لأنها مسْنَقة، فيغلب الأحيان، مما كتبه المؤلفون العرب المسلمين الذين عاشوا في القرن الثاني من الهجرة/ الثامن للميلاد وما بعده، ولما كان هؤلاء يعيشون في ظلال الإسلام، فكان طبيعياً، أن تتأثر نظرتهم التاريخية بواقعهم المسلم، مما جعلهم ينظرون إلى تاريخ الحجاز القديم بعين امتلأت

بنور الإسلام، ومعطيات هذا الدين، وما ينجم عن ذلك من مواقف ومن قضايا ما قبل الإسلام وأحداثه على أساس مما يتوافق ومصلحة الدين الجديد ومعاييره وقيمه<sup>(١)</sup>.

ولمكّة وقع خاص في نفوس العرب خاصة، وال المسلمين عامة، فهي محطة أنظارهم ومهوى أفندتهم، إذ فيها أقدم مقدساتهم "الكمبة المشرفة" وفيها ولد وعاش نبينا محمد بن عبد الله ﷺ، ومنها انطلقت دعوته الكبرى في التوحيد، لذلك يصبح لزاماً على الباحث أن يتعرف على تاريخ هذه المدينة القديم، حتى يتعرف على المهد الذي درج عليه الإسلام وصاحبـه ﷺ حتى تتوضـح الأطر المختلفة التي انبـغت عنها الصور الإسلامية.

### التأسيس والجغرافيا:

ظهرت مكة إلى الوجود واحتـشتـرتـ في التاريخ القديم منذ عـهدـ سـيـدـناـ إـبرـاهـيمـ الـخـلـيلـ عـلـيـهـ السـلـامـ حينـ نـزـلـهـ هـوـ وـذـرـيـتـهـ، وأـحـدـثـ أـوـلـ بـنـاءـ فـيـهاـ هـوـ الـكـمـبـةـ الـمـشـرـفـةـ، الـتـيـ أـضـفـتـ عـلـىـ مـكـةـ صـفـةـ الـقـدـاسـةـ، ثـمـ صـارـتـ مـنـ أـبـرـزـ عـوـاـمـلـ اـزـدـهـارـهـ، وـأـرـتـقـاعـ شـائـنـهـ فـيـ التـارـيـخـ سـوـاءـ قـبـلـ الإـسـلـامـ أـوـ بـعـدـهـ.

وتتسـبـبـ الروـاـيـاتـ الـعـرـبـيـةـ تـأـسـيـسـ مـكـةـ إـلـىـ سـيـدـناـ إـبـرـاهـيمـ عـلـيـهـ السـلـامـ فـيـذـكـرـ الأـزـرـقـيـ "إـنـ اللهـ تـعـالـىـ لـمـ بـأـ لـإـبـرـاهـيمـ مـكـانـ الـبـيـتـ خـرـجـ إـلـيـهـ مـنـ الشـامـ وـخـرـجـ مـعـهـ إـسـمـاعـيلـ وـأـمـهـ هـاجـرـ، وـإـسـمـاعـيلـ طـفـلـ يـرـضـعـ، وـمـعـهـ جـبـرـيلـ يـدـلـهـ عـلـىـ مـوـضـعـ الـبـيـتـ وـمـعـالـمـ الـحـرـمـ...ـ حـتـىـ قـدـمـ مـكـةـ وـهـيـ إـذـ ذـاكـ عـضـاءـ مـنـ سـلـمـ وـسـمـرـ وـبـهـ نـاسـ يـقـالـ لـهـمـ الـعـمـالـيـقـ خـارـجـاـ مـنـ مـكـةـ فـيـماـ حـولـهـاـ وـالـبـيـتـ يـوـمـذـ رـبـوةـ

(١) نـبـيـهـ عـاقـلـ، مـرـجـعـ سـابـقـ صـ223ــ224ـ.

حراء... ثم انصرف إلى الشام وتركهما عند البيت الحرام، ومع أم إسماعيل شنة فيها ماء تشرب منها وتدر على ابنها وليس معها زاد... حتى فني ماء شنتها... فجاع ابنها فاشتد جوعه..." وكاد يموت الطفل جوعاً فأخذت الأم تنظر حولها باحثة عن يسعفها أو يعطيها ما ينقذ طفلها من الهالك جوعاً، وأخذت تنظر إلى الصفا والمروه وقالت لو مشيت بين هذين الجبلين تعللت حتى يموت الصبي ولا أراه، فمشت بينهما أم إسماعيل، سبع مرات، فخرج لها جبريل (عليه السلام) فتبعته حتى ضرب برجله مكان البير يعني زمزم ظهر ماء فوق الأرض حيث فحص جبريل...، فحاطته أم إسماعيل بتراب ترده خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بشنتها فاستقت وشربت ودرت على ابنها." وقد أصبح بئر زمزم أساساً للعمران في تلك المنطقة.

### أصل تسمية مكة:

اختلفت وجهات نظر الأخباريين في أصل تسمية مكة، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى: فمنهم من قال أنها سميت بهذا الاسم لأنها كانت تملк الجبارين من البشر أي أنها تذهب نحوهم<sup>(١)</sup>.

وقيل أيضاً إنما سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانوا يقولون لا يتم حجنا حتى نأتي مكان الكعبة فنتمك فيه، أي نصفر صغير الماء حول الكعبة، والماء هو نوع من أنواع الطيور كان يأوي إلى المنطقة، فقد كان العرب يصفرون ويصفقون في أثناء وجودهم بها، وهناك من يرى أن سبب هذه التسمية

---

(١) ياقوت الحموي، ج ٥، ص ١٨١، مادة مكة.

هو ازدحام الناس بها في مواسم الحج والتجارة، كما حاول بعض الإخباريين أن يجد

صلة بين اسمها وموقعها الجغرافي، فهي تقع بين جبلين مرتفعين عنها، وهي في هبطة بمنزل المكوك، وهناك تفسير لغوي على أساسه تكون مكة مشتقة من "أمتک" من قولهم أمتک الفصيل أخلف الناقة إذا جذب جميع ما فيها جذباً شديداً فلم يبق فيها شيئاً، ولما كانت مكة مكاناً مقدساً للعبادة، فقد امتك الناس أي جذبهم إليها من جميع المناطق، وهناك من يرجع تسميتها إلى قلة مياهها حيث يقال: سميت مكة من ملك الثدي، أي مصه لقلة الماء لأنهم كانوا يمتكونون ملك الثدي، أي مصه لقلة الماء لأنهم كانوا يمتكون الماء ويستخرجونه، أو أنها تمك الذنوب أي تذهب بذنوبهم كما يمك الفصيل ضرع أنه فلا يبقى فيه شيئاً<sup>(١)</sup>.

وقد ورد في القرآن الكريم اسم آخر لمكة، وهو "بكة"، قال تعالى: «إن أول بيت وضع للناس بـكـة مـبـارـكـة وهـدـى للـعـالـمـين»<sup>(٢)</sup>، فقيل إن بـكـة هي موضع البيت، بينما المقصود بمكة ما حول البيت، بينما قال آخرون إنما سميت بـكـة لأن أقدام الحجيج كانت تـبـلـكـ بعضها أمام البيت، ويرى الدكتور جواد علي أن اسم مكة وبـكـة واحد، وإنما جاء هذا الاختلاف بسبب لهجة بعض القبائل العربية التي تبدل الميم بـاء<sup>(٣)</sup>. وقال آخرون أن مكة ذو طوى وهو بطن الوادي وبـكـة موضع البيت، ومكة الحرم كلـه<sup>(٤)</sup>، وقد ورد في قوله تعالى: «وهو الذي كـفـأـيـدـيهـمـ»

(١) ياقوت الحموي، ج ٥، ص ١٨١ - ١٨٢.

(٢) آل عمران: ٩٦.

(٣) جواد علي، المفصل، ج ٤، ص ١٨١.

(٤) ياقوت الحموي، ج ٥، ص ١٨١.

عنكم وأيديكم بما تعلمون بصيراً<sup>(١)</sup>). وقد عرفت مكة أو بكرة بأسماء وألقاب عديدة، سواء التي أوردها الأخباريون أو التي ذكرت في القرآن الكريم، فهي كثيرة جداً نشير إلى أهميتها، فقد أطلق عليها اسم "النسامة" أو "النasseة"، و"الباسة" لأنها تبس أي تحطم الملحدين، وقيل تخرجهم، وسميت أيضاً بأم رحم وأم القرى، وقد وردت بهذا الاسم في قوله تعالى: ﴿لَتَذَرُ أُمَّ الْقَرَىٰ وَمِنْ حَوْلِهَا﴾<sup>(٢)</sup>، كما قيل أنها سميـت معاد والحاـطمة لأنـها تحـطم من استـخفـ بهاـ، وسمـيتـ الـبيـتـ العـتيـقـ لأنـها عـنقـ منـ الجـبـابـرةـ، وفي قولـهـ تعـالـيـ ذـكـرـ بـهـذاـ الـاسـمـ: ﴿وَلِيـطـوـفـواـ بـالـبـيـتـ العـتيـقـ﴾<sup>(٣)</sup>، وكذلكـ الـبـيـتـ المـحـرـمـ فيـ قولـهـ تعـالـيـ: ﴿إِنـاـ اـنـيـ أـسـكـنـتـ مـنـ ذـرـيـتـيـ بـوـادـ غـيرـ ذـيـ نـزـعـ عـنـ دـيـنـكـ الـحـرـمـ﴾<sup>(٤)</sup>. وسمـيتـ أـيـضاـ كـوـثـيـ نـسـبـةـ إـلـىـ بـقـعـةـ كـانـتـ مـنـزـلـ بـنـيـ عـبـدـ الدـارـ، فـضـلـاـ عـنـ أـسـمـاءـ أـخـرىـ عـدـيدـةـ مـنـهـاـ: الـحـرـمـ، وـصـلـاحـ وـالـعـرـشـ وـالـقـادـسـ لأنـهاـ تـقـدـسـ أـيـ تـطـهـرـ مـنـ الذـنـوبـ، كماـ سـمـيتـ أـيـضاـ الـبـلـدـ الـأـمـيـنـ فيـ قولـهـ تعـالـيـ: ﴿وَالـتـيـنـ وـالـرـيـتونـ وـطـوـرـ سـيـنـ وـهـذـاـ الـبـلـدـ الـأـمـيـنـ﴾<sup>(٥)</sup>. وـنـعـنـتـ بـالـبـلـدـ فـقـطـ فـيـ الآـيـةـ الـكـرـيمـةـ: ﴿لَاـ أـقـسـمـ بـهـذـاـ الـبـلـدـ، وـأـنـتـ حلـ بـهـذـاـ الـبـلـدـ﴾<sup>(٦)</sup> كماـ سـمـيـ الـكـعـبـةـ الـبـيـتـ الـحـرـامـ فيـ قولـهـ: ﴿جـعـلـ اللـهـ الـبـيـتـ الـحـرـامـ قـيـاماـ لـلـنـاسـ﴾<sup>(٧)</sup>. وكـلـ الـذـيـ يـمـكـنـ أنـ نـسـتـقـيـدـهـ مـنـ هـذـهـ التـسـمـيـاتـ جـمـيـعاـ الـتـيـ أـطـلـقـتـ عـلـىـ مـكـةـ أـنـاـ لـاـ نـسـتـبـعـ أـنـ يـكـونـ

(١) الفتح: ٢٤.

(٢) الأنعام: ٦٢.

(٣) الحج: ٢٧.

(٤) إبراهيم: ٣٩.

(٥) التين: ٣-١.

(٦) البلد: ٢-١.

(٧) المائدة: ٩٩.

هذه التسميات جمِيعاً التي أطلقَت على مكة أَننا لا نستبعد أن يكون اسم مكة كان يعرف باسم (مكرب) أي المقدس، ثم تحول إلى مكة التي أسسها إبراهيم لتكون مقاماً دينياً مقدساً للمسلمين.

### الموقـع:

تقع مكة في بطن وادٍ يُعرف ببطن مكة في قلب الحجاز في منخفض من الأرض تحيط به التلال، ويمتد وادي مكة من الشمال إلى الجنوب، فطولها من جهة الغرب ثمان وسبعين درجة، وعرضها ثلاثة وعشرون تحت نقطة السرطان في الإقليم الثاني<sup>(١)</sup>. وتشرف عليها الجبال من جميع النواحي دائرة حول الكعبة، وكانت المناطق المنخفضة نسبياً من ساحة مكة تسمى البطحاء، وكل ما نزل من عن الحرم يسمونه المسفلة وما ارتفع عنها يسمونه المعلاة، وتحيط بمكة جبال أشهرها جبل أبو قبيس وهو الجبل الأعظم ويقع إلى الجهة الشرقية من مكة ويشرف على المسجد الحرام. وجبل قعيقان، وجبل فاضح والمحصب، وجبل ثور والججون وسفر وحراء ويترتب وتفاحة والمطابخ والقلق، واشتهرت مكة بشعابها التي كانت مسرحاً لحوادث جرت في فجر الإسلام فإذا بها لجأ المسلمون الأوائل للتعبد عن أعين الوثنين من أهل مكة، كما أنها احتفظت بأسماء الكثير من القبائل التي أقامت بها ومنها: شعب الحجون، وشعب دار مال الله، وشعب البطاطين، وشعب قلق بن الزبيب، وشعب ابن عامر، وشعب الجور وشعب الجوف<sup>(٢)</sup>.

(١) ياقوت، ج ٥، ص ١٨١.

(٢) ابن الفقيه، ص ١٥. المقدسي، ص ٧١. ياقوت ج ٥، ص ١٨١.

لما كانت مكة تقع في وادٍ غير ذي زرع<sup>(١)</sup>، فهي إذن تقع في منطقة جافة قارية المناخ، إذ تشرف عليها جبال جرد تزيد من قسوة مناخها، خاصة في أثناء النهار إذ تصل في أغلب أيام الصيف إلى أكثر من خمس وأربعين درجة مئوية، وتهب عليها الرياح الساخنة ويبدو أن درجة الحرارة بفعل هذه الرياح ترتفع ارتفاعاً شديداً في الصيف، وقد كان هذا المناخ سبباً في انتشار الأوبئة والأمراض. وقيل أن مرض الجدري والحسبة تفشيا في مكة والمدينة في عام الفيل<sup>(٢)</sup>. وقد كان الوثنيون في مكة يعبدون المسلمين الأوائل بتعريفهم لحرارة الشمس إذا حميت الظهرة ما يدل على شدة ارتفاع الحرارة في مكة، وما يكاد ينتهي الصيف حتى يأتي الخريف، فتسقط فيه -أحياناً- الأمطار الغزيرة التي تكون خلال فترات قصيرة، فتسبب السيول والانجراف مما كان يشكل خطراً على سكان مكة وعلى الكعبة نفسها، وقد حدث ذات مرة أن نهمت الكعبة في عهد الجرميين إثر سيل جارف عم بقاع مكة، ثم أعادت جرهم بناء الكعبة وكذلك حدث سيل آخر في عهد خزاعة وقد عرف بسيل قارة وغطت المياه الكعبة، حتى دعا حكام مدينة مكة وضواحيها إلى القيام بعمل السدود في الأحياء المرتفعة بمكة، حتى تكون حاجزاً يحميها من السيول، وحرصاً منهم على سلامتها.

(١) إبراهيم: ٣٩.

(٢) ابن هشام، ق ١ ص ٥٦.

تعانى مكة من مشكلة شحة شرب فيها، مما دعا بعض الأخباريين إلى تفسير اسم مكة بأنه مشتق من "مك" أي امتص، لقلة مائها<sup>(١)</sup>. وكان الناس يعتمدون في شربهم على مياه الآبار بالدرجة الأساس، وأشهر تلك الآبار بئر زمزم، وهناك آداً أخرى قام بحفرها أصحاب البيوت، ولم تكن فيها مياه جارية أو عيون غزيرة، على ما نرى في أماكن أخرى مأهولة. وقد كان الناس يشربون من آبار خارجة من الحرم، ويستسقون من بئر كر آدم بالمناجر، وبئر خم، وكانت لبني مخزوم<sup>(٢)</sup>. كانوا يحملون مياه هذه الآبار في المزاد والقرب، ثم يسكنونها في حياض من آدم بناء الكعبة، فيرده الحاج، ولما انتشرت قريش وكثير سكانها، قلت عليهم المياه، واشتدت المؤنة في الماء، فحفرت بمكة العديد من الآبار، فقام مرة بن كعب بن لؤي بحفر بئر بالقرب من عرفات يقال "رم" كما حفر كلاب بن مرة بئر خم وبئر رم والجفر بظاهر مكة. ولما تولى قصي رئاسة قريش حفر بمكة بئراً يقال لها "العجول" كان يردها العرب عندما يقدمون إلى مكة فيسوقون منها ويتراجرون عليها، ومن قولهم:

نروى على العجلو ثم ننطلق  
إن قصيبا قد وفي وقد صدق  
قبل صدور الحاج من كل أفق  
بالشعب للناس درى مغتبق (٣)

<sup>١)</sup> اليعقوبي، كتاب البلدان، ص ٣١٤.

(٢) الأزرقى، ج ٢ ص ٦٤.

(٣) المصدر السابق: ج ٢ ص ٦٤.

كذلك حفر قصي بئرا عند الردم الأعلى ثم دثرت فنثلاها جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف وأحياها، وتوصلت جهود أبناء قصي في حفر المزيد من الآبار في مكة لضمان توافر الماء في مواسم الحج بشكل خاص.

### سكان مكة:

كانت مكة في القديم موطنًا للعرب العاربة من العمالة، وكان العمالة أول من سكنها، حيث استقروا في مكة وما حولها، وقد اتضح من خلال المصادر أن المنطقة كانت عامرة، فقد كان بها العمالة أو "جرهميين الوافدين ويعرفون بـ"قطورا" ورئيسهم هو السميدع بن هوثير بن لاوي بن قطورا، وقد كان ذلك قبل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام. ما يهمنا من الأمر أن جرهم أخذت تقد على مكة من اليمن، وسكنتها إلى جانب الجرميين القدامى أو العمالة من آل السميدع زعماء قطورا، وقد أصبح الحيان الرئيسيان من المدينة وهما المعلاة: ويقصد بها الأماكن المرتفعة عند سفح جبل قعيقان لجرهم، والمسفلة أو الأبطح: ويقصد بها المواقع المنخفضة من المدينة للعمالة، وقد كان الوافدون الجدد وعلى رأسهم المضاض بن عمرو في المعلاة يفرضون الأتاوة على من دخل مكة من حيهم، وآل السميدع يجمعون الضريبة من يمر بحيهم بالمسفلة، ولذلك فإن التعايش السلمي بين الجماعتين لم يدم طويلاً، فقد نشب حرب بين الفريقين انتهت بانتصار آل المضاض بن عمرو ومقتل السميدع، وبذلك صارت مكة مملكة لجرهم الثانية، ونتيجة لهذه الحرب ترجع تسمية أشهر جبلين في مكة،

وهما قعيقان وأجياد، فالأول نسبة إلى قعقة السلاح، والثاني نسبة إلى الجواد بالدم في هذه الحرب<sup>(١)</sup>.

ولما أسكن إبراهيم عليه السلام ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر، وكان موضع المكان ربوة حمراء، ثم انصرف إلى الشام وتركهما هناك وقد أمر هاجر أن تتخذ عليه سكناً لهما. وقد ذكرنا سابقاً ما ذكره الأخباريون من روایات حول قصة حفر بئر زمزم، وما كابدته أم إسماعيل من عناء بسبب العطش حتى انبثق الماء من زمزم وارتوت هاجر وابنها وأقامت حوضها حول الماء حتى لا يسيل، وقد عرف هذا المنشب بئر زمزم، وقد مر ركب من قبيلة جرهم كانوا راجعين من بلاد الشام، وكانتوا قد رأوا الطير تحوم حول موضوع الماء، فتيقنوا أن في هذا الموضع أناساً يسكنونه، فحولوا طريقهم إلى المكان الذي رأوا فيه وجود الماء، فوجدوا هاجر وابنها إسماعيل، فاستأنفوا في النزول والاستراحة والشرب من البئر فأذنت لهم بالنزول وقضاء بعض الوقت، فأعجب الركب بالمكان واستأنفوا من هاجر أن تأذن لهم بالإقامة معها فيه، فسمحت لهم بذلك، فأرسل الركب رسولاً إلى أهلיהם يستقدمونهم إليهم، وبذلك استقروا مع إسماعيل وهاجر وترعرع إسماعيل بينهم وتزوج من بناتها<sup>(٢)</sup>.

لقد أصبح بئر زمزم أساساً لل عمران بتلك المنطقة، وغير بعيد من هذا البئر كان هناك مكان فيه عمران قليل، وكان هذا المكان يسمى مكة، وبحكم وجود مكة في منتصف الطريق بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها صارت مكاناً مناسباً لاستراحة القوافل، كما كان البدو يحطون بها رحالهم مدة قصيرة في

(١) ابن هشام، ق ١، ص ١١٣-١١٣.

(٢) أنظر الأزرقي، ج ١، ص ٤٤-٤٤.

أثناء تجوالهم في الجزيرة، وكان انتباق بئر زمم خيراً وبركة على المنطقة، فقد اتسع عمرانها وامتد حتى وصل البئر أو كاد، كما كثُر زوارها الذين أخذوا يتوافدون للتبrik بماء زمم ولرؤيه إسماعيل الذي انبثق الماء تكريماً له.

وبعد زمن جاء سيدنا إبراهيم من الشام لزيارة ابنه إسماعيل وزوجته هاجر، وهي الزيارة الثانية له إلى مكة، وقد رأى المكانة التي يحظى بها ابنه بين سكان مكة الجرميين الذين استمروا يتواوفدون من اليمن على المنطقة، وما أخذ إسماعيل بلسانهم العربي، فأمر ابنه أن يتزوج منهم، وقد خطب له زعلة ابنته المضاض بن عمرو، زعيم الجرميين فزوجها له، وقد ولدت له اثني عشر ولداً ومنهم نشر الله العرب.

ويوضح لنا القرآن الكريم بأن الله قد أمر سيدنا إبراهيم ببناء الكعبة، وساعده في البناء ابنه إسماعيل حيث كان يأتي بالحجر من الجبال القريبة، وقد ذكر ذلك في القرآن في قوله تعالى: «وَإِذْرِفْ إِبْرَاهِيمَ التَّوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ مِنْ بَلْ مَا إِنْكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»<sup>(١)</sup>. ولما انتهيا من بناء الكعبة ودعاه سيدنا إبراهيم ربها مناجياً له بأن يجعل أفئدة الناس تهوى إلى هذا المكان، ويبيسط الرزق على أهله، قائلاً كما ورد في الآيات الكريمة من سورة إبراهيم «... مِنْ بَلْ لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئَدَةَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لِعَلَهُمْ يَشْكُرُونَ، مِنْ بَلْ إِنْكَ تَعْلَمُ مَا يَخْفِي وَمَا يَعْلَمُ وَمَا يَخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ»، وقد استجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام ويتبين لنا ذلك من خلال الآيات الآتية: «وَإِذَا بَوَأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا

تشرك بي شيئاً وطهر بي للطائفين والقائمين والرّكع السجود . وأذن للناس بالحج يأتوك  
مرجلاً وعلى كل ضامر يأتي من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويدركوا اسم  
الله في أيام معلومات على ما سرّ قهم من بهيمة الأئمّة<sup>(١)</sup> .

وقد أرسل الله سبحانه وتعالى جبريل يعلم سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل  
كيفية الطواف حول البيت والسعى بين جبلي الصفا والمروءة، وبقية مناسك الحج  
ثم أمرهما بأداء الصلاة، وبالمناداة على الناس إلى أداء مناسك الحج، فاستجابت  
أفواج كثيرة حاجين ملبيين النداء من مختلف المناطق، وتولى إسماعيل وأولاده  
خدمة هؤلاء الوافدين حتى وفاه الأجل . وتولى بعده الحارث بن مضاض  
الجرهمي وهو أول من ولى البيت، واشترك معه أبناء إسماعيل في أثناء أداء  
الشعائر بها.

ولما طالت ولاية جرهم بعثت وظلمت وفسقت في الحرم ولم يتوقفوا عن  
أعمالهم السيئة، وقد استمروا في طغيانهم، وفي ذلك الوقت كانت هناك قبائل  
يمنية من الأزد تزحف نحو الشمال على أثر ما أصابهم من خراب ودمار بعد  
انهيار سد مأرب وحدوث السيل العرم، وقد توقفت إحدى هذه القبائل التي تعرف  
بخزاعة في مكة، ونزلوا بظاهرها ولكن جرهم رفضت أن تسمح لها بالإقامة  
معها في مكة، وقد حدثت بينهما حرب انتصرت فيها خزاعة، وأصبحت سيدة  
مكة لخزاعة . ولكن مكة أصابتها الحمى آنذاك فرحل ثعلبة بن عمرو، زعيم  
خزاعة إلى الشام، وآلت ولاية مكة وحجابة الكعبة إلى ابن أخيه عمرو بن لحي،  
وقد أكدت المصادر على مكانة عمرو بن لحي بين العرب إلا أن قوله أصبح دينا

---

(١) الحج: ٢٨ .

لا يخالف، وأنه كان أول من أطعم الحجاج بمكة لحوم الإبل، كما أنه أول من غير دين إبراهيم ونصب الأصنام حول الكعبة -كما سنبين ذلك في نهاية هذا الفصل- وقد استمرت خزاعة في ولادة البيت نحو ثلاثة سنّة وكان آخر من ولّى من خزاعة خليل بن حشيشة بن سلول الذي جعل ولادة البيت إلى ابنته حبي، فقالت أنها لا تقدر على فتح الباب وإغلاقه، فجعل أبوها شأن الفتح والإغلاق إلى رجل من خزاعة يقوم لها واسمها "أبو غبشان" فكانت له سدانة الكعبة قبل قريش، وتذكر أغلب المصادر أنه اجتمع مع قصي في شرب بالطائف فأسكنه قصي ثم اشتري مفاتيح البيت الحرام منه، وكان ذلك بزق خمر، وقد أشهد عليه ودفع المفاتيح إلى ابنه عبد الدار وطيره إلى مكة، فلما أفاق "أبو غبشان" ندم على البيع وقيل أنه قد ضرب به المثل في الحمق والندم فقالوا: "أخسر من صفة أبي غبشان" وقد نشب حرب بين خزاعة وقريش واستجد قصي ببعض أخوته لأمه منبني عذر في الشمال، واستمرت الحرب بين الطرفين حتى تداعى القوم للصلح، وقد حكم بينهما نفر من كنانة، فقضى لقصي بولادة الكعبة، وبذلك انتصرت قريش وزال حكم خزاعة عن مكة، وأل أمر البيت ومكة إلى قريش ورثة إسماعيل الحقيقين<sup>(١)</sup>.

### قبيلة قريش:

كانت قريش تسكن مكة، ولكنهم لما كثروا وقلت المياه فيها تفرقوا في الشعاب، وقد كان كلاب بن مرة من ساداتها، وقد تزوج من فاطمة بنت سعد فولدت له عدداً من الأولاد ومن بينهم قصي، وعندما توفي والده، تزوجت أمه

(١) الحلي، الشافعي، السيرة الحلبية، ج ١ ص ٩.

من ربيعة بن حرام العذري، وحملت قصيأً معها إلى دياربني عذرة، حيث أقامت مع زوجها، وبذلك نشأ قصي في دياربني عذرة، وعندما بلغ مبلغ الرجولة وعرف أصله الحقيقي عاد إلى مكة، حيث نفوذ الخزاعيين فيها وملوكهم خليل بن حبشه، فتزوج قصي من حبي ابنة ليل وكان يأمل أن يرث امتيازاته، وكان خليل قبل موته قد جعل مفاتيح الكعبة لأبي غسان وبدأ قصي برمي شباكه حول أبي غسان، فأسكنه واسترئ منه مفاتيح الكعبة بزق خمر كما بينا سابقاً. وبذلك انتزع قصي ولاية البيت من خزاعة، بعد أن حكمتها لمدة ثلاثة قرون، وإلى قصي يرجع الفضل في جمع أفراد قريش المبعثرين في نواحي متعددة من وادي مكة، وترتيبها على منازلها بمكة، وقد جعل لكل بطن حياً خاصاً به على مقربة من الكعبة، وقد كان الناس من قبل لا يجرؤون على البناء بجوار الكعبة مبالغة في تقديسها، وقد أمر قصي الناس ببناء بيوتهم على مقربة من البيت وكانت حجة قصي أن البناء قرب البيت حماية له، على أن يتبعه بالصيانة، ويدفعوا عنه الخطر، ولم يترك بين الكعبة والبيوت التي بنتها قريش إلا بمقدار يسمح بالطواف حولها<sup>(١)</sup>.

لقد ميز قصي بين قريش البطاح وقريش الظواهر فقسمها إلى قسمين: قريش البطاح هم البطون التي كانت تسكن مكة نفسها، وقد كان منهم الأثرياء والتجار، وهم بنو عبد مناف وبنو عبد الدار وبنو عبد العزى وبنو زهرة، وبنو مخزوم وبنو تيم مرة، وبنو عدي، وبنو عتيك بن عامر.

---

(١) ياقوت الحموي، ج٥، ص١٨٦.

أما قريش الظواهر فقد سكنا خارج مكة، ومنهم بنو محارب، والحارث ابن فهر، وبنو هصيص بن عامر بن لؤي<sup>(١)</sup>، وبهذا التنظيم استطاع قصي أن يوحد بطون قريش ويجمع كلمتهم وحاز شرف قريش كلها وتمكن من السيادة على مكة.

ويوصلنا الحديث عن "قريش" إلى مناقشة الآراء التي قيلت في أصل هذه التسمية، إذ هناك من يقول أنه نسبة إلى قريش بن النظر بن كنانة بن فهر بن مالك بن النظر، غير أن كثيراً من المؤرخين يرون تفسيرات أخرى لهذا الاسم فمنهم من يرى أن قريشاً تصغير قرش وهو الحوت الكبير المفترس، وهذا تفسير مقبول عند القبائل العدنانية التي عاشت على سواحل تهامة، وكذلك بالنسبة لأهل مكة والمدينة الذي كانت لهم موانئ على السواحل القريبة من البحر الأحمر، كما كانت لهم هناك بيوت عبادة، وسمك القرش المفترس معروف في البحر الأحمر<sup>(٢)</sup>، بينما يرى آخرون أن الاسم مشتق من التقرش، بمعنى التجارة، وهذا الأمر مقبول نظراً لاشتهر قريش في ميدان التجارة، في حين يذكر الطبرى أن قريش من التقرش بمعنى التجمع<sup>(٣)</sup>، والمقصود هو تجمع القبائل القرشية داخل مكة واستقرارها بعد أن كانت تحيا حياة بدوية في أطرافها أو ظواهرها، وأصحاب هذا الرأي يرون أن الذي قصد باسم قريش هو قصي الذي عرف عن المؤرخين باسم مجمع، لأنه هو الذي جمع القبائل، كما يروي بعضهم أن الذي

---

(١) المسعودي، ج ٢، ص ٢٧.

(٢) ابن هشام، ق ٢، ص ٩٣.

(٣) الطبرى، ج ٢، ص ٢٦٣-٢٦٥.

يسمى بقريش هو فهر الذي تتنسب إليه البطون القرشية أو النظر وهو جد القبيلة الأكبر، والأولى باللقب<sup>(١)</sup>.

ومهما يكن من أمر، فإن قصي بن كلاب كان أول بان ل Mage قريش، وموطده لنفوذها بعد أن استخلص أمر مكة وشؤون البيت من جرهم وخزاعه وأسكن القرشيين حول الحرم وجمع قبائلهم وملكه قومه عليهم، فنظم شؤونهم. وقد كان تنظيمه قليلاً في جوهره، يتكيف تكيفاً خاصاً بحسب ظروف الاستقرار، وبحسب علاقات قريش التجارية الواسعة، واتصالها بالعالم المتحضر.

#### التنظيمات الإدارية في مكة:

ينسب الأخباريون بدايات التنظيم الإداري في مكة إلى قصي عندما ابتدى لنفسه داراً جعل بابها إلى الكعبة، وجعل منها مجلس شورى لقريش، ودار حكومة لها سماها دار الندوة، حيث كان يدار فيها تحت رئاسته كل أمر قريش، وفيها يجتمع قصي بوجهاء البطون ويتشاور معهم في الأمور العامة، وقد سميت بـ"دار الندوة" لأن القوم إذا حز بهم أمر ندوا إليها، فما كان لرجل ولا امرأة الزواج إلا فيها، وما كان لفتاة من قريش أن تدرع إلا فيها، ومن ثم فقد كان صاحب الدار أن يشتغل ببعضها بيده، وقد كان القوم يفعلون ذلك ببناتهم إذا بلغن الحلم، وقد كان الغرض من ذلك التعريف بالبالغين من قريش إناثاً كانوا أم ذكوراً<sup>(٢)</sup>. ولم يكن هناك من أمر يهم قريشاً إلا ويحل فيها، ففيها كان يعقد لواء الحرب إذا قدمت قريش على حرب، وفيها يتم تجهيز القوافل التي تستعد للرحيل،

(١) جواد علي، المفصل، ج ٤، ص ٢٤-١٨.

(٢) الحبي الشافعي، ج ١، ص ٨.

وفي فنائها تحط عند عودتها محملة بالبضائع، وفيها يعذرون غلمانهم "يختونهم" وهكذا كانت دار الندوة بمثابة دار مشورة ودار حكومة في آن واحد، يديرها "الملا" من القوم، أصحاب الرأي والحكمة منهم للنظر فيما يعترض القوم من صعاب وكان لا يسمح بدخول هذه الدار إلا لمن بلغ عمره الأربعين سنة، إلا إذا كان من سلالة قصي، وبذلك نظم قصي أمور مكة الداخلية والخارجية وهو الذي رتب بوظائف الكعبة، وحدد مدلولاتها وهذه الوظائف هي:

- السقاية: وهي جمع الماء من آبار مكة المختلفة، وحمله على الإبل في المزاود والترب وسکبه في حياض من أدم توضع في فناء الكعبة، فيرده الحاج ويستقون منه.

- الرفادة: وهي تقديم الطعام لغير القادرين من الحجاج، ويقول الطبرى الرفادة: هي خرج تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي بن كلاب، فيضع به طعاماً للحجاج يأكله من لم تكن له سعة ولا زاد من يحضر الموسم<sup>(١)</sup>.

- اللواء: وهو الدعوة إلى الحرب برفع راية فوق رمح ويتبعها قادة الجيوش، وليس لهذه الوظيفة صيغة دينية، بل تتعلق بشؤون الحرب فقط، وفي العادة يدافع أفراد القبيلة عن هذه الراية حتى الموت.

- الحجابة: القائم بهذه الوظيفة يمتلك مفاتيح الكعبة، فهو الذي يأذن للناس بالدخول إليها ولا تقام شعائر دينية إلا بإذنه، وليس هناك من دليل على أنه كان يفترض فيمن يقوم بهذه الوظيفة أن يكون عالماً بالشؤون الدينية أو لـه

---

(١) الطبرى، ج ١، ص ٣٦٠.

صفة الكهانة، وقد أخذ قصي الحجابة من خزاعة وسلمها من بعده لابنه عبد الدار ومن بعده لأبنائه.

وهناك وظائف أخرى لا تغيرها المصادر اهتماماً كبيراً، على الرغم من أنها أيضاً من مظاهر السيادة في مكة وتعلق بالبيت الحرام وتنظيم العبادة فيه، وهاتان الوظيفتان هما:

#### ١ - التسيير:

هذه الوظيفة لها علاقة بالأمن والاستقرار، الذي بدونهما لا تزدهر التجارة ولا تنتطور، فهي إذن ذات صفة دينية ولها أهداف اقتصادية، فهذه الوظيفة تتعلق بتحديد الأشهر الحرم الأربع التي يحرم فيها الحرب والقتال ويسود السلم والأمن، لما لهذا الأمان من أهمية في انتقال القبائل من أماكن سكناها إلى مكة لأداء مناسك الحج. والأشهر الحرم عند قريش هي: ذو القعدة، ذو الحجة، المحرم وصفر. وكان شهر الحرم هو شهر الحج، وشهر صفر هو شهر العمرة. ويدرك القرآن الكريم الأشهر الحرم في قوله تعالى: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ إِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ حَرَمٍ»<sup>(١)</sup>. وكانت العرب تستخدم التقويم القمري، وتختلف الشهور في هذا التقويم عن التقويم الشمسي، مما يخل بحلول الأشهر الحرم في مواعيد فصلية معينة، وبالتالي مما يخل برحلتي الشام والصيف التجاريتين المعروفتين اللتين تقعان في فصلين ثابتين بقطع النظر عن الأشهر الحرم ووقوعها في فصول تختلف من عام إلى عام، هذا التباين بين التقويمين دفع العرب قبل الإسلام إلى أن "تكبس"

---

(١) التوبية: ٣٦.

في كل ثلاثة سنوات شهراً وتسميه "النسيء" أي أنه كان يضاف شهر في كل ثلاثة سنوات<sup>(١)</sup> لكي تتطابق السنة الشمسية مع السنة القمرية<sup>(٢)</sup> وهذا يؤدي إلى تغيير في الأشهر الحرم. وكان المسؤول عن النسيء هو الذي يعين الشهر الذي أضيف، ويقول المسعودي في ذلك: "والنسيء للشهور الحرم، وكانت النسأة في بنى مالك بن كنانة، وكان أولهم أبو القلمّس حذيفة بن عبد... وذلك أن العرب كانت إذا فرغت من الحج وأرادت الصدر اجتمعت إليه، فيقوم فيهم، فيقول: اللهم إني قد حللت أحد الصفرتين الصفر الأول، وأنسأت الآخر للعام المقبل"<sup>(٣)</sup>.

وعندما ظهر الإسلام أبطلت هذه العادة، وكان القرآن الكريم واضحاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَسِيَّءُ مِنْ يَادَةً فِي الْكُفَّارِ﴾<sup>(٤)</sup> ثم حدد الإسلام أول شهور السنة القمرية وهو شهر المحرم<sup>(٥)</sup>، وفيه تحرم الحرب والغاررة، وتتابع من بعده دونما نسيء أو تغيير في مواقع الأشهر، وفي حجة الوداع كان الأمر حاسماً حين وقف رسول الله ﷺ وقال: أيها الناس، إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض فلا شهر ينسئ ولا عدة تخطأ، وإن الحج في ذي الحجة إلى يوم القيمة<sup>(٦)</sup>، فتتابعت بعد ذلك أشهر السنة القمرية دون أي تغيير.

(١) ذلك أن السنة القمرية تقل عن السنة الشمسية بعشرة أيام تقريباً.

(٢) المسعودي، ج ٢، ص ٢٠٤.

(٣) المصدر السابق: ج ٢، ص ٥٧.

(٤) التوبية: ٣٧.

(\*) تحدد ذلك في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ.

(٥) الأزرقي: ج ١، ص ١٢٨.

**أما الوظيفة الثانية فهي الإجازة:**

وهي منصب من المناصب التي تتعلق بشؤون الكعبة والحج إليها، ولنا حديث عنها في موضع آخر من هذا الفصل.

لقد جمع قصياً في شخصيه كل الوظائف الرئيسية الدينية منها والمدنية، فقد كان ملك العرب في الحجاز ورئيسها الديني الأعلى، وقد أضفى على قبيلة قريش مجدًا وجاهًا عظيمًا، وأقام فيها حكومة مستقرة بعد أن عمر أكثر من ثمانين سنة، وترك من الأبناء عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى، وعلى الرغم من أن عبد الدار كان أكبر أخوه، إلا أن عبد مناف كان أثر شهرة من أخيه وأرفع شأنًا وأعظم مهابة، فقد رأى قصي أن يعوض عبد الدار بما فقد من مقومات الزعامة، فأسند إليه الكثير من الوظائف، ومن هذه الوظائف أن جعل له دار الندوة والحجابة واللواء، فكان يعقد لقريش ألويتهم، وسقاية الحجيج والرفادة.

وتمر الأيام، ويرث الأبناء الآباء، حتى قام بينهم التزاع، وكادت الحرب أن تقع بين الأشقاء، ولكن مساعي في الصلح قد نجحت في التسوية بين الفريقين، وقد قضى الاتفاق بأن يتولى عبد مناف السقاية والرفادة، أما الحجابة ورئاسة دار الندوة واللواء فقد ظلت في بني عبد الدار<sup>(١)</sup>.

لقد تولى بنو عبد مناف سقاية الحجاج وإطعامهم، مما يدل على أنهم كانوا أغنياء ميسرين بفضل عملهم في التجارة ما بين اليمن والشام، ويقول البطري أن الذي قام بأمر بني عبد مناف هو هاشم بن عبد مناف واسمها عمرو، وهو أكبر أبناء عبد مناف، وقد قيل له هاشم لأنه أول من هشم الثريد لقومه بمكة

---

(١) ابن هشام، ج ١، ص ١٣٥.

وأطعمه، فقد ذكر أن قومه من قريش كانوا قد أصابتهم لزبة وقط، فرحل إلى فلسطين فاشترى منها الدقيق وقدم به إلى مكة وبذل طعامه لكل نازل بالبلد المقدس<sup>(١)</sup>. وقد ورث عبد المطلب زعامة أبيه هاشم، واسمه الحقيق "شيبة"، وقد عرف بين الناس بـ"عبد المطلب" لأن عمه المطلب عندما جاء به من يثرب إلى مكة، كان يقول للناس هذا عبدي أو عبد لي، فسمى من ثم بعد المطلب، وشاعت بين قومه من أهل مكة حتى طغت على اسمه، كما عرف بين أهل مكة بشيبة الحمد لكثرة حمد الناس له، وكذلك كان يقال له الفياض لجوده، ومطعم طير السماء، لأنه كان يرفع من مائته للطير والوحوش على رؤوس الجبال، إن هذه الصفات العظيمة في هذا الرجل قد شرفت قومه شرفا لم يبلغه أحد، ويبدو أن عبد المطلب لم يكن عظيما عند قريش فحسب، وإنما كان عظيما في جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، حيث يذكر المؤرخون أنه قد ذهب إلى اليمن مهناً بالمال، عندما تولى "معد يكرب" عرش اليمن مما يدل على مكانته عند قريش، حيث أنه كان رئيساً لوفدتها في المهمات الكبيرة، التي تعطيه الحق في الاتصال بالملوك وتهنئهم بعروشم، التي ربما كان من نتائجها أن يأخذ إيلافاً لقومه من ملوك اليمن، ومن ثم فقد أصبحت قريش تنظم عيراً إلى اليمن في كل عام<sup>(٢)</sup>، كما تميز عبد المطلب جد النبي ﷺ بالأنفة والكرم ومكارم الأخلاق، والاستقلال، ومواجهة الغيب على ثقة وصبر، وذكر عنه أنه كان يأمر أولاده بترك الظلم والبغى، وينهائهم عن دنيات الأمور، وكان يقول: لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه، وأن وراء هذه الدار دار أخرى يجزي فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب

(١) البطري، ج ١، ص ١٠٣.

(٢) جواد علي، المفصل، ج ٣، ص ١٧٤.

المسيء بإساعته، وتذكر المصادر العربية أن عبد المطلب عندما تولى أمر السقاية والرفادة لقى الكثير من المتاعب في توفير المياه للحجيج وذلك بسبب دفن بئر زمزم منذ أيام جرهم، وما زاد في الأمر صعوبة أن مكة آنذاك كانت تمر بفترة قاسية سببها ندرة الأمطار فيها، وجفاف مياه الآبار، فقام عبد المطلب بتجديد حفر بئر زمزم<sup>(١)</sup>، كما أنه وضع سنناً وردت فيما بعد في القرآن الكريم وأقرتها سنة النبي ﷺ منها الوفاء بالنذر وتحريم الخمر والزنا، وأنه أول من سن دية النفس، وهي مائة من الإبل، وما يجدر ذكره أن عبد المطلب لم يكن أغني رجل في قريش، ولم يكن سيد مكة الوحيد المطاع، فقد كان في مكة من هو أكثر مالاً وسلطاناً، إنما كان عبد المطلب وجيهاً من وجهاء قومه لأنّه كان يتولى السقاية والرفادة وبئر زمزم، فهي وجاهة ذات صلة بالبيت. وكانت مكة في حياة عبد المطلب قد مرت بحدث هام كان له أبلغ الأثر في نفوس القرشيين، وهو حملة أبيرهه الحبشي، ونظرأً لأهميتها بالنسبة لمكة فقد صارت الحملة مبدأ للتاريخ بدليل إشارة القرآن الكريم إليها.

### **الحروب والأحلاف:**

تشكل القبيلة بفروعها المختلفة وحدة متماضكة تقف صفاً واحداً في وجه أعدائها أو من يشن عليها الغارات أو يعتدي على حرماتها أو على أحد من أفرادها، على أن وجود هذا التضامن لا يعني عدم خروج بعضهم، أفراداً أو جماعات، عليه طلباً للمصلحة الخاصة، أو انفرادهم بموافقت لا تسجم ومصلحة القبيلة مما يدفع هذه الأخيرة إلى طردهم أو نفيهم من صفوفها.

---

(١) ابن خلدون، ج ٢، ص ٣٨٧.

إن الباحث في تاريخ العرب قبل الإسلام تستوقفه كثيراً أخبار المنازعات وال الحرب التي وقعت بين القبائل المختلفة، كما يرى من جانب آخر أن التحالف يمثل أساساً من أسس الروابط القبلية، ويكون التحالف عادة بين قبيلة ضعيفة تتظم بواسطة الحلف إلى قبيلة أقوى منها لتضمن سلامتها وحمايتها، وفي مكة ظهر إلى جانب التضامن القبلي المبني على أساس المصالح التجارية وعلى هذا الأساس قامت الأحلاف المختلفة.

لقد بدأت الحروب في مكة عندما تناست جرهم وقطورا في الملك، وتدعوا للحرب، فخرجت جرهم من قعيقان وهي أعلى مكة وعليهم مضاض ابن عمرو، وخرجت قطوارء من أجياد وهي أسفل مكة وعليهم السميدع، وانهزمت قطوارء وقد سمى "فاصحاً" لأن قطوارء افتضحت فيه، ثم تدعوا بعد ذلك للصلح واجتمعوا في الشعاب وطبخوا القدور فسمى المطابخ<sup>(١)</sup>.

وقد ذكرنا سابقاً أن جرهم عندما تولت أمر البيت اتسع سلطانها وعظمت شوكتها فعاثوا فساداً في الأرض وأكلوا أموال الكعبة، واضطهدوا من دخل مكة من غير أهلها، وعندما قدمت خزاعة من اليمن طلبوا من جرهم أن تسمح لهم بالإقامة في مكة، فرفضوا طلبهم فنشبت الحرب بين الفريقين، وقد استمرت لمدة ثلاثة أيام انتهت بهزيمة جرهم وانتزعت خزاعة مكة، فتولى ربيعة بن حارثة بن عمرو أمر مكة وحجابة الكعبة<sup>(٢)</sup>.

---

(١) ياقوت الحموي، ج ٥، ص ١٨٥.

(٢) الحلب الشافعي ج ١، ص ٨.

وعندما تولى قصي أمور مكة نظم شؤونها -كما مر بنا سابقاً- وبقيت قريش على ذلك زمناً، ولما كبر قصي وأحس بدنو أجله، عهد إلى كبير أبنائه عبد الدار بوراثة وظائفه ومكانه، ولكن لم يلبث أحفاد عبد الدار وأحفاد أخيه عبد شمس أن تنازعوا سيادة المدينة وما يتعلّق بهذه السيادة من وظائف، وغدت مكة هكذا تتقسّم إلى فريقين متخاصمين، فريق بني عبد مناف يساندهم بنو أسد وزهرة وتيم والحارث بن فهر، وفريق عبد الدار ويساندهم بنو مخزوم وسهم وجمح وعدي. في حين ظل على الحياد كل من بني عامر بن لؤي ومحارب. وعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكدين لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً، وأخرجت بنو عبد مناف وأحلافهم جفنة مملوءاً طيباً فوضعوها حول الكعبة، ثم غمس القوم أيديهم فيها وتعاهدوا وتعاقدوا وتحالفوا ومسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسموا "المطبيين" وأخرجت بنو عبد الدار ومن كان معهم جفنة من دم فغمسوها بأيديهم فيها وتعاقدوا وتحالفوا على أن لا يتخاذلوا فسموا الأحلاف أو "لعقة الدم". وتهيأ الطرفان للقتال، ولكن مساعي الصلح نجحت في التوصل إلى اتفاق بين الطرفين تقاسما بموجبه الوظائف المتعلقة بخدمة الكعبة ورئاسة مكة<sup>(١)</sup>. كما تعد حروب الفجار من الحوادث المؤثرة في تاريخ مكة على الرغم من كونها حدثت لأسباب تافهة، إلا أنها أدت إلى قيام بعض الحروب والنزاعات بين القبائل، وسميت بهذا الاسم لاستحلال كنانة وقيس عيلان القتال في الأشهر الحرم، وهي الشهور المقدسة التي يحرم العرب فيها القتال، فعد ذلك خروجاً على العادات القديمة وفحراً وخلافاً لما هو عليه<sup>(٢)</sup>، وأيام الفجار عديدة، أولها

(١) ابن هشام، ق ١، ص ١٤٩-١٥٠. ابن سعد، ج ١، ص ٧٧.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام "السيرة النبوية"، ج ١ ص ٦١.

حدث بين كنانة وهوازن على أثر تناحر حدث بين مجموعة من الشبان العرب في سوق عكاظ، إذ تطاول بدر بن معاشر الغفاري على الناس، وأخذ ينشد أبياتاً من الشعر يفترخ فيها عليهم، ثم مد رجله وقال: أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف، فوثب رجل من بنى نصر بن معاوية من هوازن فضربها بسيفه قطعها، فأثار ذلك مناوشات بين الحيين كادت أن تسيل بينهما الدماء، ثم تراجعوا ورأوا أن الحدث بسيط لا يستدعي أن تسيل الدماء بين الطرفين<sup>(١)</sup>.

وفي اليوم الثاني سفك دماء يسيرة وكان سببه عبث شباب من قريش بأمرأة من بنى عامر بن صعصعة في سوق عكاظ، وكانت هذه المرأة جميلة، فرغب الشباب أن تكشف لهم عن ردائها فغضبت تلك المرأة وصاحت بأعلى صوتها قائلة: يا آل عامر، ونادي الشباب في الوقت نفسه قومهم فالتحم الطرفان في قتال لم ينته إلا بتوسط حرب بن أمية<sup>(٢)</sup>.

أما اليوم الثالث: فسببه أن رجلاً من كنانة كان قد استدان مالاً من رجل من بنى نصر من هوزان، وعجز عن الوفاء به، فجاء النصري إلى سوق عكاظ، ومعه قرد وصار ينادي: من يتغى مثل هذا بماله على فلان الكناني، تحقيراً للرجل وقومه، فما كان من رجل كناني مر به وسمع القول إلا أن ضرب بسيفه القرد فقتله، فصرخ هذا في قيس عيلان، بينما صرخ الكناني في قومه، واجتمع

(١) ابن الأثير، ج ١، ص ٥٨٨.

(٢) المصدر السابق: ج ١، ص ٥٨٨.

الناس وتحاوروا ثم اصطلحوا<sup>(١)</sup> وقد عرفت هذه المناوشات بحروب الفجار الأولى.

أما حروب الفجار الثانية فهي خمسة أيام، وهي الأشهر في تاريخ العرب قبل الإسلام<sup>(٢)</sup>، وقد وقعت بعد عشرين سنة من عام الفيل، ولم يكن في أيام العرب أشهر منها وأهمها اليوم الأول: الذي يسمى بيوم نخله وكان سببه أن رجلاً خليعاً شريراً فاسقاً يدعى البراض الكناني أتعب قومه فخلعوه وتبرأوا منه، فصار ينتقل من قبيلة إلى أخرى ومن سيد إلى آخر يطلب الحماية والجوار وكلهم يرفضونه، وكان يضرب المثل بفتكه "أفتاك من البراض"، فخرج من الحجاز حتى قدم على النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وكان النعمان يرسل كل عام بلطيمة<sup>(٣)</sup> تباع له في سوق عكاظ، وهناك عرض على النعمان أن يتولى له حماية القوافل التي كان يرسلها إلى الحجاز، ولكن النعمان اختار عروة بن عتبة الكلبي من قيس عيلان، فغضب البراض الكناني من هذا، وأخذ يتعقب عروة حتى تمكن من مغافلته وقتلها، وساق القافلة إلى خيبر، وأوفد رسولاً مستعجلًا إلى حرب بن أمية وهو كبير قريش آنذاك يخبره بما فعل بعروة وأن يأخذ الحذر من قيس.

ولما بلغ الخبر هوازن ثارت الثائرة عندهم، واستعدوا لقتال كنانة، واشتبك الطرفان في موضع نخلة، فاضطررت هوازن أن ترجع عن قريش

(١) جواد علي، ج ٥، ص ٥٨١.

(٢) وقد عاشها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في شبابه قبل البعثة، انظر القسم الثاني، الفصل الأول من هذا الكتاب.

(٣) الطيمة: هي الإبل المحملة بالمسك والطيب.

وتواجد الطرفان على اللقاء في السنة القادمة بسوق عكاظ، وقد عاد كل فريق إلى قومه يحرض أهله ضد الآخر على الأخذ بالثأر.

وقد تأثرت كنانة من الهزيمة التي لحقت بها في هذه الحرب، وأخذت تستعد للانتقام من هوزان، وجمعت جموعها ورؤسائها واشتروا الأسلحة، وسارط إلى عكاظ، وكانت هوازن قد وصلت الموضع هي أيضاً، والتقي الفريقان في اليوم الرابع من أيام سوق عكاظ وجهاً لوجه، وقد حدثت بينهما مناوشات كلامية، ثم اشتد بينهما القتال وكان عنيفاً تعرض فيه الطرفان لخسائر كبيرة في الأرواح والعتاد، وقد كان النصر في بادئ الأمر إلى جانب قيس وانهزم بنو كنانة وقريش والتجأت إلى الحرم، فكفت قيس عنها، ثم وقعت معارك أخرى أدت إلى اضطراب الأمن في مواسم وفي أماكن حرم فيها القتال عند العرب<sup>(١)</sup>.

كما حصل في العام التالي قتال في يوم شمطة حيث تجمعت قريش وكنانة بأسرها، وكان على رأسهم حرب بن أمية ومعه عبد الله بن جدعان على الميمنة، وهشام بن المغيرة على الميسرة، كما لحق بقريش الأحابيش ومنتبعهم من بني أسد بن خزيمة لملaqueة سليم وهوazen من قيس، وكان على رأسهم مسعود بن معتب التقي، وكان النصر أول النهار لكتيبة على هوazen وحلفائها حتى إذا كان آخر النهار تداعت هوazen وصبرت وأحرزت النصر على كنانة<sup>(٢)</sup>.

ثم عادت هوazen وكنانة إلى الحرب في يوم عرف بيوم العبلاء، واقتتلاوا فيه وكانت الهزيمة من نصيب كنانة، وقد حز في نفس كنانة أن تهزم في يومي

---

(١) المسعودي، ج ٢، ص ١٦٧.

(٢) ابن الأثير، ج ١، ص ٥٩٥.

شمرة والعلاء وقد راح رؤساؤها يستعدون للانتقام، وحمل عبد الله بن جدعان ثري قريش ألف رجل من كنانة على ألف بعير، وتولى قيادة كل بطن رئيسه، وحدث قتال شديد في يوم عكاظ، انتصرت فيه كنانة على قيس، أما اليوم الآخر الذي عرف باسم يوم الحريرة، فقد اقتل فيه الطرفان قتالا فاتراً دون أن يحرز فريق على الآخر أي نصر، وتداعياً إلى الصلح على أن يعودوا القتلى فأيهمما له فضل من القتلى على الآخر يقوم ب الدفاع عنهم، ويبدو أن حروب الفجار قد دفعت إليها قريش على غير هواها، بدليل أنها حاولت إيقافها أول مرة، وما أنكرت من أعقابها آخر الأمر حيث عمدت إلى حلف الفضول، عندما شعرت بتضعضع قوتها ووحدتها وبخاصة بعد موت هاشم وعبد المطلب حيث أشرف على التفرق بسبب التطلع إلى الرئاسة<sup>(١)</sup>.

ومن الأحداث الهامة التي يذكرها أهل السيرة والأخبار في تاريخ مكة أنه عقد بعد حرب الفجار بشهر حلف الفضول، والذي ساعد على علو مكانة قريش بين القبائل، ويقال أن أول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب، وقد شهد حلف الفضول بنو هاشم ونبي زهرة وبنو تميم، وقد تعاقدوا على أن يكونوا مع المظلوم حتى يرد إليه حقه، كذلك تحالفوا إلا يظلم أحد بمكة إلا قاموا معه حتى ترد ظلماته<sup>(٢)</sup>، وتتساءل إلى الزبير بن عبد المطلب أبياتاً من الشعر قال فيها:

حلفت لنعقدن حلفاً عليهما وإن كنا جميعاً أهل دار	نسميه الفضول إذا عقدنا
يعز به الغريب لدى الجوار	

(١) المسعودي، ج ٢، ص ١٦٧.

(٢) ابن سعد، ج ١، ص ١٢٩.

ويعلم من حوالي البيت أن

أبا الضيم مهجر كل عار<sup>(١)</sup>

وقد ذكر الأخباريون أن الهدف من هذا الحلف هو إنصاف المظلومين من أهل مكة، والضعفاء والمساكين ومن لا يجدون عوناً يحميهم ويدافع عن حقوقهم وإنصافاً للغرباء الوافدين على مكة من حاج أو تجار ومن يعتدى عليهم أو على تجارتهم.

ويعد حلف الفضول -الذي حضر انعقاده الرسول محمد ﷺ قبل أن يبعث- امتداداً متطوراً لحلف المطبيين، وكان أعضاء هذا الحلف هم فئات من قريش اشتراكاً في حلف المطبيين وتتألف من بنى هاشم والمطلب ابني عبد مناف، وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة وبني الحارث بن فهر، وكان بنو عبيد شمس وبنو نوفل هم المطبيون الوحيدون الذين لم يشاركون في الحلف الجديد، وقد يكون سبب ذلك أن خصاماً كان قد وقع قبل عقد حلف الفضول بين نوفل وعبد المطلب بن هاشم، ويبدو أن بنى عبد شمس وبني نوفل قد كانوا على جانب من القوة كبير لا يحتاجان معه إلى حلفاء يساعدونهم، في حين أن بنى هاشم والمطلب كانوا أضعف ولا بد لهما من حلف يشد أزرهما.

لقد استمرت التحالفات والتكتلات القبلية في مكة وبين فروع قريش المختلفة في تطورها حتى عصر الرسول ﷺ، حيث كان هناك عند بعثته ثلاثة فئات قرشية متطرحة هي كما يلي: فئة أولى وتضم بنى هاشم والمطلب وزهرة وتيم والحارث بن فهر وعدى، وفئة ثانية وتضم: بنى عبد شمس ونوفل وأسد وعامر، وفئة ثالثة وتضم: بنى مخزوم وسهم وجمع وعبد الدار، ويلاحظ أن الفئة

---

(١) المسعودي، ج ١، ص ١٦٨.

«وَيَ حَبَبْ نَصِمْ جَمَاعَهْ حَلَفَ الْعُضُولْ بَاسْتَنَاءَ اَسَدْ، الَّتِي حَلَ مَكَانَهَا بَنَوْ عَدِي، كَمَا كَانَتْ بَيْنَ الْفَتَنَيْنِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ عَلَقَاتٍ وَدَ وَمَصْلَحَةً مُشَرِّكَةً خَاصَّةً فِي الْمَجَالِ التَّجَارِيِّ، أَمَّا الْفَتَنَةُ الثَّالِثَةُ فَهِيَ جَمَاعَةُ حَلَفٍ "الْعَقَةُ الدَّمْ" -الَّذِي سَبَقَ الْحَدِيثَ عَنْهُ- بَاسْتَنَاءَ عَدِيَّ الَّتِي اَنْتَلَتْ إِلَى الْفَتَنَةِ الْأُولَى<sup>(١)</sup>.

### أهمية مكة الاقتصادية:

تعد مكة عاصمة الحجاز قبل الإسلام دينياً وتجارياً، إذ كان لموقعها أهمية تجارية عظيمة، فهي نقطة التقائه لطرق عديدة تأتيها من جميع الجهات من اليمن ومن الخليج العربي ومن الحبشة عن طريق البحر الأحمر ومن مصر وفلسطين وسوريا.

والواقع أن مكة قد استفادت من وقوعها على طريق الهند التجاري، وذلك أن القوافل التجارية الآتية من اليمن ببضائع الهند إلى الشام أو الذاهبة إليها كانت تمر بها بوصفها محطة تجارية، لابد من النزول فيها، والإقامة بها أياماً بسبب توفر مياه للشرب الأمر الذي أدى إلى ارتفاع شأنها، وذلك لوجود بئر زمزم الذي بفضلها أصبحت مكة محطة تجارية، ووجود الكعبة المشرفة فيها، والتي يعظمها العرب ويقدسونها، ويحجون إليها من جميع أنحاء الجزيرة العربية منذ قديم الزمان، وكان العرب يعظمونها ويقسمون بها بالإيمان كقول زهير:  
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله      رجال بنوه من قريش وجرهـم

كما كان يرافق ذلك طقوس دينية تجري في مكة في شهور معلومة من السنة، وفي هذه الشهور يتم إقرار نوع من الهدنة بين القبائل عرفت عند العرب بالأشهر الحرم يتوقف خلالها القتال بين تلك القبائل. وفي الوقت الذي كان فيه الناس يؤدون طقوس الحج ويقومون بفرائضهم الدينية كان التجار يعرضون متاجرهم في الأماكن المجاورة، وهكذا كانت تلتقي المصالح الدينية والمصالح الاقتصادية في آن واحد. وكان الحج فرصة لكي يتعرف أبناء القبائل المختلفة وليناقشوا مشاكلهم المشتركة ويعملوا على تسوية ما يقوم بينهم من نزاعات. كما كانت تلك الأسواق فرصة لسماع آخر ما أبدعه الشعراء العرب من مختلف أرجاء الجزيرة العربية.

وقد زاد من أهمية مكة وارتفاع دورها التجاري تدهور العلاقات بين حكام فارس والدولة البيزنطية، وقيام حروب طويلة وطاحنة بين الطرفين، على مدى القرنين الخامس والسادس للميلاد اللذين سبقا ظهور الإسلام مما أدى إلى تعطيل التجارة مع شبه الجزيرة العربية، وبخاصة مع ساحلها الغربي الواقع على البحر الأحمر فكان ذلك فرصة للمكيين في الانصراف للنشاط التجاري، من جانب آخر كان وقوع اليمن تحت سيطرة الأحباش قد أدى إلى خروج مقاليد التجارة من أيدي أهل اليمن وانتقالها بطبيعة الحال إلى أيدي المكيين، فعوضتهم التجارة ما حرمتهم الطبيعة من موارد الزراعة، بسبب كون الحجاز إقلima يسوده الجفاف والفقر في النبات.

إن نشاط المكيين التجاري لم يقتصر على كون مدينتهم محطة على طريق القوافل التجارية، بل ساهموا بأنفسهم في النشاط التجاري العالمي، فتاجروا مع مصر والحبشة عبر البحر الأحمر عن طريق ميناء الشعبية الذي

كان ميناء لمكة قبل الإسلام، وبفضل مهارة أهل مكة تمكنا من تحويل جزء كبير من تجارة الهند نحو مدينتهم، وعبر الحجاز بدلاً من الخليج العربي نحو بلاد الشام وهو الطريق الذي صار ميداناً للقتال بين الفرس والروم.

ومع مرور الزمن أخذت مكة تحول من مركز تجاري فحسب، إلى مركز مالي هام تتم فيه عمليات مالية واسعة النطاق، وقد عرف الكتاب اليونان ودعوها في كتبهم باسم "مكورايا" (أي المقدسة)، كما عرف البيزنطيون أهمية مكة التجارية فحاول أيليوس غالوس احتلالها وهو في طريقه إلى اليمن، ولما احتل الأحباش اليمن نظروا إلى مكة نظرة الطامع وحاولوا احتلالها على يد القائد إبراهة الأشرم عام الفيل وذلك لأهداف تجارية إلى جانب ما يذكر عادة من أهداف أخرى.

وتؤكدأ على أهمية التجارة عند المكيين يمكننا أن نذكر أن الألفاظ المتعلقة بالتجارة كثيرة جداً في القرآن الكريم، حيث نجد كلمات تجارية مثل: حساب وميزان وقسط وذرة ومتقال وقرض... الخ، بل اشتغلت بها النساء كخديجة بنت خويلد وهند بنت عبد المطلب وغيرهما.

ثانياً: يثرب

### أصل التسمية:

عرفت عند الأخباريين باسم أثرب ويثرب، وذكروا أن يثرب أم قرى المدينة، وحددوا امتدادها ما بين طرف "القناة" إلى طرف "الجرف" وما بين المال

الذى يقال له البرناوى إلى "زبالة"<sup>(١)</sup> وهناك من يقول أنها سميت يثرب نسبة إلى يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عويس بن إرم بن سام بن نوح، وهو أول من نزلها عند تفرق ذرية نوح<sup>(٢)</sup>، بينما اعتقد آخرون أن اسم يثرب مأخوذ من الثرب بمعنى الفساد أو التشرب أي المؤاخذة بالذنب. ومعروف أن الرسول ﷺ بعد الهجرة نهى عن تسمية يثرب بهذا الاسم القديم، وسماها طيبة وطابة كراهة للتشرب<sup>(٣)</sup>، وهناك من يرى أن يثرب سميت باسم رئيس العماليق الذين نزلوها بعد أن أخرجوا منهابني عيبل بن عويس ابن إرم بن سام من ولد نوح. وقد ورد اسم يثرب في القرآن الكريم عند تعرضه لما يقوله المنافقون، يقول تعالى: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غَرَّرُنَا، وَإِذْ قَاتَلَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرَبَ لَا مَقَامٌ لَّكُمْ فَارْجُوْنَا وَيَسْتَأْذِنُ فِرْقَةً مِّنْهُمْ الَّتِي يَقُولُونَ إِنَّ بَيْتَنَا عُورَةٌ، وَمَا هِيَ بِعُورَةٍ إِنْ يَرِيدُونَ إِلَّا فَرَارًا»<sup>(٤)</sup>.

وهناك اختلاف آخر بين المؤرخين فيما إذا كان "يثرب" هو اسم للمدينة نفسها أو لموضع مخصص من أرضها، أو أنه اسم للناحية التي منها مدينة الرسول ﷺ، أما اسم "المدينة" الذي صار اسمًا ليثرب بعد الهجرة النبوية فقد يكون مأخوذاً من لفظة Medinta الآرامية، ومعناها الحمى أو المدينة، وقد

(١) ياقوت الحموي، ج ٥، ص ٤٣٠ 'مادة يثرب'.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ج ٢، ص ١٤٨.

(٣) ياقوت الحموي: ج ٥، ص ٤٣٠ .

(٤) الأحزاب: ١٢، ١٣ .

يكون اختصاراً لتسمية "مدينة رسول الله"، على الرغم من أن هناك من يرجح أن لفظة المدينة كانت تطلق قبل ظهور الإسلام على يثرب<sup>(١)</sup>.

من جانب آخر ذكر الأخباريون أسماء كثيرة أخرى ليثرب، إلا أن تلك الأسماء عرفت بها المدينة بعد الهجرة، أي في العصر الإسلامي باعتبارها دار هجرة، ومركز الدولة الإسلامية في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين، ومعظم تلك الأسماء صفات لها وصفت بها لتعظيمها وإظهار فضائلها ومآثرها، ومن تلك الأسماء: طيبة، وطابسة، والسكنينة، والعذراء، والجابرية، والمحببة، والحبورة، والناجية، والموفية وأكاللة البلدان، والمحفوفة، والمسلمة، والمجننة، والقدسية، والعاصمة، والمرزوقة، والشافية، والخير، والمحبوبة، والمرحومة، والمختارة، والمحرمة، والقاصمة، وطبابا<sup>(٢)</sup>.

### جغرافية يثرب:

يثرب مدينة قديمة ورد ذكرها في الكتابات المعينية، حيث كانت تخضع لسيادة دولة معين ثم آل أمرها إلى السبيئين، ذلك أن معين وسبأ كانتا تفرضان نفوذهما على بلاد العرب الشمالية، وقد ذكرها بطليموس في جغرافيته باسم "Iathrippa"، وتقع على أرض عوارض فيها، مبسوطة ومكشوفة من سائر الجهات، وأقرب الجبال إليها هو جبل أحد، وأرضها كثيرة المياه والشجر والدوхات، يقع جبل أحد في شمالها في حين يقع جبل عير في جنوبها الغربي؛ وهذا الأخير عبارة عن جبلين أحمرین متقاربين ببطن العقيق، أحدهما عبر

(١) جواد علي: ج ٤، ص ١٨١.

(٢) ياقوت الحموي: ج ٥، ص ٤٣٠.

الوارد، والأخر عبر الصادر<sup>(١)</sup>، وإلى الشرق من يثرب بقيع الغرقد، وإلى الجنوب قرية قباء التي تبعد عن يثرب بنحو ميلين مما يلي القبلة.

تحيط بيثرب وديان عديدة، أشهرها وأكثرها خصباً وادي العقيق الذي يبعد عنها من جهة الغرب بنحو ثلاثة أميال، وهذا الوادي عبارة عن مجموعة وديان شقتها السيول: "أحدها عقيق المدينة، عق عن حرتها، وهذا العقيق الأصغر، وفيه بئر رومة"، وتقع بئر رومة إلى الشمال الغربي من يثرب على مسيرة ساعة منها<sup>(٢)</sup>، ويحيط العقيق أيضاً بيثرب أيضاً من جهة الجنوب الغربي، ولكنه بعيد عنها من هذه الجهة، فهو يقع بعد قباء، إلى الشمال من وادي النقيع، وكانت تشغله غابات كثيفة.

وهناك وديان أخرى منها: وادي بطحان ويقع إلى الغرب من يثرب، ووادي رانون، ويبداً من جبل عير ويمر بقباء ثم يتصل بوادي بطحان، وهناك وادي مذنيب في الجنوب الشرقي، وهو شعبة من بطحان، ووادي قناه ويقع إلى الشمال الشرقي من يثرب، ووادي مهزور في الجنوب الشرقي، ويأتي من حرة واقم<sup>(٣)</sup>.

وفي يثرب ثلاث حرات هي: حرة الوبرة في الغرب، وحرة قباء في الجنوب، وحرة واقم في الشرق، وهناك ثلاث حرات أخرى قريبة منها هي: حرة

---

(١) المصدر السابق: ج ٥، ص ٤٣٠.

(٢) ياقوت الحموي: ج ٤، ص ١٣٩ و ١٧٢.

(٣) المصدر السابق: ج ٢، ص ٢٤٧.

شوران وتقع على يسار الواقف ببطن العقيق يريد مكة، وحرة ليلي لبني مرة بن عوف بن ذبيان، وحرة النار بالقرب من حرة ليلي<sup>(١)</sup>.

تعد حرة واقم من أشهر حرات إقليم الحجاز، فتربيتها من أخصب بقاع يثرب، وذكروا أن اسمها نسبة إلى رجل من العماليق سكان يثرب القدامى، وقيل أنه اسم أطم من آطام بني الأشهل إليه تضاف الحرفة، وقد عرفت حرة وأقم أيضاً بحرة قريظة، لأنهم ينزلون بطرفها القبلي، كما عرفت أيضاً بحرة زهرة، نسبة إلى القرية المجاورة لها، أما حرة الوبرة فتعرف بحرة بني بياضة، وتقع على ثلاثة أميال من يثرب، وتشرف هذه الحرة على وادي العقيق الذي يليها غرباً، ومنها يبدأ الطريق إلى مكة<sup>(٢)</sup>.

### المـنـاخ:

مناخ يثرب يشبه إلى حد ما مناخ مكة، وكأي مناخ صحراوي فإن الحرارة تشتد فيه صيفاً، في حين تشتد البرودة شتاء<sup>(٣)</sup>، أما الأمطار فهي شتوية وتحدث سيولاً في كثير من الأحيان، وتسقط عادة في أوقات قصيرة، ولكنها تهطل في عنف فتحدث تلك السيول، وتختلف عن تلك الأمطار غدران ومستنقعات وبرك، ومن الغدران المشهورة بوادي العقيق غدير السدر، وغدير خم، وغدير سلافة، وغدير البيوت، وغدير حصير، وغدير المجاز، وغدير

(١) المصدر السابق: ج ٢، ص ٢٤٨.

(٢) ياقوت الحموي: ج ٥، ص ٨٣.

(٣) السمهوري: كتاب وفاء الوفا، ج ٢، ص ٢٩٠.

المرسي<sup>(١)</sup>، وكانت هذه الغدارن والبرك عندما تتعرض لحرارة الشمس تت弟兄 مياهاها فتزداد ملوحة، بالإضافة إلى ما يسببه ركود المياه فيها من أمراض وحميات، وظاهرة انتشار الأوبئة والأمراض بالمدينة من الظواهر المألوفة فيها<sup>(٢)</sup>.

### سكان يثرب:

سكنت يثرب قبل الإسلام مجموعاتان رئيسitan من السكان هما:

#### ١ - اليهود:

فرت جموع كثيرة من اليهود من بلاد الشام إلى جزيرة العرب بعد سنة ٧٠م، وذلك على أثر قيام الرومان الذين يحتلون بلاد الشام آنذاك بتشتيتهم وطردهم بعد أن قاموا بعدد من الثورات ضد الوجود الروماني، وقد استوطن هؤلاء اليهود أخصب بقاع الحجاز في يثرب وخbir وفديك ووادي القرى وتيماء، كما نزل بعضهم اليمن<sup>(٣)</sup>، وكان يعيش في يثرب عند هجرة هؤلاء إليها جماعات يهودية قديمة كانت قد نزحت إليها في عهود قديمة، وتغلبت عليهما من أصحابها العمالق، فمجتمع يثرب سنة ٧٠ كان يتتألف من اليهود القدامي الذين تغلبوا على عمالق يثرب، ومن اليهود الجدد الذين اتخذوا من بلاد العرب دار هجرة بعد مغادرتهم بلاد الشام بسبب اضطهاد الرومان لهم كما أشرنا.

(١) المصدر السابق: كتاب وفاء الوفا، ج ٢، ص ٢٩٠.

(٢) ابن هشام: ق ١، ص ٢٣٩.

(٣) جواد علي: ج ٤، ص ١٧٨.

أقام اليهود لهم في يثرب حصونا (أطاما) يلجؤون إليها وقت الحرب  
وأشتداد الغارات فيتحصن فيها النساء والأطفال والشيخ عندما يخرج رجالهم  
إلى القتال، وقد أشار القرآن الكريم إلى قرى اليهود المحسنة هذه في قوله  
تعالى: ﴿لَا يقاتلونكُمْ جمِيعاً إِلَّا فِي قُرَىٰ مُحَسَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جَدَرٍ بِأَسْهَمِ بَيْنِهِمْ  
شَدِيدٌ تُخْبِهِمْ جمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتِيٌّ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يُقْتَلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

كانت قبائل اليهود عند وصول الأوس والخررج إلى يثرب تزيد على العشرين قبيلة، وأطامهم تقارب الستين أطما، في حين كان للعرب النازلين معهم قبل الأوس والخررج ثلاثة عشر أطما، ومن أشهر قبائل اليهود آنذاك: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو محمد، وبنو زعرا، وبنو قينقاع، وبنو ثعلبة، وأهل زهرة، وأهل زبالة، وأهل يثرب، وبنو القصيص، وبنو فاعصة، وبنو مرانة<sup>(٢)</sup>، وأكبر هذه القبائل اليهودية ثلاث: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، وكانت بجوارهم تقيم بطون يهودية صغيرة، وقد تأثر اليهود بغيرائهم العرب فانقسموا إلى قبائل وبطون، واتخذوا أسماء عربية، وكانوا يتخاطبون بالعربية.

## ٢ - العرب:

أشرنا إلى أن أول من سكن يثرب هم العرب العمالق، ثم تغلب اليهود الوافدون على العرب وأصبحت لهم السيادة على المدينة بعد أن تكاثر عدهم في أعقاب هجرتهم من فلسطين بعد عام ٧٠م، وكان يسكن يثرب مع اليهود بطون

(١) الحشر: ١٤.

(٢) ابن رسته، الأعلاق النفسية، ص ٦٣.

عربية من اليمن ومن بلي ومن سليم بن منصور بن عكرمة من قيس عيلان، فضلاً عن بقايا العمالق.

وبعد السيل العرم وتنرق أغلب قبائل اليمن، كانت هجرة الأوس والخزرج اليمنيين إلى يثرب، فنزلوا فيها وأقاموا مع اليهود، وكانت الأموال والآطام والنخيل في أيدي اليهود، وكانت الغلبة والمنعنة لهم أيضاً. فسألهم الأوس والخزرج أن يعقدوا معهم حلفاً وجواراً يأمن به بعضهم من بعض، فتعاقدوا والخزرج فسكنوا في الشمال الغربي من يثرب، أما وتحالفوا، واشتركوا وتعاملوا، وقد سكن الأوس جنوب وشرق يثرب، أما الخزرج فسكنوا في الشمال الغربي من يثرب.

رحب اليهود بعقد هذا الحلف مع القبيلتين الوافدين، وذلك لضمان سيادتهم على يثرب، ولكي يستخدموا هؤلاء الحلفاء في صد أي هجوم خارجي على المدينة فضلاً عن أن هذا التحالف يضمن لهم الإبقاء على صلات الجوار بينهم وبين قبائل العرب في المدن والتجمعات العمرانية المجاورة ليثرب، ويقوى تظاهرهم بالإندماج بين العرب، ويمكن نفوذهم وسيادتهم على المدينة ويسburg عليه نوعاً من الشرعية، غير أن هذا الترحيب اليهودي كان مؤطرأ بشيء من الخوف والقلق من العرب، ومع أنهم -أي اليهود- كانوا متفوقين على العرب من حيث الغلبة العددية والقدرة، فقد كانوا يخشون أن يقوى العرب عليهم ذات يوم، فيتمكنوا من انتزاع السيادة على يثرب من أيديهم، فنراهم يكترون من اتخاذ الحصون والآطام، ويرافقون العرب عن كثب.

من جانب آخر، اقتنع الأوس والخزرج بادئ ذي بدء بتحالفهم مع اليهود، وبالاشغال معهم في استغلال مصادر الثروة في يثرب، ومضى على الحلف المنعقد بين اليهود والعرب زمان طويل، فأثرى الأوس والخزرج، وصار لهم

مال وعدد، فلما رأى اليهود ذلك تخوفوا أن يغلبوا على دورهم وأموالهم، فتتمروا عليهم، وتتکروا لحفهم مع العرب، ودخلوا معهم في صراع ونزاعات انتهت بالغلبة والسيادة للعرب على يثرب<sup>(١)</sup>.

عاش الأوس والخزرج بعد انتصارهم وغلبتهم على يثرب متفق الكلمة، متحددي الصفوف حيناً من الزمن، ثم ساءت العلاقات بين الأخرين، ووقع الخلاف وانتهى الأمر بقيام حروب بينهما كثيرة امتدت حتى قبيل الهجرة النبوية<sup>(٢)</sup>، ويبدو أنه كان لليهود في يثرب يد في نشوء الخلاف بين العرب بعضهم مع بعض، وأنهم كانوا يسعون إلى تفتیت وحدتهم حتى ينالوا منهم وتعود لهم السيادة في يثرب.

#### الحياة الاقتصادية في يثرب:

اعتدال المناخ بوجه عام في يثرب، فضلاً عن توافر المياه وخصوصية التربة، هي المجال لاشتغال سكانها بالزراعة، وكان الخيل أهم مزروعات يثرب، أما الشعير فيؤلف المصدر الثاني لثروة يثرب الزراعية، وكان طعام الناس بيثرش الشعير والتمر، وكان يزرع فيها أيضاً القمح والكرروم، وفواكه أخرى كالرمان والموز، ومن مصادر الثروة الزراعية فيها حب البان، وكان يصدر إلى بلدان أخرى، كما زرعت بيثرش الخضراوات والأعناب<sup>(٣)</sup>.

(١) السمهوري: ج ١، ص ١٥٥.

(٢) ياقوت الحموي: ج ٥، ص ٨٧.

(٣) اليعقوبي، كتاب البلدان ص ٣١٣. ياقوت الحموي، ج ٢، ص ٩٣.

وتحتل التجارة المرتبة الثانية في نشاط أهل يثرب الاقتصادي، وخاصة التجارة الداخلية، حيث كانت تقام بيترب الأسواق المختلفة لبيع المنتجات الزراعية والسلاح والصوف، ومن أشهر الأسواق المعروفة قبل الإسلام: سوق بنى قينقاع، وسوق زبالة، وسوق الجسر، وسوق الصفاصف، وسوق البطحاء. وكان يجلب إلى أسواق يثرب سلع متنوعة، مثل الزيبيب من الطائف، والمنسوجات القطنية والحريرية من اليمن، والحنطة من بلاد الشام، وكانت التجارة مع بلاد الشام واليمن تتبع الطريق البري المعروف، والطريق البحري عبر البحر الأحمر<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: الطائف

#### التسمية والجغرافيا:

تعد الطائف المركز الوثني الثاني في الحجاز بعد مكة، ويعتقد أن تسميتها بـ "الطائف" كانت نسبة إلى الطواف حول "بيت اللات" أحد أشهر بيوت الأصنام فيها، وكانت الطائف تسمى في القديم باسم "وج" وهو اسم وادي ينسب إلى وج بن عبد الحي من العمالق، وهناك من يرى أسباباً أخرى لتسمية الطائف، فيذكرون أنه كان نسبة إلى طوف "حائط" بناء أحد التجار الأثرياء ليحجز نقيف عن العرب، ويكون حصناً لهم<sup>(٢)</sup>.

---

(١) البكري، معظم ما استعجم: ج ١، ص ٦٧. ياقوت الحموي: ج ٤، ص ٩.

(٢) الهمданى، صفة جزيرة العرب: ص ١٢٠-١٢١.

والطائف مدينة صغيرة، قريبة من مكة، تقع على ظهر جبل غزوان، أعظم جبال السراة، تلك السلسلة الجبلية الممتدة بحذاء البحر الأحمر، وتشرف واجهة السراة الشرقية على أودية تنتهي إلى البحر، ومن بين تلك الوديان وادي نعمان بين الطائف وعرفة، وفيه طريق الطائف المختصرة إلى مكة، وجبال السراة جنوب الطائف امتداد لجبال اليمن، وهي جبال كانت تتخذ أسماء القبائل التي سكنتها مثل سراة بنى علي وفهم وسراة بجبلة والأزد بن سلامان وسراة المع ودوس وعازر، ويحيط بالطائف نطاق من المزارع والبساتين تمتد إلى نحو ثلاثة أو أربعة كيلو مترات من المركز العمراني بالمدينة، ويطوق جبل غزوان جانباً من هذه المزارع بينما ينفتح سهل الطائف تجاه مكة<sup>(١)</sup>.

أما مناخ الطائف فهو معتدل، لذلك كانت مصيفاً لأهل مكة، يأتونها في الصيف عندما تشتت حرارة مكة، وأن سبب اعتدال مناخها وطبيتها هوائها، وببرودة مائها، هو وقوع الطائف على منطقة مرتفعة، أما فهي الشتاء في باردة، وربما تجمد الماء فيها<sup>(٢)</sup>.

### **السكان:**

أغلب سكان الطائف من قبيلة تقييف المعروفة، وكان يسكن معهم جماعة من حمير وقوم من قريش، فالحميريون من أزد السراة، والقرشيون من كانة وعدرة، كما سكنها جماعة من هوازن والأوس والخزرج ومزينة وجهينة وهذيل، وإلى جانب هذه الطبقة من العرب كان يسكن الطائف جماعات من اليهود، أقساموا

(١) ياقوت الحموي: ج٤، ص١٢.

(٢) المصدر السابق: ج٤، ص١٠. ابن هشام: ق٢، ص٦٦.

فيها لممارسة نشاطهم التجاري، كما سكنها قوم من الروم<sup>(١)</sup>، وقد كانت تقييف  
سيدة الموقف في هذه المدينة وضررت المثل في الدفاع عنها والحفاظ على عزتها  
ومكانتها، وينسب إلى أبي طالب بن عبد المطلب القول:

منعنا أرضنا من كل حي  
كما امتنع بطاقةها تقييف  
أتأهلم عشر كي يسلبوهم  
فحالت دون ذلكم السيف<sup>(٢)</sup>

## الحياة الاقتصادية:

كانت الطائف المدينة الثانية في الحجاز من حيث الأهمية الاقتصادية، و  
اشتهر أهلها بممارسة حرفة الزراعة، وإلى جانب هذه الحرفة اشتغل أهل  
الطائف بحرف أخرى مثل تربية النحل وإنتاج العسل والتجارة، وقد ساعد اعتدال  
مناخ الطائف وخصوصية تربتها فضلاً عن توافر المياه العذبة فيها على قيام نشاط  
زراعي على نطاق واسع، واشتهرت الطائف من بين مناطق الحجاز بزراعة  
القمح، وعلى خطة الطائف كانت تعتمد كل حواجز الحجاز، وخاصة مكة، كما  
اشتهرت الطائف بفواكهها المتعددة الأنواع، وفي مقدمتها الأعناب والتمور ثم  
 يأتي الموز والرمان والتين والخوخ والبطيخ. وقد اشتهر تمر الطائف بجودته،  
 أما العنب فعليه تعتمد ثورة الطائف الاقتصادية<sup>(٣)</sup>.

(١) ياقوت الحموي: ج ٤، ص ١١.

(٢) المقدسي: ص ٧٩. ابن قتيبة، عيون الأخبار: ج ٣، ص ٢٢٧.

(٣) ابن قتيبة: ج ٣، ص ٢٠٥.

أما تربية النحل فكانت من الأعمال الهامة التي اشتهر بها أهل الطائف، وكان عسل الطائف يصدر إلى معظم المدن المجاورة، ويشكل مصدراً هاماً لثروة المدينة، كما مارس أهل الطائف حرفة التجارة وكانوا يتجررون في الزبيب والحنطة والعسل والأدم، وكانت القوافل تخرج إلى مكة حاملة هذه السلع كل يوم.

## المبحث الثاني

# أحوال العرب العامة

### أولاً: معنى مصطلح الجاهلية

قبل أن نتعرف أحوال العرب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية قبل الإسلام، لابد من وقفة قصيرة عند مصطلح (الجاهلية) و(العصر الجاهلي) الذي درج جمّهور واسع من المؤرخين والباحثين في الأدب - قديماً وحديثاً - على استخدامه عند تناول العصر الذي سبق الإسلام.

ولتوضيح معنى هذا المصطلح لا يجب الخلط بين الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه، أو انعدام المعرفة في لغتنا المعاصرة، وبين الجهل المناقض للحلم في اللغة العربية قبل الإسلام، فالجهل في لغة ما قبل الإسلام يعني الخضوع لسيطرة الانفعال والاستسلام لقوّة العاطفة دون الاحتكام إلى رزانة العقل وقوّة المنطق، وهكذا نفهم افتخار بعض الشعراء في هذا العصر بالقدرة على مقابلة الجهل بهذا المعنى بمثله، وذلك جرى على لسان أكثر من شاعر فقد قال عمرو بن كلثوم في طوبلته:

ألا لا يجهلن أحد علينا فتجهل فوق جهل الجاهلين

وقول آخر:

وبعض الحِلْم عند الجَهَل لِذَلِكَ إِذْعَانٌ

وذهب الفرزدق إلى المعنى نفسه في نقيضته المشهورة حين قال:  
أحلامنا ترن الجبال رزانة وتخالنا جنًا إذا ما نجهل

وكذلك الشريفي الرضي في قوله:  
وللحلم أوقات وللجهل مثلاً لها ولكن أوقاتي إلى الحلم أقرب

إذا فالجهل هنا ينصب على السلوك المنافي للعقل والمنطق، وهو كما يفهم من سياق الاستخدام من شعر ما قبل الإسلام، العدوان الذي لا سبب له ولا مبرر من جهة العقل والمنطق. إن التأويل الاجتماعي للغة الاستناد إلى مبدأ القوة والقهر في العلاقات بين القبائل من جهة وبين الأفراد والجماعات من داخل القبيلة من جهة أخرى، إنه المبدأ الذي صاغه زهير بن أبي سلمى الشاعر في قوله:

ومن لم يزد عن حوضه بسلامه يهدم... ومن لا يظلم الناس يظلم  
ولا شك أن العلاقات الاجتماعية القائمة على الظلم والجهل كانت من أهم  
أسباب التخلف العام في ذلك الواقع.

وهكذا نجد بين المعنى التاريخي لمصطلح الجاهلية، وبين معنى الجهل باستخدامنا المعاصر علاقة وصلة ووشائج، فعدم العلم وانتفاء المعرفة ركيزة أساسية للخضوع لسيطرة الانفعال والاستسلام لقوة العاطفة أو لنقل التعصب.

وبمرور الأيام تحولت كلمة (الجاهلية) في لغة ما بعد الإسلام إلى يومنا هذا لتكون مصطلحاً دالاً على مرحلة تاريخية في تطور المجتمع العربي، ولكن ما الفرق بين مصطلح (الجاهلية) ومصطلح (ما قبل الإسلام) من الناحية التاريخية؟.

إلى عهد قريب كان كثير من الباحثين يكتفون بدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام مقدمة لما يقومون به من أبحاث في العصور الإسلامية تحت عنوان (العصر الجاهلي)، ولما كان المقصود بالعصر الجاهلي هو العصر الذي سبق الإسلام بزمن لا يتجاوز لا (١٥٠ أو ١٠٠ سنة) على أكثر تقدير، وهو التاريخ الذي يمكن أن يرجع إليه أقدم ما يوثق به مما وصل إلينا من الشعر العربي أو من الأحداث التي عرفتها القبائل العربية مما عرف بأيام العرب، التي تداولها القصاص والرواية شفافها إلى أن سجلها أوائل المؤرخين الذين يعرفون بالأخباريين.

إن هذه الحقبة قصيرة نسبياً عندما يتعلق الأمر بتاريخ الأمم والشعوب ولا تفي بالغرض المطلوب بالنسبة للباحثين المهتمين بالدراسات التاريخية. وهذا ظهرت الحاجة إلى توسيع مجال البحث زمنياً إلى ما وراء المائة وخمسين سنة من تاريخ بلاد العرب حتى يتواافق من الناحية التاريخية ما اصطلاح على تسميته بالعصور الوسطى المبكرة "من القرن الثالث إلى القرن الخامس من ميلاد السيد المسيح" فكان من المناسب اتخاذ تسمية أخرى بدل تسمية العصر الجاهلي، فأطلق على هذه الدراسة تسمية "تاريخ العرب قبل الإسلام"<sup>(١)</sup>.

## ثانياً: الحالة السياسية

كان هناك نوع من التنظيم السياسي في أماكن التجمعات الرئيسية في إقليم الحجاز، ولكن ذلك التنظيم لم يكن قائماً على منهج منظم للإدارة، على نحو

---

(١) جواد علي: ج ١، ص ٤٠ وما بعدها.

ما نعرفه الآن، فقد كان الأساس في الحياة السياسية لعرب ما قبل الإسلام هو العصبية القبلية، حيث ألغت كل قبيلة جماعة مستقلة إلى حد ما، وكل فرد منها كان لا يرى في زعامة شيخ القبيلة أو سلطته إلا رمزاً لفكرة عامة شاءت الظروف أن يأخذ هو منها نصيب، بل كان مطلق الحرية في أن يرفض ما اجتمع عليه رأي الأغلبية من أبناء قبيلته، وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لنقل سلطة رئيس القبيلة، فكان يختار لها غالباً أكبر الأفراد سنًا وأكثرهم مالاً، وأعظمهم نفوذاً، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصي، وإذا ما تض الخمت قبيلة ما تشعبت فروعها كثيرة يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل.

كان شيخ القبيلة يتمتع بسلطات سياسية واسعة فهو الذي كان يحقق له إعلان الحرب والدعوة إلى السلام، وأن طاعته بين أبناء قبيلته تعد ديناً واجب الوفاء به، كما أن عليهم الدفاع عن سمعته.

ركن آخر من أركان القبيلة الأساسية يتمثل في شاعرها، فالشاعر هو صوت القبيلة والمعبر عن آرائها والمادح لأفعالها والذاكر لنسابها وفضائلها وتاريخها وهو المهاجم لأعدائها، لقد كان الشاعر في عصره يقوم بدور مهم في الحياة السياسية لا يقل عن دور أجهزة الأعلام في العصر الحديث.

من جانب آخر لم يعرف إقليم وسط الجزيرة العربية الاستقرار بسبب الحروب الكثيرة بين القبائل العربية التي عرفت في التاريخ باسم (أيام العرب)، وقد سميت هذه الأيام بأسماء الأماكن التي وقع فيها أبرز أحداثها، أو القبائل التي اشتراك فيها، وأشهر تلك الحروب: حرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب ابن وائل، وهما من القبائل العدنانية بسبب قتل ناقة، واستمرت حوالي ٤٠ عاماً التقوا خلالها في معارك كثيرة، وفشل كل مساعي الصلح بين الطرفين، وكذلك حرب

داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان بسبب سباق للخيول واستمرت لعدة سنوات وكذلك حروب الفجار التي أشرنا إليها<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: الحالة الاجتماعية

القبيلة هي الوحدة الأساسية في المجتمع العربي قبل الإسلام، وهي جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد مشترك، تجمعهم وحدة الجماعة وترتبطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة، ورابطة العصبية: هي شعور التضامن والتماسك والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم، وهي على هذا الأساس مصدر القوة السياسية والداعية التي تربط بين أفراد القبيلة.

وكان لكل قبيلة مجلس يتكون من شيوخها، يرأسه شيخ يختارونه من بينهم يسمونه الرئيس أو الشيخ أو الأمير أو السيد، وكان يشترط في اختياره أن يكون من أشرف رجال القبيلة، وأشدتهم عصبية وأكثرهم مالاً وأكبرهم سنًا وأعظمهم نفوذاً وتتوافق فيه شروط أخرى حسنة كالشجاعة والكرم ومساعدة الضعفاء ودفع ديات الفقراء من قبيلته، وأن يكون حكمه نافذاً على جميع أفراد قبيلته.

### طبقات المجتمع:

كان المجتمع القبلي قبل الإسلام يتكون من عدة طبقات هي: طبقة الأشراف وهم كبار القوم، وطبقة الموالى وتضم الحلفاء أيضاً، وأخيراً طبقة العبيد الذين يشترون من الأسواق أو يجلبونهم عن طريق الأسر في الحروب،

---

(١) جواد علي: ج ٤، ص ١٥٩ وما بعدها.

وهو لاء لا يتمتعون بحقوق كثيرة، كما أتقل كاهمهم بالواجبات ويعهد إليهم عادة بالأعمال التي يأنف العرب من القيام بها.

والأسرة في مجتمع الحجاز هي بيت العربي وملاده، ولقد عُرف العربي قبل الإسلام بحبه لأسرته وحمايته لها وتعبه في سبيلها، وكانت الأسرة تقوم على الزواج، وقد وجدت عدة أنواع من الزواج في ذلك العصر حرمتها الإسلام فيما بعد إلا زواج الصداق الذي أقره وأبقى عليه.

عرفت الأسرة في المجتمع القبلي قبل الإسلام تعدد الزوجات، كذلك الطلاق الذي كان بيد الرجل في معظم الأحيان، وكان العرب يفضلون البنين على البنات، وكان هذا أمراً طبيعياً في مجتمع قبلي يقوم على العصبية والنسب، وكانت البنات في منزلة أدنى، وذلك لاعتماد العرب على الذكور في الصيد والغزو والحروب<sup>(١)</sup>.

#### رابعاً: الحالة الاقتصادية

قامت الحياة الاقتصادية في وسط شبه الجزيرة العربية على نشاطين اقتصاديين أساسين هما الرعي والتجارة بالإضافة إلى الزراعة التي كانت محدودة في بعض المناطق التي توافرت فيها المياه، أما الصناعات فكانت بدوية وقليلة.

---

(١) جود علي: ج٤، ص٢٧١ وما بعدها.

إن طبيعة المناخ الجاف وشحة الأمطار كانت سبباً في ندرة الغطاء النباتي، لذلك احترف العرب مهنة الرعي وقاموا بتربية الحيوانات التي لا تتطلب تربيتها كميات وافرة من المياه والخضرة مثل الماعز والأغنام والجمال والخيول.

كذلك عرف عن العرب قبل الإسلام اشتغالهم الواسع في التجارة، حتى قيل "كل عربي تاجر" وكان هناك طريقان رئيسيان للقوافل التجارية أحدهما من الشمال إلى الجنوب يكون بمحاذاة البحر الأحمر، وهذا الطريق يتفرع في الشمال إلى فرعين: فرع إلى الشرق باتجاه بلاد الشام، وفرع إلى الغرب باتجاه فلسطين ومصر.

أما الطريق الثاني فكان يخترق جزيرة العرب من الغرب إلى الشرق، أي من البحر الأحمر إلى الخليج العربي مروراً بمكة، وفي وسط جزيرة العرب يتفرع هذا الطريق إلى فرعين أيضاً، فرع يتجه نحو الشمال الشرقي حتى يصل إلى الأبلة جنوب العراق "البصرة" في أعلى الخليج العربي بينما يتجه الآخر إلى الجنوب الشرقي ويسير بمحاذاة سواحل الخليج العربي مروراً بالبحرين حتى عمان.

وقد تعود أهل مكة على القيام برحلتين تجاريتين سنويًا الأولى في الصيف وتتجه شمالاً إلى بلاد الشام، والأخرى شتاء وتتجه جنوباً إلى بلاد اليمن، وقد حدثنا القرآن الكريم عن هاتين الرحلتين في سورة قريش.

وكان قصي بن كلاب زعيم قريش وأولاده من بعده قد نظموا هذه الرحلات وضمنوا انسياپ التجارة المكية بأمان من خلال الاتفاقيات التي عقدوها مع ملوك الدول المجاورة في العراق والشام واليمن والحبشة، فضلاً عن الاتفاقيات مع رؤساء القبائل التي تقع أراضيها على طرق التجارة بتأمين الحماية

والخدمات للقوافل التجارية التي تمر بها، ومجمل هذه الاتفاques المنظمة للنشاط التجاري اصطلاح على تسميتها بالإيلاف، الذي ورد ذكره في القرآن الكريم<sup>(١)</sup>. من جانب آخر عرفت شبه جزيرة العرب نشاطاً اقتصادياً من نوع آخر هو الأسواق الموسمية التي كانت تتنقل على مدار العام في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية، ولم يقتصر دور هذه الأسواق على التبادل السلعي والنشاط الاقتصادي فقط بل كان لها أدوار ثقافية واجتماعية، ومن أشهر هذه الأسواق: سوق عدن، وسوق عكاظ، وذو المجاز وغيرها<sup>(٢)</sup>.

---

(١) سورة قريش: ٢-١.

(٢) جواد علي: ج ٧، ص ٣١٨ وما بعدها.

## المبحث الثالث

### الحالة الدينية في الحجاز قبل الإسلام

عرب الحجاز مثل سائر الشعوب الأخرى عبدوا الآلهة، وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان، فحاولوا، كما حاول غيرهم، التقرب منها واسترضاءها ب مختلف الوسائل والطرق، ووضعوا لها أسماء وصفات وخطبواها بأسنتهم وقلوبهم، وكان الدين عند عرب الحجاز قبل الإسلام نتيجة تطور طويل وعوامل مختلفة، فكانت ديانتهم وثنية، وأهم معبوداتهم الحجارة والأشجار، وهذه الحجارة والأشجار لم تبعد لذواتها بل عبدت على أساس أنها بيوت الآلهة.

وتعد مكة قلب الحجاز النابض، الذي فيه البيت الحرام والкуبة المشرفة بيت إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- هذا البيت الذي جعله الله مثابة وآمنا كي يذكر فيه اسمه، هذا البيت لم يبق له المشركون قداسة وحرمة، بعد أن جعلوه بيته للأصنام وللطواغيت، تلك الأصنام التي قيل أن عددها بلغ ثلثمائة وستين صنماً، وكان العرب قبل الإسلام يأتون البيت فيطوفون به، وحظيت مكة بمكانة رفيعة نظراً لوجود الكعبة فيها، ولم يكن أهل الحجاز قبل الإسلام على دين واحد، وإنما كانوا ملأاً مختلفة ومذاهب شتى، منهم المؤمن بالله، ومنهم من آمن بالله لكنه أشرك بعبادته الأصنام زاعماً أنها تشفع له عند الله وتقربه منه، فكانوا يحجون إليها ويقدمون لها القرابين والهدايا، ويؤدون عندها المناسك والمشاعر وهؤلاء هم الوثنيون، ولكن بعضاً منهم آمن بالله منكراً الحساب، وببعضهم أنكر الخالق

ويوم الحساب على السواء، ومنهم الحنفاء الذين اهتدوا عن طريق التفكير إلى أن لهذا الكون خالقاً وأن ثمة حياة أخرى فيها يجازي الإنسان خيراً بخير وشراً بشر، يضاف إلى هؤلاء بطبيعة الحال أهل الكتاب أصحاب الديانات السماوية من اليهود والنصارى.

## أولاً:وثنية العرب،أصلها ومظاهرها

يكاد يجمع كتاب السيرة وأهل الأخبار على أن العرب قبل أن تتسرب إليهم الوثنية كانوا على دين إبراهيم وأنهم كانوا يحجون إلى البيت على أنه بيت لعبادة الله الواحد. ولكن كيف ومتى تحول العرب إلى الوثنية؟ وما الأصل في عبادتهم للأصنام، وما مظاهر الوثنية عندهم؟.

لقد اختلف المؤرخون في أصل عبادة العرب للأصنام، فمنهم من زعم بأنها محلية، ومنهم من قال بأنها مغلوبة من الخارج، ويذكر مؤيدو الرأي القائل بأنها محلية: أن أهل الموتى أرادوا إحياء ذكر إبراهيم، فنحتوا صوراً من الحجر على شكلهم تمثلاً وعبدوها بعد ذلك. ويقول الدكتور جواد علي: إن عبادة الأواثان التي كانت في قوم نوح، كانت في الأصل أشخاصاً صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلسونها أنصاباً، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تبعد، حتى إذا هلك أولئك ونوسخ العلم بهم عبدت<sup>(١)</sup>، على أن العرب لم ينحووا للأصنام لجهلهم بالفنون الجميلة، لذلك يرجح الرأي القائل بأن الأصنام مغلوبة من الخارج.

---

(١) جواد علي: ج٦، ص. ٧٠.

يؤكد ذلك ما ذكره مؤرخو العرب في قصة عمرو بن لحي، فيذكر ابن هشام أن عمرو بن لحي (زعيم خزاعة) خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم ماب من أرض البلقاء (الأردن) وبها يومن العماليق، رأهم يعبدون الأصنام، فقال لهم ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ فقالوا: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فنتصرنا، فسألهم أن يعطوه منها فأجابوه طلبه، وقدم مكة بueblo ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقة الحنفية، فأجابه جمهور وأكروه من لم يجده حتى تم ما له ما أراد<sup>(١)</sup>.

وهناك من يرى أن عمرو بن لحي جلب هبل من هيت بالعراق<sup>(٢)</sup>، مما يؤكد أن الأصنام مجلوبة من الخارج.

وهناك ورابة أخرى تقول أن عمرو بن لحي مرض مرضًا شديداً، فرحل إلى البقاء بالشام ليشفى في إحدى حماماتها، فاستحم وشفى ووجد أهل البقاء يعبدون الأصنام فأعجبه ذلك فطلب منهم صنماً من أصنامهم، فدفعوا إليه بهيل، فسار به إلى مكة، ووضعه في الكعبة<sup>(٣)</sup>.

أما سبب عبادة العرب للأوثان والحجارة، أنه كان لا يضعون من مكة ضاعن، إلا وحمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيمًا له، ويدرك أهل الأخبار أنهم كانوا يضعون هذه الحجارة أينما حلوا أو ارتحلوا، ثم يأخذون بالطواف حولها استشعاراً بها واستمرار لعادة طوافهم بالبيت، ثم أن الأمر آلت بهم في نهاية المطاف إلى عبادة هذه الأحجار بعد أن كانوا على دين إبراهيم فبعدوا الأوثان،

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٩٤.

٧٩، ج ٦، ص جواد علی:

<sup>۳)</sup> این هشام: ق ۱، ص ۹۴.

وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من ضلالات<sup>(١)</sup>، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتمسكون بها: مثل تعظم البيت، والطواف به، والحج، وال عمرة، والوقوف على عرفة، ومزدلفة، وإهادء البدن والإهلال بالحج وال عمرة مع إدخالهم فيه ما ليس فيه<sup>(٢)</sup>.

ومن أبرز مظاهر الوثنية عند العرب:

#### ١ - تقديس الأشجار والأماكن والأشياء المادية:

اعتقد بعض العرب قبل الإسلام بأن الأرواح تحل في بعض الأشجار فينظرون إليها نظرة تقديس، ويعرضون عن إلحاد الأذى بها أو قطعها، خوفاً من انتقام الروح التي حلت فيها، وكانوا يقدمون لها القرابين وينذرون النذور، ويتخذون مواضعها حرماء مقدساً يحجون إليها في بعض الأحيان<sup>(٣)</sup>.

وأشهر هذه الأشجار نخلة نجران التي جعلوا لها في كل سنة عيداً، وشجرة ذات الأنوات، وكانت شجرة عظيمة ملتفة الأوراق، متشابكة بالأغصان كانت بالقرب من مكة وكان يأتيها القرشيون ومن جاورهم من الأعراب كل سنة فيعكفون عليها ويدبحون عندها. فإذا قصدوا مكة للحج علقوا أرديتهم على أغصانها، ودخلوا الحرم بغیر أردية تعظيمًا للبيت، ولذا سميت "ذات الأنوات"<sup>(٤)</sup>.

---

(١) المصدر السابق والجزء: ص ٩٥.

(٢) جواد علي: ج ٦، ص ٧٧.

(٣) المصدر السابق: ج ٦، ص ٤٠-٤١.

(٤) يحيى الشامي: ص ١٠٩.

## ٢ - عبادة الكواكب والأجرام السماوية:

لقد نظر الإنسان إلى السماء فوقف بها وقفه المتخير معتقداً أن فيها قوى خفية تهيمن على هذا الوجود، وأن ثمة في أجرام السماء أرواحاً حية، الأمر الذي مال به إلى اعتبارها آلهة، أو إنصاف آلهة تهب الموت والحياة ف فهي تستحق العبادة والتكرير، ولعل في قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام - ووقوفه إزاء الشمس والقمر ما فيه الكفاية للدلالة على مثل هذا الشعور أو الإحساس الذي راود الإنسان، ويجب أن لا يغرب عن البال أن بني الله إبراهيم ما كان بالمشكك أو المنكر لوجود الله تعالى - حاشى ذلك - ولكن تساءل بلسان قومه الذين كانوا يعبدون الأصنام على سبيل التعجب والسخرية والإنكار والتدبر<sup>(١)</sup>.

والشمس هي أول الأجرام السماوية التي لفتت إليها أنظار البشر بتأثيرها في الإنسان وفي الزروع والنمو، وهذا التأثير جعل الإنسان يتصور في الشمس قدرة خارقة وقوة غير منظورة كامنة فيها، فعبدتها وألهها، وقد تبعد العرب للشمس في موضع مختلفة في جزيرة العرب وترجع عبادتها إلى ما قبل الميلاد، في زمن لا نستطيع تحديده، لعدم وجود نصوص تكشف لنا وقت ظهور عبادة الشمس عند العرب<sup>(٢)</sup>، ويبدو أن عبارة الكواكب جاءت العرب عن طريق الصابئة وبقايا الكلدان الذين تأثر بهم العرب، حتى الآلهة الأرضية ونعمتي بها الأصنام فإنها - حسبما تذهب بعض المصادر - إلا تمثيلاً لما علاها وعلاهم من الجواهر العلوية والأجسام السماوية التي هي سبعة من الأشخاص الفلكية

---

(١) يحيى الشامي: ص ١٠٣.

(٢) جواد علي: ج ٦، ص ٥٥.

الرئيسية المؤلفة من الشمس والقمر وطارد والزهرة، والمريخ والمشتري وزحل، وبحسب رأي العديد من الباحثين فإنه يمكن إرجاع عبادة العرب لآلهة الفلك والسماء إلى ثالث معبد هو القمر (واسمها ود) عند المعينيين، و الشمس (وهي اللات) وعشتراء، والعزى وهي الزهرة ألمع الكواكب بعد الشمس والقمر<sup>(١)</sup>.

## ثانياً: التحف والأديان السماوية

إلى جانب الوثنية وجدت في الحجاز عقائد موحدة وأديان سماوية رفض أصحابها أي مظاهر من مظاهر الشرك والكفر، وعلى الرغم من قلة عدد هؤلاء إلا أن أثراهم في الحياة الاجتماعية كان واضحاً وأهم هذه العقائد.

### - الحنيفة:

الحنفاء في اللغة من حنف (ح ن ف) والحنيف المسلم، وتحنف الرجل عمل الحنيفة، ويقال اعزل الأصنام وتعبد<sup>(٢)</sup>.

والحنف: الاستقامة - وحنف: مال - والحنيف الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه وكل من حج أو كان على دين إبراهيم -عليه السلام-.<sup>(٣)</sup>. والحنفاء اصطلاحاً هم الذين اهتدوا عن طريق التفكير إلى أن لهذا الكون خالقاً وأن ثمة حياة أخرى يجازى بها الإنسان.

(١) يحيى الشامي: ص ١٠٤-١٠٦.

(٢) الرازبي مختار الصحاح: ص ١٥٩ (حنف).

(٣) الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس: ص ١٥٨.

وحنيف في الأصل "صابيء" أي خارج من ملة قوم، تارك لعبادتهم، والحنفاء كما يفهم من روایات أهل الأخبار، كانوا طراراً من الناسك، نسقوا في الحياة الدنيا وانصرفوا إلى التعبد للإله الواحد الأحد إله إبراهيم وإسماعيل، ومن أشهر الرجال الذين قال عنهم أهل الأخبار كانوا من الأحناف: قس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نفیل، وأمية بن أبي الصلت، وأربابا بن رتاب، وورقة بن نوفل القرشي، وعبد الله بن جحش الأستدي<sup>(١)</sup>، وذكروا أن هؤلاء التقوا ذات يوم فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطوف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم دينا، ففرقوا في البلاد يتلمسون الحنفية دين إبراهيم. فأما ورقة ابن نوفل فقد خرج إلى بلاد الشام يبحث عن الحنفية فدخل النصرانية وعاد إلى مكة حيث مات في الأيام الأولى للبعثة النبوية، وأما عبد الله بن جحش فقد ظل متسلباً في أمره لا يشارك قريشاً في عبادتها حتى جاء الإسلام فأسلم ثم ارتد ودخل النصرانية، وكان زيد بن نفیل قد اعتزل أيضاً عبادة قريش وأخذ يهاجم معتقداتها فأخذت قريش تؤذيه وتضيق عليه فخرج من مكة ينشد دين الحنفية، وقيل أنه قتل في بلاد الشام حين عزم على الرجوع إلى مكة بعد سماعه ببعثة النبي محمد ﷺ<sup>(٢)</sup>، ولقد كان للحنفية أثر كبير في إضعاف عبادة الأواثان وإعداد العرب قبل الإسلام وتهيئتهم لعقيدة التوحيد.

(١) جواد علي: ج ٦، ص ٤٦٨.

(٢) محمد عثمان علي: دراسات في أدب العرب قبل الإسلام، ص ٨٤.

## ٢- اليهودية:

يقيم اليهود عاد في القرى والمدن حيث المال والاستقرار وأسباب الزراعة والتجارة والصناعة، ولا سيما في يثرب، وقد سبق الحديث عنهم في هذه المدينة، كما كان لهم وجود في تبوك وتيماء، ويبدو أنه لم تكن لليهود جاليات كبيرة في مكة، لعدم وجود إشارات في المصادر إليهم، ولا يستبعد وجود أفراد أو أسرة منهم في مكة، غير أن وجودهم في هذا الموضع لم يكن له أثر واضح فلم يتجاوز محيط التجارة والاتجار<sup>(١)</sup>.

## ٣- النصرانية:

أقام النصارى في عدة مواضع من شبه الجزيرة العربية، ولا سيما في بلاد اليمن وبحران وفي المناطق الشمالية المجاورة للعراق ولبلاد الشام، وكان بين سكان مكة عند ظهور الإسلام جماعة من النصارى هم من الغرباء النازحين إليها لأسباب عديدة منها: الرق والاتجار والتبشير والحرف، فأما الرقيق فمنهم الأسود والأبيض، والأسود من أفريقيا، والأبيض من أوروبا، أو من أقطار الشرق الأدنى، وكان من بين هؤلاء النصارى عدد كبير من الأحباش<sup>(٢)</sup> ويمكن إرجاع أسباب اعتناق بعض سكان الحجاز للديانة النصرانية إلى تأثيرهم بالقصاوسة والرهبان، أو نتيجة سفرهم إلى بعض المدن أو البلدان المجاورة التي تسود فيها هذه الديانة.

---

(١) جواد علي: ج ٦، ص ٥٣٠.

(٢) المصدر السابق: ج ٦، ص ٥٠٥.

### ثالثاً: الكعبة وأشهر أصنام العرب

كعبة مكة تمثل بيته من أعظم بيوت العرب قاطبة لأنها حظيت بمكانة رفيعة لا يدانيها فيها أي بيت من البيوت، إنها البيت الحرام الذي أمر الله تعالى نبيه إبراهيم ومعه ولده إسماعيل بإرساء قواعده وبشرع مناسكه وإقامة مشاعره، ليعبد فيه الله تعالى، وليدرك فيه أسمه بالغدو والآصال، وكيف لا تحظى الكعبة بهذا المقام الرفيع وهي أقدم بيت للعبادة.

أما أشهر الأصنام التي عبدها عرب الحجاز فهي:

#### - هَبَلُ:

"بالضم ثم الفتح، وزن زُفْر، أظنه من الهايل وهو الكثير اللحم والشحم"<sup>(١)</sup>. وهناك تفسيرات أخرى لكلمة هبل على أنها الهبة ومعناها القبلة، وآخر بالهيللي بمعنى الراهن كذلك هبل بمعنى الغنم، وغيرها من التفسيرات، ويرجع اضطراب الناس والعلماء في تسميته إلى أنه استورد من الخارج وحافظ على تسميته الأصلية<sup>(٢)</sup>، وكان هبل أعظم الآلهة الوثنية في مكة، وكان موضعه داخل الكعبة، وهو مصنوع من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب، وكان أول من نصبه خزيمة بن مدركة بن إياس بن مصر، وكان يقال له هبل هزيمة، وهناك روايات تتسبّب هبل إلى عمرو بن لحي، تقول أنه جاء به إلى مكة من العراق فنصبه على البئر

(١) ياقوت الحموي: ج ٥، ص ٣٩١.

(٢) جواد علي: ج ٦، ص ٢٥٢.

في بطن الكعبة، فكان الرجل إذا قدم من سفره بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت  
فحلق رأسه عنده<sup>(١)</sup>.

وكان عند هبل سبعة قداح، كل قدح منها فيه كتاب، وقدح فيه العقل  
(الدية)، وإذا اختلفوا في من يحمل (العقل) منهم ضربوا بالقداح السبعة قدح فيه  
نعم" للأمر إذا أرادوه يضرب به في القداح، فإن خرج قدح "نعم" عملوا به،  
وقدح فيه لا إذا أرادوا أمراً ضربوا به في القداح، فإن خرج ذلك القداح لم يفعلوا  
ذلك الأمر، وقدح فيه "منكم" وقدح فيه "ملصق" وقدح فيه "من غيركم" وقدح فيه  
"المياه" إذا أرادوا أن يحرقوا للماء ضربوا بالقداح، وفيها ذلك القدح، فحيثما خرج  
عملوا به، وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا منكحاً، أو يدفنوا ميتاً أو  
ش��وا في نسب أحدهم، ذهبوا به إلى هبل وبمائة درهم وجزور، فأعطوهها  
صاحب القداح الذي يضرب بها، ثم قربوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون،  
ثم قالوا: يا إلينا هذا فلان بن فلان قد أردنا به كذا وكذا، فأخرج الحق فيه، ثم  
يقولون لصاحب القداح: اضرب، فإن خرج عليه "منكم" كان منهم وسيطاً، وإن  
خرج عليه "من غيركم" كان حليفاً وإن خرج عليه "ملصق" كان على منزلته فيهم  
لا نسب له ولا حلف، وإن خرج فيه شيء مما سوى هذا يعلمون به "نعم" عملوا  
به وإن خرج "لا" آخره عاماً ثم عاودوا الكرة في العام التالي. وعند هبل ضرب  
عب المطلب بالقداح على ابنه عبد الله<sup>(٢)</sup>. ويبدو أن هبل كان صنماً معبوداً على  
نطاق واسع، ومن الأصنام التي لها شأن كبير عند مشركي عموم منطقة الحجاز

---

(١) جواد علي: ج ٦، ص ٢٥١.

(٢) ابن هشام: القسم الأول، ص ١٥٢-١٥٥.

يأتونه مستقsmين ويأتونه حاجين ملبيـن ويقولون لـبيك الله لـبيك، إـننا لـقاـح، حـرمـتـاـ على أـسـنـةـ الرـماـحـ، يـحـسـدـنـاـ النـاسـ عـلـىـ النـجـاحـ<sup>(١)</sup>.

### - إـسـافـ وـنـائـلـةـ:

يـقـولـ اـبـنـ هـشـامـ كـانـ إـسـافـ وـنـائـلـةـ رـجـلـاـ وـأـمـرـأـةـ منـ جـرـهـ، فـوـقـ إـسـافـ عـلـىـ نـائـلـةـ فـيـ الـكـعـبـةـ فـمـسـخـهـمـاـ اللـهـ حـرـبـينـ، فـأـخـرـجـاـ إـلـىـ الصـفـاـ وـالـمـرـوـةـ فـنـصـبـاـ عـلـيـهـاـ لـكـيـونـاـ عـبـرـةـ وـمـوـعـظـةـ، فـلـمـ طـالـ مـكـثـهـمـاـ وـعـبـدـتـ النـاسـ الـأـصـنـامـ عـبـداـ مـعـهـاـ، وـكـانـ أـحـدـهـمـاـ بـلـصـقـ الـكـعـبـةـ وـالـآـخـرـ فـيـ مـوـضـعـ زـمـزـمـ، فـنـقـلـتـ قـرـيـشـ الـذـيـ بـلـصـقـ الـكـعـبـةـ إـلـىـ الـآـخـرـ، فـكـانـواـ يـنـحرـوـنـ وـيـذـبـحـوـنـ عـنـدـهـاـ، وـيـذـكـرـ أـنـ عـمـرـوـ بـنـ لـهـيـ هـوـ الـذـيـ وـضـعـ إـسـافـ وـنـائـلـةـ كـلـ وـاـحـدـ مـنـهـمـاـ عـلـىـ رـكـنـ مـنـ أـرـكـانـ الـبـيـتـ، فـكـانـ الطـائـفـ إـذـاـ طـافـ بـدـأـ بـإـسـافـ فـقـبـلـهـ وـخـتـمـ بـهـ<sup>(٢)</sup>.

### - الـلـاتـ:

الـلـاتـ مـنـ الـأـصـنـامـ الـقـدـيمـةـ الـمـشـهـورـةـ عـنـدـ الـعـرـبـ وـكـانـتـ صـخـرـةـ مـرـبـعـةـ بـيـضـاءـ، بـنـتـ تـقـيفـ عـلـيـهـاـ بـيـتاـ صـاـوـرـاـ يـسـيرـوـنـ إـلـيـهـ، يـظـاهـوـنـ بـهـ الـكـعـبـةـ وـلـهـ صـحبـةـ وـكـسـوـةـ وـيـحـرـمـونـ وـادـيـهـ، وـكـانـتـ سـدـانـتـهـ لـآلـ أـبـيـ العـاصـ مـنـ تـقـيفـ، وـكـانـتـ قـرـيـشـ وـجـمـيعـ الـعـرـبـ يـعـظـمـوـنـهـ أـيـضاـ، وـيـتـقـرـبـوـنـ إـلـيـهـ، وـكـانـ مـبـعـدـ الـلـاتـ الشـهـيرـ فـيـ الطـائـفـ يـقـصـدـهـ النـاسـ لـلـتـرـكـ بـهـ<sup>(٣)</sup>.

(١) جـوـادـ عـلـيـ: جـ٦ـ، صـ٢ـ٥ـ١ـ.

(٢) الـمـصـدـرـ السـابـقـ: جـ٦ـ، صـ٢ـ٦ـ٦ـ.

(٣) يـاقـوتـ الـحـموـيـ: جـ٥ـ، صـ٢ـ٥ـ٤ـ.

## - العزى :

وهي من الآلهة التي عبدها العرب عامة وقريش خاصة، وكانت رفيعة المنزل عندهم لدرجة أن المنذر بن ماء السماء قدم لها أربعمائة من أسرى الغساسنة ضحايا والعزى صنم أنتى وهي أحدث عهدا من اللات ومناة، وأما الذي اتخذ العزى فهو ظالم بن سعد، والعزى كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطfan، وسدنتها من بني صرمة بن مرة، وكانت أعظم الأصنام عند قريش وكانوا يزورونها ويهدون لها وينقربون إليها بالنباح، وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فإنهن الغرانيق العلي وإن شفاعتهن لترتجى، وكانوا يعتقدون بأنهن بنات الله وهن يشفعن إليه، وكانت التلبية عند العزى هي: "لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك، وما أحبتنا إليك"<sup>(١)</sup>.

## - مناة :

وهي الثالثة من مثلث الشرك إضافة إلى اللات والعزى، ومناة لعله يكون من المناة وهو القدر، وكأنهم أجروه مجرى ما يعقل ويجوز أن يكون من المنا وهو الموت كأنه لما نسب الموت إليه تسمى به، ويجوز أن يكون من مناه الله بحبها أي ابتلاه كأنه أراد أنه المبتلى، ومناة اسم صنم في جهة البحر مما يلي المثل يقيد بين المدينة ومكة والذي نصبه في ذلك الموضع عمرو بن لحي.

وكانت مناة للأوس والخزرج وغسان من الأزد ومن دان بدينهم من أهل يثرب وأهل الشام، وكانت على هيئة صخرة وتعبدها هذيل أيضا، وكان الأوس والخزرج ومن كان على دينهم من عرب أهل يثرب وغيرها، يحجون ويقفون

(١) جواد علي: ج ١، ص ١٧٥.

مع الناس موافق الحج كلها ولكن لا يحلقون رؤوسهم، فإذا نفروا من حجهم أتوا مناً وحلقوا رؤوسهم عندها، وأقاموا بقربها، ولا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك، وكان من عادة الآوسيين والخزرجيين أن يهلووا لها ومن أهل لها يطف بين الصفا والمروة. وكانوا إذا أهلووا بحج أو عمرة لم يستظل أحدهم بسقف بيت حتى يفرغ من حجته أو عمرته، وكان الرجل إذا أحرم لم يدخل بيته وإن كانت له فيه حاجة، وإذا اضطر إلى الدخول تصور من خلف البيت حتى لا يظله سقفه<sup>(١)</sup>، فلما جاء الإسلام أبطل هذه العادة وأنزل الله الآية الكريمة: ﴿ولِيَسَ الْبَرُّ أَنْ تَأْتُوا بِالْبَيْتِ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكُنَّ الْبَرُّ مِنْ أَنْقَى...﴾<sup>(٢)</sup>، وكانت نهاية مناً على يد علي ابن أبي طالب رض الذي بعثه الرسول ﷺ لهدمها، فهدمها وأخذ ما كان لها، وجاء به إلى النبي، فكان فيما أخذ سيفان أحدهما اسمه "مخداً" والآخر "رسوباً"، كان الحارث بن أبي شمر الغساني قد أهداهما لها، فوهب الرسول السيفين لعلي، ويقال أن ذا الفقار سيف على، أحدهما، وكان ذلك عام الفتح سنة ثمان للهجرة، وكانت اللات والعزى ومناً، مثلث الشرك الجاهلي، قد ذكرهن الله في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْلَّاتَ وَالْعَزِيزِ وَمِنَةَ الْإِثْلَاثَةِ الْأُخْرَى﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) الأزرقي: ج ١، ص ٧٩.

(٢) البقرة: ١٨٩.

(٣) النجم: ٢٠-١٩.

### - مناف:

وهو من أصنام العرب قبل الإسلام وكان مستقبل الركن الأسود وله غبغان أسود من حجرة ينبع بهما الذبائح، وقد تعبدت له قريش ولحيان، وورد ذكر "مناف" بين عرب الشام، يبدو أنه كان معبوداً عندهم كذلك<sup>(١)</sup>.

### - الصنمان المجاور ومطعم الطير:

وهما صنمان كانا منصوبين على الصفا والمروة مقابل الكعبة، الأول يقال له مجاور الريح والثاني مطعم الطير، ويقال أن عمرو بن لحي هو الذي نصب على الصفا صنماً يقال له: مطعم، ويقال أن الناس كانت تتضع عندهما شيئاً من الحبوب فتأتي الطير فتأكلها.

### - سواع:

أصل تسميته غامض، وكانت تعده بني كانه وهذيل ومزينة وعمرو بن قيس عيلان، ويقال أن هذيل اختصت بعبادته أكثر من غيرها.

### - يعوق:

صنم في اليمن في قرية خيوان التي تقع على بعد ليالتين من صنعاء، وكانت تبعد بني همدان.

---

(١) ياقوت الحموي: ج ٥، ص ٤٢٠.

### - يغوث:

موضعه في اليمن أيضاً في منطقة يقال لها مزحج، ولا يعرف عنه الشيء الكثير ويبدو أنه كان من الآلهة المحلية التي لم تنتشر عبادتها في مناطق أخرى.

### - ود:

مكانة في دومة الجندل، وكان أول من عده عوف بن عذرة، من بنى كلب، وكان بعضهم يهدونه اللبن، وهو عبارة عن تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، وقد نقشت عليه حلثان متزر بواحدة ومرتد بأخرى، عليه سيف قد تلقده وقد تتکب قوساً، وبين يديه حربة فيها لواء، وجعبة فيها نبل، وقد بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد من غزوة تبوك لهدمه، فلما قاتلها شديدة من أتباعه، فقاتلهم وتمكن من هدمه<sup>(١)</sup>.

### - ذو السرى:

يبدو أن اسمه مشتق من جبال السراة، وقد عده الأنباط وكان عندهم على هيئة صخرة مربعة ارتفاعها أربعة أقدام وطولها قدمان، وهو ضم لبني الحارث بن يشكر من الأزد<sup>(٢)</sup>.

---

(١) ابن الكلبي، الأصنام: ص ٢٨-٥٦.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٧.

- نسر:

لم يشع ذكره كثيراً ولم يتسم به أحد، وكان مكانه في اليمن في موضع من أرض سباً، وكانت تعبده حمير وما جاورها<sup>(١)</sup>.

- الفنس:

هذا الضم كان عبارة عن أخدود في وسط جبل أجا، شكله يشبه شكل إنسان كانت تعبده طي وتهدي إليه، وسنته من بنى بولان، وكان يجأ إليه الخائفون والمطاردون وظلت عبادته قائمة حتى جاء الإسلام<sup>(٢)</sup>.

- ذو الخلصة:

كان موضع هذا الضم بمنطقة تبالة بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة، وكانت تعبده خثعم وبجيلة وأزد السراة ومن أقاربهم من بطون العرب من هوزان، وكانوا يستقسمون عندها بالأزلام ويهدون إليها الشعير والخنطة ويصبون عليها اللبن، وبعد فتح مكة كان من جلة الوافدين على الرسول محمد ﷺ جرير بن عبد الله البجلي، فطلب إليه الرسول أن يهدم ذا الخلصة، فخرج جرير لذلك وقاتلته خثعم وباهلة من أجله، فقتل منهم خلقاً كثيراً وظفر بهم وهدم بناء ذي الخلصة وأحرقه<sup>(٣)</sup>.

---

(١) المصدر السابق: ص ١١.

(٢) المصدر السابق: ص ٥٩.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٥-٣٦.

يضاف إلى تلك الأصنام المعروفة أصنام أخرى كثيرة ولكنها أقل أهمية وعبادتها محدودة، فضلاً عن وجود أصنام خاصة في البيوت، وكان عندهم إلى جانب الأصنام بيوت للعبادة يسمونها "الطواوغيت" وهي بيوت تتظمها العرب كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، وتهدي لها كما تهدي الكعبة، وتطوف بها كطوافها بها وتتحرر عندها<sup>(١)</sup>.

### - مفهوم الحرم:

قيل سمي "الحرم" حرماً لحرمة الناس فيه كثيراً مما ليس بمحرم في غيره من المواقع، ولا يجوز لأحد انتهاك حرمة الحرم والاعتداء عليه، وإذا دخل إنسان الحرم صار آمناً مطمئناً، ولا يجوز أن يعتدي عليه، ولا أن يمس بسوء، وإن كان قاتلاً، وحدود الحرم أنصابه، وهي علاماته، فمن اجتازها ومسلر داخلها دخل في حرمة الحرم، ولمكانة الحرم في نفوس الجاهليين، ولأنه موطن آمن، من دخل فيه صار آمناً، كان لابد من تحديده ووضع معالم تشير إلى نهايته، إما بوضع أنصاب على أطرافه، وإما ببناء حاجل كجدار أو سياج، وقد جعل أهل مكة حدود البيت أنصاباً من تجاوزها إلى الداخل صار من حرمة الحرم وفي حماية رب البيت، وكانت أرض الحرم واسعة في الأصل، ثم تقلصت وضيقـت وحددت بحدود، بسكن الناس حولها، كالذى حدث بمكة، إذ كان الحرم واسعاً كبيراً، يشمل الوادى كله، فلما هبط "قصي" به وابتلى البيوت، اعتدى من جاء بعده على الحرم حتى صغر، وقد كانت الكعبة أقدم موضع عند قريش وعند

---

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٨٣.

غيرهم من عبادة الأصنام الذين كانوا يقدسون "البيت الحرام" وذلك بسبب وجود الأصنام فيه<sup>(١)</sup>.

### - كسوة الكعبة:

كسوة الكعبة عادة قديمة، كان يقوم بها العرب قبل الإسلام، ويدرك ابن هشام أن تبع الحميري أول من كسا الكعبة في الجاهلية، فكساها الخصف (حصر من خوص النخل) ثم كساها المعافر، ثم كساها الملاء والوصلائل (ثياب يمنية)<sup>(٢)</sup>. ويظهر من روایات أهل الأخبار أن كسوة الكعبة لم تكن كسوة واحدة ولا من نسيج واحد، بل كانت انتطاعاً، أي بسط من أدم، وحبرة وبروداً، وكسبت بمطارف الخز الخضراء والصفراء وبشقاق الشعر والكرار وهو الخيش الرقيق، والحرير. وأول من كسا البيت الحرير "نتيلة بنت جناب بن كلبي" وهي من بنى عامر، وكان العباس بن عبد المطلب، قد ضاع وهو صغير فنذرته أمه إن وجدته أن تكسو البيت الحرير، فسكته، فهي أول من كسا ذلك. وقيل أن أول من كسا البيت الديباج خالد بن جعفر بن كلاب، وروي أنهم كانوا يكسون الكعبة يوم عاشوراء، ويكسونها يوم التروية<sup>(٣)</sup>.

وذكر أن قريشاً كانت ترافق في كسوة الكعبة فيضربون ذلك على القبائل بقدر احتمالها منذ أيام قصي بن كلاب إلى أن ظهر أبو ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكان مختلفاً إلى اليمن يتجر بها، فأثرى من الماء،

---

(١) جواد علي: ق ٦، ص ٤١٣-٤١٤.

(٢) ابن هشام: ق ١، ص ٣٩.

(٣) جواد علي: ج ٦، ص ٤٤٣.

فكان يكسوها وحده سنة، وجميع قريش تكسوها سنة أخرى على التعاقب، ويبدو أنهم كانوا يضعون الأكسية الجديدة فوق الأكسية القديمة فلا يرعنونها عنها، وكانت تتراءم بعضها فوق بعض<sup>(١)</sup>، وأول من حلّ البيت عبد المطلب لما حفر زمزم وأصاب فيه من دفن جرهم غزالتين من ذهب فضربهما في باب الكعبة<sup>(٢)</sup>.

### بعض مظاهر الوثنية العربية:

#### - الكهانة:

كان للعرب قبل الإسلام طقوس خاصة للعبادة في الكعبة وخارجها إرضاء للآلهة بالتقرب إليها وتنفيذ أوامرها، ومن مظاهر الشرك عندهم أنهم اتخذوا الكاهن وسطاء بينهم وبين الآلهة، واعتقدوا أن منهم المطلعون على الأسرار، وهم العالمون بالغيب، وهم الذين اختصوا بالمعرفة من بين سائر الناس، ويقضون بالأمر، والكافر هو الذي يشرف على الاحتفالات الدينية وينظم الطوافات ويشهد تقديم القرابين للآلهة.

#### - الاستقسام بالأذلام:

ومن مظاهر الشرك بالله ذات الصلة بالكهانة والكافر، الاستقسام بالأذلام، وكان العرب في الجاهلية يفعلونه بقصد معرفة عاقبة فعل يريدون فعله، هل هي النجاح والنفع أو هي خيبة وضر، والزلم: هو القدر الذي لا ريش عليه والجمع أذلام بضم الزاي، وهي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها،

---

(١) جواد علي: ج ٦، ص ٤٤٤.

(٢) ياقوت الحموي: ج ٤، ص ٤٦٦.

وزلم القدح سواه ولينه، والقداح أو الأذلام هي عبارة عن سهام غير متصلة يضربونها أي يستقسمون بها عند الأصنام<sup>(١)</sup>.

ومن أشهر صور الاستقسام بالأذلام ثلاث قطع إحداهم مكتوب عليها "أمرني ربى"، وربما كتبوا عليها "أ فعل" ويسمونه الأمر، والأخرى مكتوب عليها "نهاني ربى" أو "لا تفعل" ويسمونه الناهي، والثالث عقل أي متزوك بدون كتابة. والصورة الثانية للأحكام وهي العقل في حالة الديمة، وفي حالة إثبات النسب حيث هناك أقداح مكتوب عليها "منكم" من غيركم" و"ملحق" وقد سبق الحديث عنها عند حديثنا عن "هبل".

أما قداح الميسير فهي سهام عشرة يتم الاستقسام بها للمقامر على أجزاء جذور ينحرونه ويتقاضرون على أجزائه، أما ما يوضع في القداح فهو القربة الصغيرة وهي من الجلد والجعنة والكنانة التي تستعمل لحمل سهام الرمي.

وكان العرب قبل الإسلام إذا أرادوا سفراً أو تجارة أو نكاحاً أو اختلفوا في نسب أو أمر قتيل أو تحمل عقل أو غير ذلك من الأمور العظيمة جاءوا إلى "هبل" أو ذهبوا إلى صنم "ذى الخلصة". وكانوا يأتون إلى الصنم ويقدمون بين يدي السادن الذي يقوم بضرب القداح مائة درهم وجزوراً، تعطى جميعاً لصاحب القداح، والظاهر أن سدنة بيوت الأصنام كانت لهم أساليب وحيل للإقناع.

### - الهدايا والنحر:

من المعروف أن للتضحية ولتقديم القرابين للآلهة أهمية كبيرة عند جميع الأمم الوثنية وقلما استثنى منها أمّة لم تمارس هذه الشعيرة التي تدخل في صلب

(١) يحيى الشامي: ص ٦٣ - ٦٩.

عقيدة تعدد الآلهة والعبادة للأصنام، فهي عادة وثنية عرفتها جميع الأمم والقبائل منذ فجر التاريخ، فقد كان العرب قبل الإسلام يعظمون البيت بالدم، ويقتربون إلى أصنامهم بالذبائح، ويررون أن تعظيم البيت أو الصنم لا يكون إلا بالذبح، وأن الذبائح من تقوى القلوب، والذبح هو الشعار الدال على الإخلاص في الدين عندهم، وكان الجاهليون يريقون دم الضحية على الأنصاب، وهي موضوعة في الكعبة، ويمسحون به جدران الكعبة، وذبح الهدايا على اختلافها كان يتم في مواسم معينة، إما تقرباً من الآلهة أو وفاء لنذر، أو برأ بيدين أو إنجاز لوعده موعود، أما الحجر الذي كان يذبح عنده للأصنام فاسمه "الغرى"<sup>(١)</sup>.

ومن مظاهر تكريم المشركين للآلهة وتعظيمهم لها والتقرب منها، أنهم كانوا يقومون بخدمتها، ويبذلون لها شيئاً مما يملكون من الأموال النقدية وغير النقدية من عين ومتاع، ولم يدخل الجاهليون على أصنامهم، فقدموا لها حتى المأكل والمشرب لاعتقادهم أنها تسر بذلك وتقرح، فقد علقوا على "ذى الخصبة" القلائد وبيض النعام والبرد النفيسة، وقدموا له الحنطة والشعير واللبن أيضاً ليشرب منه وذبحوا له<sup>(٢)</sup>.

وللنذر دور خطير في الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام، وهي متعددة قد تكون ذبيحة، وقد تكون جملة ذبائح وقد تكون نقوداً، وقد تكون فاكهة أو زرعاً، وقد تكون أرضاً، أو حبساً لإنسان يهبه نفسه أو مملوكه أو ابنه للآلهة، وقد يوهب ما في بطن امرأة أو ما في بطن حيوان، وقد يكون النذر حيوانات حية، وهي أغلب هداياهم، وقد ذكر الله تعالى هذا النوع الأخير من

(١) جواد علي: ج ٦، ص ١٩٦.

(٢) المصدر السابق: ج ٦، ص ١٨٩.

الهدايا في الآية الكريمة: (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرون لا يعقلون)<sup>(١)</sup>. فما هذه الأنواع التي ذكرها القرآن الكريم.

### أ- البحيرة:

لقد جاء في كتب التفسير أنهم كانوا يمنعون در الناقة مدة من الزمن، فما يليها أحد من الناس وذلك ليكون نتاجها خالصاً لطواوغتهم وبيوت آلهتهم التي كانوا بها يؤمدون، وهذه الناقة التي يحبس درها يقال لها البحيرة، وينظر ابن هشام أن البحيرة هي بنت السائبة، والسائلة الناقة إذا تابعت بين عشر إثاث ليس بينهن ذكر، سببت، فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف، مما نتجت بعد ذلك من أثني شقت أذنها ثم أخلي سبيلها مع أمها<sup>(٢)</sup>.

وهناك من يقول أن البحيرة هي التي يمنع درها للطواوغية، فلا يحلبها أحد من الناس، وقيل لها بحيرة لأنهم بحرموا أذنها أي شقوها، بينما يورد بعضهم أن البحيرة هي التي يحرم أهل الجاهلية وبرها وظهرها ولحمها ولبنها إلا على الرجال، فما ولدت من ذكر أو أنثى فهو على هيئتها، وإن ماتت اشترك الرجال والنساء في أكل لحمها، وورد كذلك أن البحيرة من الإبل: الناقة إذا نهشت خمسة أطنان أحرروا الخامس إن كن سقباً، وإن كان أربعة شقوا أذنها واستحيوها وهي

---

(١) المائدة: ١٠٣.

(٢) ابن هشام: ق، ١، ص ٨٩-٩٠.

بحيرة، وكان أول من بحر البحائر عمرو بن لحي، إذ قيل إنه أول من بحر البحيرة وسبب السائبة<sup>(١)</sup>.

### ب- السائبة:

أما السائبة فهي الناقة التي تسبّب للآلهة فلا يحمل عليها شيء، وقيل هي الناقة التي ينذر الرجل أن يسبّبها إن برع من مرضه، أو إن أصابه أمراً يطلب به، فإذا كان أصاب ناقة من إبله، أو جمالاً لبعض آلهتهم، فسابت ورعت لا ينتفع بها<sup>(٢)</sup>.

### ج- الوصيلة:

الوصيلة من الغنم هي الشاة تلد أنثى بعد أنثى فتسمى الأم الوصيلة لأنها وصلت أنثى بأنثى، وقد فسرها ابن هشام قائلاً: إن الوصيلة هي الشاة إذا أتمت عشر إناث متتابعات في خمس أبطن، ليس بينهن ذكر، جلت وصيلة.

قالوا: قد وصلت، فكان ما ولدت بعد ذلك للذكور منهم دون إناثهم إلا أن يموت منها شيء، فيشترون في أكله ذكرهم وإناثهم<sup>(٣)</sup>، وقد يطلق اسم الوصيلة على الشاه إذا ولدت ستة أبطن، نظروا فإذا كان السابع ذكراً يذبح وأكل منه الرجال والنساء، وإن كان أنثى تركت في الغنم، وإن كان ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها، ولم يذبح، وكان لحمه حرام على النساء<sup>(٤)</sup>.

(١) جواد علي: ج ٦، ص ٢٠٤.

(٢) ابن هشام: ق ١، ص ٩٠.

(٣) المصدر السابق: ق ١، ص ١٠٥.

(٤) جواد علي: ج ٦، ص ٢٠٦.

وفي رواية أخرى لابن هشام عن ابن اسحق: الوصيلة التي تلد أمها اثنين في كل بطن فيجعل صاحبها للآلة الإناث منها، ولنفسه الذكور<sup>(١)</sup>، وقد تكون الوصيلة الناقة البكر التي تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تنتي بعدها بأئنة وائلة بين الاثنين وليس بينهن ذكر.

#### د- الحام:

الحام: هو فحل الإبل الذي يضرب الإبل الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابة دعوة للطواحيت وللأصنام، وقيل الحام: الفحل إذا أنتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر، حمى ظهره فلم يركب، ولم يجز وبره وخلي في إبله يضرب فيها، ولا ينفع منه بغير ذلك<sup>(٢)</sup>، ويدرك جواد علي أن الحام هو البعير إذا أنتج عشرة أبطن من صلبه، وقالوا قد حمى ظهره، فلا يركب ولا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى، وقالوا الحام من الإبل: كان الفحل إذا انقضى ضرابة جعلوا عليه من ريش الطواويش وسيبوه، وذكر أن الحام، الفحل يضرب في الإبل عشر سنين، ويقال: إذا ضرب ولده قيل قد حمى ظهره، فيتركونه لا يمس ولا ينحر أبداً ولا يمنع من كلاً يريده<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن هشام: ق ١، ص ١٠٥.

(٢) جواد علي: ج ١، ص ٢٠٦.

(٣) الطبرى: ج ١، ص ١٢٤. جواد علي: ج ٦، ص ٣٥١-٣٥٤.

رابعاً: الحج وشعائره

يعرف الحج عن الجاهلية الذهاب إلى الأماكن المقدسة في أزمنة موقوتة للنقرب إلى الآلهة، وإلى صاحب ذلك الموضع المقدس، والحج بهذا المعنى معروف في جميع الأديان تقريباً، وهو من الشعائر الدينية القديمة عند الجزريين، وكلمة "حج" من الكلمات الجزرية الأصلية القديمة، وتعني قصد مكان مقدس وزيارته، وقد ميز الشهر الذي يقع فيه الحج عن الأشهر الأخرى بتسميته "شهر ذي الحجة" و"شهر الحج" وهي تسمية قديمة معروفة قبل الإسلام.

كان سيدنا إبراهيم الخليل -عليه السلام- أول من أذن إلى حج بيت الله، وذلك بعد أن أمره الله سبحانه وتعالى، فكان العرب قبل الإسلام يحجون إلى البيت منذ يوم تأسيسه وأنهم كانوا يقصدون مكة أزواجاً من كل مكان، وأن ملوكهم كانوا يتقربون إلى "بيت الله" بالهدايا والذور، وأن الناس كانوا يقسمون بالبيت الحرام لما له من مكانة في نفوسهم، وكان عرب الحجاز يحجون إلى البيت ويعتمرون، وكانوا يحلون ويحرمون، فيتمسون الحجر الأسود أو يلحدون إليه بأيديهم ووجوههم، ثم يطونون سبعة أشواط متتالية، ثم يسعون بين الصفا والمروة سبعة أخرى تماماً كما يفعل المسلمون اليوم، كما كانوا يلبون ويفيضون من مزدلفة، وينفرون إلى منى، ويرمون الجمار ويهدون الشهدي، ويحلقون أو يقصرون<sup>(١)</sup>.

(١) جواد علی: ج ٦، ص ٣٥٣-٣٥٤.

ويظهر مما جاء في روايات أهل الأخبار عن حج البيت أن مناسك الحج لم تكن واحدة بالنسبة للحجاج بل كانت تختلف باختلاف القبائل، فقد انفردت قريش بأمور من أمور الحج واعتبرتها من مناسك حجها، وانفردت قبائل أخرى بمناسك لم تعتبرها قريش موجبة لها، ولم تعمل بها.

يستعد الجاهليون للحج عند حضورهم موسم "سوق عكاظ" فإذا انتهت أيام السوق، وأراد منهم من أراد الحج، ذهب إلى "مجنة" فأقام بها إلى هلال ذي الحجة، ثم ارتحل منها إلى "ذى المجاز" ومنه إلى "عرفة" فإذا كان يوم التروية، تزودوا بالماء وارتفعوا إلى عرفة، هذا بالنسبة للتجار الذين كانوا يأتون هذه الموضع للتجارة.

أما بالنسبة إلى غيرهم فقد كانوا يقصدون الحج في أي وقت يشاؤون، ثم يذهبون إلى عرفة، ويبدأ حج أهل الجاهلية بالإهلال، فكانوا يهلون عند أصنامهم، ويلبون إليها، فإذا انتهوا من ذلك قدموا إلى مكة، وطافوا بالبيت وبالأصنام، ركن من أركان الحج، ومنسك من مناسكه، وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام، فإذا انتهوا من ذلك قدموا إلى مكة وطافوا بالبيت وبالأصنام، ركن من أركان الحج، ومنسك من مناسكه، وكانوا يفعلونه كلما دخلوا البيت الحرام، فإذا دخل أحدهم أكرم، كان أول شيء يفعله الطواف بالبيت<sup>(١)</sup>.

---

(١) يحيى الشامي، ص ٨١.

## **مواكب الحج والعمرة:**

كان لحج البيت على الطريقة الجاهلية أثر كبير في تعزيز ظاهرة الشرك، وعلى إذكاء الروح الوثنية في نفوس المشاهدين، إذ كانت جماعات الحجيج تسير على شكل قوافل ومواكب متابعة حيث الرأيات مرفوعة والأصنام والثياب المصبوبة والحلل الزراوية، وهو ما يبعث على إلهاب الحماس وهياج المشاعر واستثارة الإعجاب<sup>(١)</sup>.

أما بالنسبة للعمراء فكان أهل الجاهلية يقومون بها في شهر رجب وكانوا يؤدونها كما يؤدون الحج، وفي شهر رجب يذبحون الذبائح من الهدايا والتذر، حينما يأتون أصنامهم ويطوفون حولها، وكانت حجاً خاصاً مختلفاً ومستقلاً عن الحج الآخر الذي يقع في شهر ذي الحجة.

## **الإفاضة:**

الإفاضة تكون من عرفة إلى مزدلفة وفيه يمضي الحاج ليلتهم،ليلة العاشر من ذي الحجة، ومنه تكون الإفاضة عند الشروق إلى "منى" لرمي الجمرات ولنحر الأضحية، ويرجع أهل الأخبار رمي الجمرات إلى "عمرو بن لحي"، ويذكرون أنه جاء بسبعة أصنام، فنصبها بـ"منى" عند مواضع الحجرات، وعلى شفير الوادي، ومواضع أخرى، وقسم عليها حصى الجمار، إحدى وعشرين حصاة<sup>(٢)</sup>.

(١) جواد علي: ج ٦، ص ٣٨٤-٣٨٦.

(٢) ابن هشام: ق ١، ص ٢٢٥.

ومن مظاهر الوثنية العربية الأخرى ظهور فئات لها أساليب في العبادة وفي ممارسة طقوس الحج تختلف عن الشائع المأثور عند غيرهم ومن هذا النوع فئات الحمس والحلة والطلس.

### الحمس:

جاء في لسان العرب مادة "الحس": (الأحس: المتشدد على نفسه في الدين، والحس: قريش لأنهم كانوا يتشددون في دينهم...).

ويذكر ابن هاشم في حديثه عن الحمس فيقول: "إنَّ الحمس تقول: نحن أهل الحرمة وولاة ال البيت، وقطان مكة وسكانها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما نعرف، فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظموا الحرم، فتركوا الوقوف على عرفة، والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقررون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم -عليه السلام- ويرون سائر العرب أن يفيضوا منها إلا أنهم قالوا نحن أهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحرمة، ولا نعزم غيرها، كما نعزمها نحن الحمس، ثم جعلوا لمن ولدوا من العرب من ساكني الحل والحرم مثل الذي لهم، وكانت خزاعة وكنانة من القبائل التي آمنت مع قريش بالحس<sup>(١)</sup>، ثم ابتدعوا بعض الأمور تمييزاً لأنفسهم عن غيرهم وإظهاراً لتشددتهم في أمر دينهم وتعظيم مقدساتهم فقالوا، لا ينبغي للحس أن يأكلوا الأقط (من ألبان الإبل) ولا يسلؤوا السمن وهم حرم. كما لا ينبغي لهم دخول بيت من الشعر أو الاستظلل إلا في بيوت من آدم ما داموا حرماً. ثم زادوا في تشددهم وقالوا لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم

---

(١) الأزرقى: ج ١، ص ١٢٤-١٣٠.

من الحل في الحرم إذا جاؤوا حجاجاً معتمرین، ولا يجوز لهم أن يأكلوا في الحرم إلا من طعام أهل الحرم سواء كان ذلك قراء أو شراء، وفرضوا على كل حاج من غيرهم رجلاً كان أم امرأة أن يطوف بالبيت إلا عرياناً أو في ثوب أعاره إياه أحمسى، أما هم فيطوفون في ثيابهم، وقد أدى إجبارهم للنساء على الطواف عريانات إلى بعض الحوادث الطريفة التي تزخر بأخبارها كتب الأدب، وكان الحمس يعظمون الأشهر الحرم ولا يحفزون فيها الذمة أو يظلموا وكان الرجل منهم إذا أحرم وكان من سكان البيوت المبنية نقب نقباً في ظهر بيته فمنه يدخل ويخرج ولا يدخل من الباب لأن المرور تحت عتبة الباب محرم في عرفهم، وقد امتنعوا عن الوقوف في عرفة وجعلوا موقفهم في طرف الحرم عوضاً عن ذلك، ويظللون هناك طيلة وقوف الناس في عرفة منه يفيضون إلى المذلة.

### الحلة:

الحلة: هم ما عدا الحمس وأنهم كانوا يطوفون عراة إن لم يجدوا ثياب أحمس، وكانوا يقصدون من طرحهم ثيابهم طرحهم ذنوبهم معها.

وكان الحلة يحرمون الصيد في النسك ولا يحرمونه في غير الحرم، ويمنع غنيهم ماله أو أكثره للفقراء حين يتتسك، وهو على عكس الحمس، يسمحون لفقرائهم بسلع السمن، ويغزلون من الصوف والوبر والشعر ما يكفي حاجتهم. وحين يتتسكون لا يلبسون الثياب الجديدة، ويمتنعون من دخول البيوت من أبوابها والجلوس في الظل ما داموا محرمين، وإذا دخلوا مكة بعد فراغهم من الحج تصدقوا بأحذيتهم وأثوابهم، واستعاروا من الحمس ثياباً يلبسونها للطواف

تزييها للكعبة من أن يطوفوا حولها في ثياب قد يكون أصابها دنس. وكانوا يستأجرون من الحمس ثيابهم ولا يشترونها لأنه محرم عليهم أن يشتروا شيئاً أو يبيعوه حتى يعودوا إلى منازلهم بعد انتهاء الموسم، ويدرك أن الحلة كانوا لا يطوفون عراة دوماً، بل يطوفون عراة فقط في أول حجة يحجونها، وأنهم كانوا ينزلون عرفة بعكس الحمس، وقد فعل النبي ﷺ فعلمهم قبل الهجرة<sup>(١)</sup>.

### الطلس:

وهم فئة دينية بين الحلة والخمس، يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلة، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس، وكانوا لا يطوفون عراة ولا يستغرون ثياب الحمس ولا يحرمون دخول البيوت من أبوابها، والطلس لا يختلفون عن الحلة إلا في قضية الألبسة ودخول البيوت من أبوابها، ولقد سميت هذه الفئة بالطلس لأنهم كانوا يأتون من أقصى اليمين طلساً من الغبار فيطوفون بالبيت في تلك الثياب فسموا بذلك والطلس هم سائر أهل اليمن وأهل حضرموت وعك وإياد<sup>(٢)</sup>.

### التلبية:

كان هناك نوعان من التلبية عند العرب قبل الإسلام في موسم الحج، تلبية عند البيت الحرام، وتلبية عند الأصنام، ويبعد أن تلبية المشركين وهم يطوفون البيت لم تكن واحدة، إذ كانت قيس عيلان تطوف بالبيت وهي تلبي ما يشبه تلبية المسلمين القائمة على أساس الإيمان بإله واحد، فتقول: "لبيك اللهم لبيك

(١) جواد علي: ج ٦، ص ٣٧٣.

(٢) المصدر السابق: ج ٦، ص ٣٧٦.

أنت الرحمن، انتك قيس عيلان راجلها والركبان"، وكانت العرب إذا أرادت حج البيت الحرام وقفت كل قبيلة عند صنمها وصلوا عنده ثم لبوا حتى يقدموا مكة وكانت تلبياتهم مختلفة، وكانت تلبية كانانة: لبيك اللهم لبيك، اليوم يوم التعريف يوم الدعاء والوقوف، وكانت تلبية بني تميم: لبيك اللهم لبيك، لبيك عن تميم قد تراها، قد اختلفت أثوابها وأثواب من ورائها، وأخلصت لربها دعاءها، وكانت تلبية تقييف: لبيك اللهم أن تقييفاً قد أتوك، وأخلفوا المال وقد رجوك<sup>(١)</sup>.

أما التلبية عند الأصنام فقد كان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت أسبوعياً، وكان يمسحون الحجر الأسود ويسعون بين الصفا والمروءة وكانوا يلبون، فكانت التلبية "للعزى" "لبيك اللهم لبيك، بما هو أحب إليك". وكانت تلبية من نساك مناة "لبيك اللهم لبيك، لبيك لو لا أن بكرنا دونك، يبرك الناس وبهجرونك، ما زال حج عشج يأتونك، إنا على عدوائهم من دونك، والتلبية تعني إجابة المنادي، أي إجابة الملبي ربها، وقولهم لبيك اللهم لبيك، معناه: إجابتني لك يا رب وإخلاصي لك، وقد كان الجاهليون يلبون لأصنامهم تلبيات مختلفة<sup>(٢)</sup>.

### بعض الوظائف ذات الصلة بالحج:

#### الإجازة بالحج:

ذكر ياقوت الحموي "... كانت قبيلة من جرهم أسمها (صوفة) بقيت بمكة ثلث الإجارة بالناس مدة"، وفيهم يقول الشاعر:

(١) المصدر السابق: ج ٦، ص ٣٧٥-٣٧٦.

(٢) ياقوت الحموي: ج ٥، ص ١٨٦.

و لا يريمون في التعريف موقعهم      حتى يقال أجيزوا آل صوفانا  
ثم أخذتها منهم خزاعة، وأجازوا مدة، ثم غلبتهم عليها قيس عيلان،  
و صارت إلى رجل منهم يقال له أبو سيارة وفيهم يقول الشاعر:

جلو السبيل عن أبي سيارة      وعن مواليه بن فزاره  
حتى يجيز سالما حماره      مستقبل الكعبة يدعو جاره

فلما قوي قصي أتى أبو سيارة وقومه فمنعه قصي من الإجازة وقاتلهم  
عليها، فهزّمهم فصار إلى قصي البيت، فلما كبر قصي ورق عظمه جعل الأمر  
كله في ذلك إلى ابنه عبد الدار لأنه أكبر أولاده، وهلك قصي وبقيت قريش على  
ذلك زماناً<sup>(١)</sup>.

### الحجابة أو السданة:

و هي حجابة الكعبة أو سدنتها، فلا يفتح بابها إلا بأمره، وهو الذي يلي  
أمر خدمتها، وكان القائم بأمر الحجابة يمتلك مفاتيح الكعبة، وهو الذي يأذن  
للناس بالدخول إليها، ولا تقام شعائر دينية إلا بإذنه، وليس هناك من دليل على  
أنه يفترض فيمن يقوم بها أن يكون عالماً بالشؤون الدينية أو له صفة الكهانة،  
وقد أخذ قصي الحجابة من خزاعة، فكان قصي بيده مفاتيح الكعبة فأذن للناس  
بدخولها، وبايعت قريش قصياً بالملك فكانت له الحجابة والإشراف على الكعبة،

---

(١) جواد علي: ج ٦، ص ٢١٣.

وربما عدت الحجابة والسدانة منصباً واحداً، والسدانة تنتقل بالإرث من الآباء إلى الأبناء وتحصر في الأسرة ف تكون من حلها ونصيبها لا يمكن انتزاعها إلا بقوة لا يمكن التغلب عليها، ومن واجب العشيرة التي تتبعها إلية هذه الأسرة الدفاع عنها إن حاول غريب انتزاع هذا الشرف منها<sup>(١)</sup>، وكانت السدانة في أيدي بني عثمان بن عبد الدار وظلت في يدهم حتى فتح النبي مكة في سنة ١٤هـ، فأقر المفتاح في يد عثمان بن عبد الدار<sup>(٢)</sup>.

### الرفادة:

كانت قريش تؤدي الرفادة إلى قصي، وهو خرج يخرجونه من أموالهم يترادون فيه فيصنع طعاماً وشراباً للحجاج أيام الموسم، فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد، وذلك لأن قصياً فرضه على قريش فقال: "يا معاشر قريش، إنكم جيران الله، وأهل بيته وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوار الله وحجاج بيته وهي ضيف الله وأحق الضيف بالكرامة ضيفه، فأجمعوا لهم ما تصنعون لهم به طعاماً أيامهم هذه التي لابد لهم من الإقامة بها فإنه والله لو كان مالي يسع لذلك ما كلفتموه" فيخرجون لذلك خرجاً من أموالهم كل امرئ بقدر ما عنده، فيصنع به للحجاج طعاماً، حتى يصدروا منها، ويضيف ابن هشام: إن هاشماً أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، ثم صارت الرفادة بعد المطلب إلى عبد المطلب ثم لأبي طالب.

(١) ياقوت الحموي: ج ٥، ص ١٧٧.

(٢) ابن هشام: ق ١، ص ١٥٨.

## السقاية:

كانت السقاية في بني هاشم وصاحبها يتولى سقاية الحجيج لقلة الماء العذب في مكة فينشئ حياضاً من الجلد توضع في فناء الكعبة، وينقل إليها الماء في القرب من آبار مكة، وكان العديد منها قد حضر في زمن قصي وعبد شمس إلى أن حضر عبد المطلب بئر زرم. أما الماء فكان يحلى بنقيع الزبيب ليستطيع الحاج شربه، لما كان فيه من غلظة، ويرى أنه كان لعبد المطلب إيل كثيرة، كان يحلبها ويمزج حلبيها بالعسل في حوض من أدم ويقدمه للحجاج، كما كان يشتري الزبيب فينذرءه بماء زرم ويستقيه الحاج لأنه يكسر غلظ مائه.

وقد كانت السقاية في يد بني هاشم ثم للمطلب بن عبد مناف، ثم لعبد المطلب وللزبير بن عبد المطلب ثم لأبي طالب، ولكنه لم يكن قادراً على ذلك، فآلت السقاية والرفادة معاً إلى العباس بن عبد المطلب، وقد دامت له حتى فتح الرسول ﷺ مكة.

القسم الثاني

مقدمة



الفضل الأول

للسيدة الرسول ميمونة بنت عبد الله

من المؤلف لكتاب المبعث

## **المبحث الأول: المولد والنشأة**

أولاً: محمد بن عبد الله: الأصل والنسب.

ثانياً: المولد والنشأة.

## **المبحث الثاني: المشاركة في الحياة الاجتماعية**

- الرحلة الأولى إلى الشام.
- المشاركة في حرب الفجّار.
- حلف الفضول.
- زواجه من خديجة بنت خويلد.
- المشاركة في إعادة بناء الكعبة.

## المبحث الأول

### المولد والنشأة

أولاً: محمد بن عبد الله

#### الأصل والنسب:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب، ويرتفع نسبه الكريم إلى معد بن عدنان بن ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل (عليهما السلام)، وأمه أمّة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة، فهو من قريش، ومن أسرة من أشرف أسرها. كان جده قصي بن كلاب زعيم قريش، وقد تمكن من انتزاع السيادة في مكة من قبيلة خزاعة وجعلها لقريش، وإلى قصي هذا يرجع الفضل في جمع قريش وترتيبها على منازلها، فميز بين قريش البطاح وقريش الظواهر، وقريش البطاح هم البطون التي كانت تسكن مكة نفسها، وكان منهم التجار والأثرياء، أما قريش الظواهر فقد سكروا خارج مكة.

بدأ نجم قبيلة قريش في الصعود والارتفاع بعد أن قام زعيمها قصي بتجميعها وتنظيمها، وهو أول من أعز قريش، وبقيادته ظهر مجدها وارتقت سمعتها، وبعد أن استقامت لقصي الأمور بنى داره بجوار الكعبة فسميت "دار الندوة"، ثم توجهه لتنظيم الحياة الاقتصادية، فكان "الإيلاف" أهم منجزاته، ومنه

استمدت مكة سلطتها الحقيقة إلى جانب سلطتها الدينية، فالتجارة كانت أهم ما شغل به قصي وأولاده من بعده، وهم الذين عقدوا الاتفاقيات التجارية والأمنية مع الدول المجاورة، وآل إلى أربعة منهم أمر رئاسة قوافل قريش إلى تلك البلدان، فقد ذكر الطبرى محدثاً عن بنى عبد مناف:

"... كانوا أول من أخذ لقريش العِصَم، فانتشروا من الحرم، أخذ لهم هاشم حبلاً من ملوك الشام الروم وغسان، وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشي الأكبر، فاختلفوا بذلك السبب إلى أرض الحبشة، وأخذ لهم نوفل حبلاً من الأكاسرة فاختلفوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس، وأخذ لهم المطلب حبلاً من ملوك حمير فاختلفوا بذلك السبب إلى اليمن..."<sup>(١)</sup>، وإلى هذا النشاط التجارى الواسع يعزى المؤرخون غنى أولاد قصي، والثراء الذى كانوا ينعمون به، وكان لموت هاشم المبكر أثره في إضعاف أولاده وعشائرته. وآل أمر هذه العشيرة من بعده إلى أخيه المطلب الذي لم يكن له من المكانة واليسار ما كان لأخيه، وظل حال بنى هاشم في ضعف حتى انتقلت رئاستهم إلى ابن هاشم، الذي ولد له من زوجه سلمى بنت عمرو من بنى عدي بن النجار وهي من أهل يثرب وكانت لشرفها لا تتكح الرجال في قومها حتى يشترطوا لها أن أمرها بيدها، إذا كرهت رجلاً فارقته، ولما ولد لها عبد المطلب تركه أبوه في رعايتها ورعايته أخواله، وظل عبد المطلب في يثرب حتى غداً غلاماً دون المراهقة ثم خرج إليه عممه المطلب فأعاده إلى أهله في مكة على كره من أمه.

---

(١) الطبرى: ج ٢، ص ٢٤٠.

توفي المطلب في اليمن في أثناء تجارة له، فتولى عبد المطلب رئاسة بنى هاشم وآل إلية ما كان لأبيه وعمه من بعده أمر السقاية والرفادة، أهم وظائف حكومة مكة، وقام بحفر بئر زمم التي أصبحت المصدر الرئيس للماء في مكة وسقاية الحجاج، وقد أدى حفره لهذه البئر إلى منازعات ومصادمات بينه وبين قريش التي كانت تريد أن يكون لها نصيب من هذا الشرف، وكانت حجتها أن البئر بئر إسماعيل ويحق لها أن تشاركه في حفره، وكان عبد المطلب يرى أنه قد خص وحده بهذا الأمر دون غيره (ولهذا الموضوع قصة طويلة فيها مسحة أسطورية تفقدها الكثير من أهميتها التاريخية)<sup>(١)</sup>.

لم يكن لعبد المطلب من الأولاد إلا ولد واحد هو الحارث الذي ساعده في حفر البئر، وقد نذر حين لقي ما لقي من الأذى والمنافسة من قريش في أثناء حفره البئر، لئن ولد له عشرة أولاد ذكور وكبروا وأعزه الله بهم، لينحرن أحدهم لوجه الله عند الكعبة، ولما تحققت هذه الأمانة، وصار عبد المطلب عشرة أولاد ذكور، أخبرهم بقصة نذره وطلب منهم الوفاء به، فاستجابوا له جميعاً، وتركوا له القرار في اختيار الطريقة التي يوفى بها نذره، فاقتصر بينهم بالقراح عند هبل في جوف الكعبة، وضرب القراح، فخرج القدح على عبد الله وكان أصغرهم وأحبابهم إليه، وعلى الرغم من كل ما يحمله عبد المطلب من حب لابنه الصغير، هم بذبحه، إلا أن قريشاً منعوه من الإقدام على هذا الفعل، وطلبت منه أن يستشير العرافين فيما يفعل، فأشاروا عليه أن يقترح بالقراح مرة أخرى على عبد الله وعلى عشرة من الإبل، فإن رضيت الآلهة كان الأمر كذلك وإنما زيدت الإبل،

---

(١) انظر: ابن هشام، ق ١، ص ١٤٢ وما بعدها. ابن سعد: ج ١، ص ٨٣ وما بعدها.

عشرأً عشراً حتى ترضى الآلهة، فظل يزيدها حتى بلغت المائة فرضيت الآلهة وقبلت الفداء.

من الأحداث الأخرى المهمة التي وقعت في زمان عبد المطلب محاولة الأحباش غزو مكة بقيادة أبرهة الأشرم، وكان الأحباش بعد احتلالهم اليمن، يطمحون، بتحريض من البيزنطيين، للسيطرة على خطوط التجارة واحتكار نقلها من اليمن إلى الشام، وهذا الطموح لن يتحقق لهم دون احتلال مكة وإضعاف مركزها ومكانتها الدينية والتجارية، خاصة وأن المكيين كانوا يقومون بدور مهم في العمليات التجارية بين اليمن والشام، لذلك زحف أبرهة بجيش كبير تقدمه الفيلة التي ساهمت كثيراً في إرهاب العرب، فسميت الحملة عندهم بحملة الفيل وسمى عام حدوثها عام الفيل، وقد أنقذ الله - سبحانه وتعالى - الكعبة من شره وأرسل إليه طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، كما وضح القرآن الكريم في سورة الفيل، وهلاك جيش أبرهه وفشل في غزو مكة وهدم الكعبة، وعاد مهزوماً إلى اليمن.

لقد كان الهدف المعلن للحملة - كما أشرنا - تهديم الكعبة، فكان لذلك أثر كبير في إيقاظ وعي المكيين بأهمية كعبتهم ومكانة مدینتهم الدينية، فتوحدوا من أجل تعظيم شأنها، ونشأت نتيجة ذلك الحدث حركة المتشددين في الدين الذين يعرفون بـ "الخمس"، وكان عبد المطلب دور بارز في مواجهة هذه الحملة، على الرغم من أن بعض المصادر نسبت إليه مقوله: "أن للبيت ربا سيمنعه"، وهو موقف سلبي انسحابي لا ينسجم وزعامة عبد المطلب لمكة ومسؤوليته عن البيت الحرام وما يحويه من مقدسات لدى جميع العرب، ولم يعش عبد المطلب طويلاً بعد هذه الحملة ومات ليترك زعامةبني هاشم إلى ابنه الزبير بين عبد المطلب،

الذي لم يكن -على ما يبدو- مؤهلاً لهذه الزعامة، فانتقلت منه إلى أخيه أبي طالب، ولابد من الإشارة إلى أنه خلال زعامة الزبير القصيرة كان هناك حدثان مهمان في تاريخ العرب قبل الإسلام، ولهمما صلة بسيرة رسولنا الكريم محمد ﷺ هما: حرب الفجار، وعقد حلف الفضول، -وسنأتي على ذكر صلة الرسول بهما بعد حين-.

استمرت زعامة أبي طالب لبني هاشم إلى ما بعد ظهور الإسلام -وإلى ما قبل الهجرة بثلاث سنوات- وقد ساءت خلالها أحوال الأسرة ومالت إلى الفقر، وللتدليل على فقر أبي طالب تذكر المصادر أنه كان يرعى الإبل لكسب عيشه<sup>(١)</sup>.

وعبد الله بن عبد المطلب -والد رسولنا الكريم- هو أخ شقيق للزبير وأبي طالب بن عبد المطلب، وكان يعمل في التجارة أيضاً، وقد توفي في سن مبكرة عند أخواه في يثرب، وقد كانت وفاته قبيل ولادة ابنه محمد ﷺ بوقت قصير، وزوجته هي آمنة بنت وهب من بنى زهرة من قريش، وأمها كانت من بنى عبد الدار وجدتها لأمها من بنى أسد، وهذه الصلات أتاحت لمحمد الارتباط بالعديد من الأسر ذات المكانة المرموقة في مجتمع مكة.

---

(١) الأزرقى، أخبار مكة: ج ١، ص ٧١

## ثانياً: المولد والنشأة

ولد النبي محمد بن عبد الله ﷺ بمكة في عام الفيل، المصادف سنة ٥٧٠ م، وكان والده قد توفي قبل ولادته، بحسب بعض الروايات، في حين تذكر روايات أخرى أن وفاة والد الرسول الكريم كانت بعد ولادة ابنه بشهر، أو بسنة أو ثمانية وعشرين شهراً<sup>(١)</sup>، وفي كل الأحوال فقد نشأ الطفل محمد يتيمًا فكافله جده عبد المطلب، ولما ولد رسول الله ﷺ التمسوا له المراضع فأرضعته ثوبية مولاة أبي هلب أيامها، وثوبية هذه كانت قد أرضعت قبله عمه الحمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، فكانا أخويه من الرضاعة.

أما سيدنا محمد ﷺ المشهورة فهي حليمة السعدية، وهي حليمة بنت أبي ذؤيب من بني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور، وتذكر كتب السيرة أن حليمة خرجت من بلدها مع زوجها وولدها الصغير إلى مكة لتلتمس الرضاعاء، وذلك في سنة مجده لم تبق لهم زرعاً ولا ضرعاً، وكانت حليمة واحدة من عشرة نسوة من قومها قدمن مكة جمِيعاً لنفس الغرض، وقد عرض الطفل محمد على النسوة العشر فرفضته جميعاً لأنهن علمن أن أباً مات وآنه في كفالة جده وأمه، ولم تحظ حليمة بطفل غيره، وكرهت أن تعود دون رضيع قبليته، وظل في كفالتها مدة عامين حتى فطم، فعادت به إلى أمه التي طلبت إليها الرجوع به وإيقاعه في كفالتها لأنها تخاف عليه من وباء مكة. وعاد محمد مع حليمة إلى أرضبني

(١) حول هذه الروايات، انظر الطبرى: ج ٢، ص ٢٧٧ وما بعدها.

سعد بن بكر وظل بينهم حتى بلغ الخامسة من عمره، حين أعادت حليمة وسلمته إلى جده<sup>(١)</sup>، وظل مع أمه وفي حضانة أم أيمن، وكانت مملوكة لأبيه إلى أن بلغ النبي ست سنين.

في هذه المرحلة المبكرة من سني حياته وهو على أشد ما يكون من الحاجة إلى الرعاية والحنان، بدأ يواجه الصعاب بفقدان أقرب الناس إليه، فتوقفت والدته السيدة آمنة بنت وهب وهو ابن ثمانى أو ست سنين "بالأبواء" ما بين مكة والمدينة (يُثرب)، وذلك في أثناء عودتها من يُثرب حيث كانت وابنها يزوران أخواله من بنى عدي بن النجار، وقيل أنها مضت إلى يُثرب قبر زوجها ومعها عبد المطلب جد النبي وأم أيمن حاضنته، وفي أثناء اتصافهما إلى مكة توفيت بالأبواء، ثم كفله جده عبد المطلب وضمها إليه، وكان يؤثره على بنيه، ويغمره بحنانه، ويرفعه عليه أكثر مما يرافقه على ولده، وكان يقربه منه ويدنيه إليه، ولا يقدم على تناول طعام إلا إذا قدم النبي إليه، وقد يجلسه فخذله فيؤثره بأطيب طعامه.

ومن صور الرعاية والاهتمام التي كان لها أثر طيب في تكوين شخصيته تذكر كتب السيرة النبوية، أن جده عبد المطلب زعيم مكة كان يفرش له في ظل الكعبة، ويجلس بنوه حول فراشه إلى خروجه، فإذا خرج عبد المطلب قاموا على رأسه مع عبيده إجلالاً له، وكان "محمد" يأتي، وهو بعد غلام، فيجلس على الفراش، فياخذه أعمامه ليؤخروه ويبعدوه، فيأمرهم عبد المطلب بابقائه، ويقول

---

(١) ابن هشام: ق ١، ص ١٦٨ . ابن سعد: ج ١، ص ١١٢ .

لهم: "دُعْوَةُ فِإِنَّه لَه شَأْنٌ أَمَا تَرَوْنَه؟ وَيَقْبَلْ رَأْسَه وَفَمَه، وَيَمْسَحْ ظَهْرَه وَيَسْرَرْ  
بِكَلَامِه وَمَا يَرِي مِنْه" <sup>(١)</sup>.

ثم توفي جده عبد المطلب وقيل أنه توفي وعمره يومئذ ما بين الثمانين والتسعين، فبكاه النبي وهو بعد ابن ثمانين سنتين خلف سريره، ودفن عبد المطلب بالحجون بمكة، وذكر أن عبد المطلب لما حضرته الوفاة جمع بينه وأوصاه برسول الله ﷺ، وكان الزبير بن عبد المطلب وأبو طالب أخوي عبد الله، والد النبي، لأمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، وكان الزبير أنسهما، فاقتصر الزبير وأبو طالب أيهما يتکفل بالطفل "محمد"، فأصابت القرعة أبا طالب، فضمه إليه، وقيل بل اختاره محمد ﷺ على الزبير، إذ كان أبو طالب ألف عميه به، وقيل إن عبد المطلب أوصاه بأن يكفله بعده، وكان "النبي" يحبه ولا ينام إلا بجواره، فشب رسول الله في رعاية عمه أبي طالب.

---

(١) ابن هشام: ق١، ص١٦٨.

## المبحث الثاني

### المشاركة في الحياة الاجتماعية

هناك أحداث تاريخية ومحطات مهمة عاشها وعاصرها رسولنا الكريم، محمد بن عبد الله ﷺ، قبل بعثته، فكان لها أبلغ الأثر في رسم معلم شخصيته الفذة، التي فاضت على البشرية بالخير والنور والعطاء، وأهم تلك الأحداث هي:

#### ١- الرحلة الأولى إلى الشام:

لما بلغ النبي ﷺ أثني عشرة سنة من عمره، خرج أبو طالب إلى الشام في تجارة، وكان رسول الله يألفه ولا يفارقه، فسأله أن يصحبه، فأبى أبو طالب ضناً به وخوفاً عليه من مشقة الطريق، فاغتم النبي وبكي، فرق له أبو طالب وأخرجه معه، فلما وصلت القافلة إلى بصرى من أرض الشام رأى راهب نصراني منقطع في صومعة له ببصرى، يقال له بحيراء أو بحيراء، ولمح في محمد الغلام مخايل النبوة وعلماتها، فأوصى أبا طالب بأن يعود به إلى بلده وأن يحذر عليه اليهود، فما كاد أبو طالب ينتهي من تجارته بالشام حتى بادر بالعودة إلى مكة، ولم يسافر به بعد ذلك خوفاً عليه<sup>(١)</sup>.

---

(١) ابن سعد: ج ١، ص ١٥٥.

## ٢- المشاركة في حرب الفجّار:

"الفجّار" هي عدة حروب وقعت في الأشهر التي يحرم فيها القتال، وقد تحدثنا عنها في القسم الأول من هذا الكتاب، وقد شارك الرسول ﷺ في إدحافها وهو في حوالي السنة الخامسة عشرة من عمره حيث قامت حرب بين قريش ومن معهم من كنانة، وكان سبب قيامها أن عروة بن الرحال من هوازن، أجار لطيبة للنعمان بن المنذر، ملك الحيرة، وقد كان النعمان يبعث في كل عام إلى سوق عكاظ لطيبة في جوار رجل شريف من أشراف العرب يجبرها حتى تباع هناك، ويشتري له بثمنها من أدم الطائف ما يحتاج إليه، فقام رجل من بنى ضمرة بن بكر بن كنانة -يقال له البراض بن قيس- وقال له: أتجبرها على كنانة؟! فأجاب عروة: نعم، وعلى الخلق كله، وكتم له البراض ذلك، ثم غافله وقتله في الشهر الحرام.

عندما علمت قريش بمقتل عروة (من هوازن) على يد البراض (من كنانة) في الشهر الحرام وفي سوق عكاظ، هرعت لحمايته لأنه منها، كما هبت هوازن للأخذ بثأر قتيلها، وقام قتال بين قريش وهوازن في الشهر الحرام، الأمر الذي دعى إلى تسمية هذه الحرب بـ (حرب الفجّار).

وقد شهد الرسول الكريم محمد ﷺ هذه الحرب إذ أخرجه أعمامه، ويدركه الرسول هذه الحرب ويقول: كنت أثبل على أعمامي، أي أرد عليهم ثبل عدوهم إذا رموهم بها، ويدعى ابن اسحق أن حرب الفجّار حدثت ولمحمد من العمر عشرين عاماً<sup>(١)</sup>.

---

(١) ابن هشام: ق ١، ص ١٨٤.

## ٣- حلف الفضول:

بعد حرب الفجّار عقد حلف الفضول، ويعد هذا الحلف امتداداً متطرّواً لحلف سابق أطلق عليه "حلف المطبيين"<sup>(١)</sup>. وقد عقد حلف الفضول في مكة بسبب رجل من اليمن كان قد باع سلعة إلى العاصم بن وائل السهمي، فمطله هذا بالشمن حتى يئس، ف جاء مكة وأخبر الناس عن ظلماته، فمشت قريش إلى بعضها واجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان وقرروا الاتفاق على نصرة المظلوم من الظالم، وكان أعضاء هذا الحلف هم فئات من قريش اشتراك في حلف المطبيين وتتألف من بني هاشم والمطلب ابني عبد مناف، وزهرة بن كلاب وتييم بن مرة وبني الحارث بن فهر<sup>(٢)</sup>، وتقول المصادر أنّ الرسول ﷺ حضر هذا الاجتماع وهو في مقتل عمره، وقال فيه ﷺ: "لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حفأ ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت"<sup>(٣)</sup>.

## ٤- زواجه من خديجة بنت خويلد:

هي خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى، وكانت من أشرف نساء قومها وأعلاهم نسباً وأكثراهم مالاً، وتشير المصادر إلى أنها هي التي أرسلت إلى الرسول تعرض عليه نفسها وتحبذ له الزواج منها، على الرغم من أن أشرف قومها وسادتهم كانوا يتمنون الزواج منها، وتنوّك تلك المصادر

(١) انظر: القسم الأول/ الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(٢) المسعودي، مروج الذهب: ج ٢، ص ٢٧٦.

(٣) ابن سعد: ج ١، ص ١٢٩.

بأن زواجها منه قد تم بعدها تأكيد لها ما سمعته عنه من شرف ونزاهة وأمانة إبان خروجه بتجارة لها إلى الشام، وقصة خروج الرسول محمد ﷺ بتجارة خديجة إلى الشام، وهي ثاني سفرة له إلى تلك البلاد قبلبعثة، ملخصها كالتالي: لما بلغ محمد الخامسة والعشرين من عمره قال له عمه أبو طالب: أنا رجل لا مالي لي وقد اشتد الزمان علينا، وهذه غير قومك وقد حضر خروجها إلى الشام، وخدية بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيرانها، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك، وبلغ خديجة ما كان من حوار بين محمد وعمه، فأرسلت إليه وعرضت عليه الخروج بتجارتها وقالت له أنا أعطك ضعف ما أعطي رجالاً من قومك. وقبل محمد عرض خديجة وخرج بالتجارة برفقة خادمها ميسرة الذي رأى من أخلاقه ومكرماته ما جعله يعود ليقص على سيدته أخباراً أثلجت صدرها وحبيته إلى نفسها، ولاسيما وأن تجارته ربحت ربحاً وفيراً<sup>(١)</sup>.

تباعين الروايات حول موضوع خطبة الرسول لها، فبعضها تذكر أنها عرضت عليه نفسها بوساطة امرأة تدعى "تفسيرة بنت منية"<sup>(٢)</sup>، وبعضها الآخر يذكر أنها عرضت عليه نفسها مباشرة ومن غير وساطة، وأيا كان الصحيح فقد قبل محمد العرض وخطبها إلى عمها عمرو بن أسد الذي كان رجلاً مسنّاً وحضر الرسول ومعه عمه أبو طالب وحمزة فزوجها عمرو إيه<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن سعد: ج ١، ص ١٢٩-١٣١.

(٢) ابن سعد: ج ١، ص ١٣١.

(٣) ابن هشام: ق ١، ص ١٨٩.

كان النبي ﷺ حين تزوجها في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت هي في الأربعين من عمرها، وأصدقها محمد عشرين بكرة، وكانت أول امرأة يتزوجها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت، أما هي فكانت قد تزوجت قبله مرتين، وقد ولدت لمحمد ﷺ سبعة أولاد هم: القاسم الذي ولد بمكة قبل الإسلام وبه كان يكتنى، ثم ولدت له زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم، ثم ولد له في الإسلام منها عبد الله فسمي الطيب، ثم الطاهر، وقد مات جميع الذكور من هؤلاء وهو صغار السن<sup>(١)</sup>.

لقد شكل هذا الزواج منعرجاً مهماً في حياة رسولنا الكريم ﷺ، فقد أمن له مركزاً مرموقاً في المجتمع المكي وساعدته ثروة خديجة على العيش الآمن الرغيد الذي لا يخالطه خوف من الغد، ولا جهد جهيد في سبيل لقمة العيش.

وعلى الرغم من أن المصادر تنصت تماماً عن نوع العمل الذي مارسه "محمد" بعد زواجه وحتى بعنته، أي لمدة خمسة عشر عاماً، وفيما إذا كان قد عاد للخروج بتجارة خديجة إلى الشام، أو أنه من الممكن أن نتصور أنه أخذ يعهد بالخروج بهذه التجارة إلى أشخاص آخرين يستأجرهم لهذا الغرض، فكانت السنوات التي مرت بين زواجه من خديجة وبعنته سنوات تأمل واستعداد وتهيؤ للمهمة الكبيرة، والرسالة العظيمة التي سيحملها بكل جدارة واقتدار، أما جانب آخر فقد سجل التاريخ لهذه المرأة أروع الصور، وكانت مثالاً للمرأة العربية الفاضلة والزوجة الأمينة التي كان لعطفها وحبها وتضحياتها أكبر الأثر في تعهد رسولنا الكريم ورعايته قبل بعنته وبعدها.

---

(١) ابن سعد: ج ١، ص ١٣٣.

## ٥- مشاركته في إعادة بناء الكعبة:

تذكر المصادر أن الكعبة بنيت قبل الإسلام ثلاث مرات، الأولى حين بناها شيت بن آدم، والثانية حين بناها إبراهيم عليه السلام، والثالثة حين بنتها قريش هذه المرة قبل ظهور الإسلام بخمس سنين، وتذكر هذه المصادر أن الذي دفع قريشاً على بنيانها أن سيلأً أتى من فوق الردم الذي بأعلى مكة، فخافوا أن يجرف السيل الكعبة ويخر بها، ويقال أن الكعبة كانت عبارة عن حجارة مرصوصة بعضها على بعض من غير ملاط بارتفاع أعلى من القامة بقليل، ومن غير سقف، فأرادوا أن يجعلوها أعلى من ذلك وأن يجعلوا لها سقفاً، واستعملوا في بناها خشب سفينه كانت لتأجر رومي رماها البحر على شواطئ جدة فتحطم وأخذوا خشبها، وجمعت قبائل قريش الحجارة لبنيتها، وارتفع البناء حتى بلغ موضع الحجر الأسود، فاختلوا فيما يكون له شرف وضعه في مكانه، وكادت الحرب أن تقع بينهم، واتفقوا أخيراً على تحكيم أول الداخلين عليهم.

وكان أول الداخلين محمداً بن عبد الله رض، فقصوا عليه أمرهم، فطلب رداء ووضع فيه الحجر الأسود، ودعا كل قبيلة أن تأخذ بناحية منه، ولما بلغ الحجر الأسود موضعه أخذه بيده ووضعه في مكانه، وأوقف بحكمته نزاعاً كاد أن يؤدي إلى قتال بين القبائل، كما أن هذا الحدث ترك، من جانب آخر، أثره في تثبيت مكانة الرسول محمد بين القبائل وتقديرهم لحكمته ورجاحة عقله، خاصة وأنه وقع قبيلبعثة النبوية الشريفة بما يقرب من خمس سنوات<sup>(١)</sup>.

---

(١) ابن هشام: ق، ١، ص ١٩٢ وما بعدها.

الفصل الثاني

سيرة الرسول محمد بن عبد الله

من المبعث إلى الهجرة

## **المبحث الأول: التحثث ونزول الوحي**

### **المبحث الثاني: الدعوة إلى الإسلام**

- المسلمين الأولون.
- الدعوة العلنية ومعارضة قريش.
- أسباب المعارضة للدعوة الإسلامية.
- أساليب قريش في مقاومة الإسلام.
- الهجرة إلى الحبشة.
- المقاطعة الاقتصادية.

### **المبحث الثالث: محاولات نشر الإسلام خارج مكة**

- أولاً: الرحلة إلى الطائف.
- ثانياً: الاتصال بالقبائل الأخرى.
- ثالثاً: بيعنا العقبة الأولى والثانية

## المبحث الأول

### التحنث ونرول الوحي

أشرنا سابقاً إلى أن المصادر تكاد تسكت تماماً عن آية تفاصيل مهمة تخص حياة رسولنا الكريم ﷺ خلال الحقبة الممتدة بين زواجه من السيدة خديجة وبعنته، والتي كان أمدها خمسة عشر عاماً، وعلى الرغم من أن القرآن الكريم لا يشير إلى السن الذي تنزل فيه الوحي على الرسول محمد ﷺ، فإن ما مذكور فيه من اعتبار سن الأربعين سن النضج والكمال<sup>(١)</sup>، دفع معظم المؤرخين إلى الاعتقاد بأن بدء الوحي كان والرسول محمد ﷺ في الأربعين من عمره أو أكثر بقليل<sup>(٢)</sup>.

من جانب آخر تتفق معظم الروايات على أن محمداً بن عبد الله ﷺ كان قبل أن يوحى إليه يتحنث<sup>(٣)</sup> في "غار حراء" فيبقى فيه أمداً منقطعاً للتأمل

---

(١) قال تعالى: «حتى إذا بلغ أشدده وبلغ أربعين سنة، قال رب أوزعني أنأشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي...» [سورة الأحقاف: ١٥].

(٢) يذكر الطبرى أن: ابن عباس وسعيد بن المسيب يزعمان أن محمداً كان في الثالثة والأربعين من عمره حين أنزل عليه الوحي لأول مرة، أنظر الطبرى: ج ٢، ص ٢٩٢.

(٣) يتحنث هنا بمعنى "يتبع" وقد تكون "ثاء" يتحنث بدلاً من "فاء" يتحنف. وهناك تشابه كبير في اللفظ بين كلمة "يتحنث" هذه وكلمة تحنوث Tehinnoth العبرية التي تعنى "التضرع".

والعبادة، وقبل أن نعرض نصوص تلك الروايات عن هذه المرحلة المهمة والخطيرة من تاريخ النبوة، والتي تحمل في ثناياها بعض التباين والاختلاف، نجمل أهم ما جاء فيها من حقائق تاريخية عن هذه المرحلة.

لما بلغ النبي محمد ﷺ أربعين سنة بعثه الله تعالى رحمة للعالمين، وأول ما بدأ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة في أثناء نومه، فكان لا يرى رؤيا إلا كان مثل فلق الصبح، ثم حجب إليه الخلاء والانفراد بنفسه، فكان يخلو بغار حراء يتحنث في الليالي ذوات العدد حتى جاءه الحق وهو في الغاز، وذكر كتاب السيرة أن النبي ﷺ أول ما بعث كان يسمع من يدعوه دون أن يرى شيئاً، ففيضي فأفضى بذلك إلى زوجه خديجة، وقال: "خشيت أن يكون قد عرض لي أمر، قالت: "وما ذاك؟"، قال إذا لوت دعيت فأسمع صوتك ولا أرى شيئاً، فقد خشيت"، قالت: "ما كان ليفعل بك سوءاً، إنك لتصدق الحديث، وتصل الرحم وتؤدي الأمانة" ثم انطلقت به إلى ورقة بن نوفل، فقص عليه ما سمعه، فطمأنه ورقة ونصحه بأن يثبت للصوت حتى يسمع ما يقال له، وبشر خديجة بنبوته، وتابع النبي خروجه للخلوة والانفراد بنفسه بعيداً عن قومه. وذكر ابن اسحق أنه كان إذا خرج للخلوة أبعد حتى تحرس عنه البيوت، ويفضي إلى شباب مكة وبطون أوديتها، وكان يجاور في غار حراء شهراً فيخلو فيه الأيام والليالي يتحنث فيه على عادة الحنفية، ويطعم من يقدم الكعبة، فيطوف بها سبعاً، ثم يعود إلى داره.

وما زال كذلك حتى نزل عليه الوحي وهو ابن أربعين سنة في شهر ربيع الأول، وقيل في ١٧ رمضان في هذا الشهر خرج الرسول إلى حراء كما كان يخرج لجواره، حتى إذا كان الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته جاءه جبريل

عليه السلام فعرض له ليلة السبت وليلة الأحد، ثم أتاه بالرسالة يوم الاثنين لسبعين عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، ويقاد يجمع الأخباريون على أن أول ما نزل على النبي من القرآن سورة العلق، فقد نزل عليه جبريل وهو في غار حراء وقال له: "إقرأ" قال النبي: "ما أنا بقارئ" فأذه فضمه إليه ضمة قوية ثم أطلقه، وعاد يقول له: "إقرأ"، فكرر النبي قوله: "ما أنا بقارئ، فأذه فضمه إليه للمرة الثانية ثم أرسله، وكرر ما طلبه للمرة الثالثة، فرد عليه النبي بقوله: "ما أقرأ" فقال: «اقرأ باسم رب الذي خلق، خلق الإنسان من عرق، اقرأ وربك الأكرم»<sup>(١)</sup>، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم<sup>(٢)</sup>»، فقرأها النبي، فانصرف عنه، ثم فتر الوحي عن النبي فترة حتى شق عليه ذلك، فأحزنه حزناً شديداً حتى جعل يأتي رؤوس الجبال مراراً، وكان كلما أوفى على ذروة جبل بدا له جبريل عليه السلام يقول له "إنكنبي"، فيسكن لذلك جأسه، وترجع إليه نفسه<sup>(٣)</sup>.

إن الروايات المتعلقة بمرحلة التحثن والانقطاع بغار حراء ومن ثم بدايات نزول الوحي التي نقلها لنا الأخباريون وكتاب السيرة تشكل المصدر الأساسي في تاريخ هذه الحقبة من التاريخ، تلك الحقبة التي تعد منعرجاً حاسماً في تاريخ الإنسانية، كما تسجل لنا مقدمات رسالة الإسلام السمحاء التي حملها وبشر بها الرسول الأمين محمد بن عبد الله ﷺ، ولما كانت كل رواية تتناول جانبها من جوانب هذا الحديث العظيم، سنستعرض أهم تلك الروايات ليقف القارئ

(١) سورة العلق: ٥-١.

(٢) أنظر: ابن سعد: ص ١٢٥ وما بعدها. ابن هشام: ق ١، ص ٢٣٥ وما بعدها. الطبرى: ج ٢، ص ٢٩٨ وما بعدها.

على ما في بعضها من ضعف أو تناقض أو اختلاف، أما المعلومات التي وردت في ثانياً آيات القرآن الكريم عن هذه الحقبة، فلا جدال حولها ولا اختلاف لأنها قول الحق المبين.

أورد الطبرى<sup>(١)</sup> رواية ابن شهاب الزهرى على الشكل الآتى: "... كان أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، كانت تجيء مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان بغار حراء يتحنث فيه الليلى ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، فيتنزود لمثلها، حتى فاجأه الحق، فأناه، فقال: يا محمد، أنت رسول الله! قال رسول الله ﷺ: فجثوت لركبتي وأنا قائم، ثم زحفت ترجم بوادرى، ثم دخلت على خديجة: قلت: زملوني، زملوني! حتى ذهب عنى الروع، ثم أتاني فقال: يا محمد، أنت رسول الله. قال: فقد همت أن أطرح نفسي من حلق من جبل، فتبدىء لي حين همت بذلك، فقال يا محمد، أنا جبريل، وأنت رسول الله، ثم قال: أقرأ، قلت: ما أقرأ؟ قال: فأخذني فغتني ثلاثة مرات، حتى بلغ مني الجهد، ثم قال: أقرأ باسم ربك الذي خلق، فقرأت. فأتيت خديجة، قلت: لقد أشفقت على نفسي، فأخبرتها خبri، فقالت: أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبدا، والله إنك لتصل الرحمة، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد، قالت: اسمع من ابن أخيك، فسألني فأخبرته خبri، فقال: هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران، ليتني فيها جذع، ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك. قلت: أخرجني هم؟ قال: نعم، إنه لم يجيء رجل قط بما جئت به إلا

---

(١) الطبرى: ج ٢، ص ٢٩٨-٢٩٩.

عودي، ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم كان أول ما نزل على من القرن بعد "اقرأ"، نوت، والقلم وما يسطرون ... ويا أيها المدثر...، والضحى..." ويتبع الزهري هذه الرواية فيقول "فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة، فحزن حزناً شديداً، جعل يغدو على رؤوس الجبال ليتردى منها، فكلما أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فيقول: إنكنبي الله، فيسكن لذلك جشه، وترجع إليه نفسه، فكان النبي ﷺ يحدث عن ذلك، قال: فيبينما أنا أمشي يوماً، إذ رأيت الملك الذي كان يأتيني بحراً على كرسي بين السماء والأرض فجئت منه رعباً، فرجعت إلى خديجة فقلت: زملوني، فزملاه، أي دثراه، فأنزل الله عزوجل: يا أيها المدثر... قال الزهري: فكان أول شيء أنزل عليه: اقرأ باسم ربك الذي خلق، حتى بلغ: ما لم يعلم".

رواية أخرى للطبرى ينقلها عن يحيى بن أبي كثير عن جابر بن عبد الله الذى يدعى أنه ينقل ما سمعه عن الرسول: "قال -أي الرسول ﷺ-: جاورت فى حراء، فلما قضيت جواري فاستبّطت الوادي فنوديت، فنظرت عن يمنى وعن شمالي، وخلفى وقدامي، فلم أرد شيئاً فنظرت فوق رأسي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض، فخشت منه، ... فلقيت خديجة، فقلت: دثرونى، فدثرونى، وصبوا على ماء، وأنزل على، يا أيها المدثر قم فأنذر"<sup>(١)</sup>.

---

(١) الطبرى: ج ٢، ص ٣٠٣-٣٠٤.

أما ابن اسحاق صاحب أقدم مؤلف في السيرة النبوية وصلنا مؤلفه الكامل تقريباً<sup>(١)</sup>، فينقل إلينا رواية كيسان، مولى آل الزبير، قال: سمعت عبد الله بن الزبير وهو يقول لعبيد بن عمر بن قتادة الليثي: حدثنا يا عبيد، كيف كان بداء ما امبدئ به رسول الله ﷺ من النبوة حين جاءه جبريل عليه السلام؟ قال: فقال عبيد وأنا حاضر يحدث عبد الله بن الزبير ومن عنده من الناس: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تحدث به قريش في الجاهلية... يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك، كان أول ما يبدأ إذا انصرف من جواره، الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع، إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر شهر رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء، كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى.<sup>(٢)</sup>.

الملحوظ في هذه الرواية أن النبي محمد ﷺ كان يخرج للتحنث والانقطاع للعبادة ويخرج معه أهله فهو ليس وحيداً ولا بعيداً عن الناس، أي ينفي موضوع الخلوة والبعد عن الناس الذي يرد في روایات أخرى.

(١) لم تصلنا سيرة ابن اسحاق مباشرة، بل منقولة عن طريق ابن هشام الذي نقلها وحذف منها بعض الأقسام الضعيفة، وبعض الشعر المنحول.

(٢) ابن هشام: ق، ١، ص ٢٣٥-٢٣٦.

ونقل رواية أخرى ذكرها ابن اسحق أيضا عن وهب بن كيسان، جاء فيها "... قال رسول الله ﷺ: فجاءني جبريل، وأنا نائم، بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال، أقرأ، قال: قلت ما أقرأ؟ فغتنى به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: أقرأ، قلت: ماذا أقرأ؟ قال: فغتنى به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: أقرأ، قال: فقلت: ماذا أقرأ... قال: أقرأ باسم ربك الذي خلق... قال: فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني وهببت من نومي فكتابا كتب في قلبي كتابا. قال: فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فرفعت رأسي إلى السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل، قال: فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، قال: فلا أنظر من ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلاها في طلبني، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني" (١).

الملحوظ أن ابن اسحاق وحده يؤكد بوضوح أن اللقاء بـ"الملك" في حراء كان عن طريق الرؤيا "في النوم" فيما أن الآخرين كالطبراني وابن سعد يسكتون عن الأمر ولا يدققون صفة اللقاء الأولى وبداية الوحي.

يكمل ابن اسحق روايته السابقة موضحا موقف السيدة خديجة من الحدث فيذكر عن رسول الله ﷺ "... وانصرفت راجعا إلى أهلي حتى أتيت خديجة

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٢٣٦-٢٣٧.

فجلست إلى فخذها مضيقا إليها، فقالت يا أبا القاسم، أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ثم رجعوا لي، ثم حدثتها بالذىرأيت، فقال: أبشر يا ابن عم وأثبتت، فوالذي نفس خديجة بيده أني لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ابن أسد، وهو ابن عمها، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتب وسمع من أهل التسورة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال ورقة بن نوفل: قدوس، قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتي يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت<sup>(١)</sup>.

أما ابن سعد، صاحب "الطبقات الكبرى" فيذكر روایتين عن هذا الحدث، الأولى عن ابن عباس تقول: "فيينما رسول الله ﷺ على ذلك وهو بأجياد إذ رأى ملكا واصعا إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء يصيح: يا محمد، أنا جبريل، يا محمد أنا جبريل فذعر رسول الله ﷺ من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه إلى السماء، فرجع سريعا إلى خديجة فأخبرها خبره، وقال: يا خديجة، والله ما أبغضت بغضي هذه الأصنام شيئاً قط ولا الكهان، وإنني لأخشى أن أكون كاهنا، قالت: كلا يا ابن عم، لا تقل ذلك، فإن الله لا يفعل ذلك بك أبدا، إنك لتصل الرحمة وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة، وإن خلقك لكريم ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل..."<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) ابن سعد: ج ١، ص ١٩٤-١٩٥.

والرواية الثانية عن هشام بن عروة: أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: يا خديجة، إني أرى ضوءاً وأسمع صوتاً، لقد خشيت أن أكون كاهناً، فقالت: إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله إنك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم<sup>(١)</sup>.

إن تكشف شخصية ما ورائية وانطلاقه الوحي في الوقت نفسه مذكور بصفة واضحة في القرآن الكريم، وقد أشار إليها وإلى صدق الوحي في مناسبات عديدة وإلى كيفية تنزله على محمد ﷺ، وبشكل خاص في سورة "التكوير والنجم" وسورة "التكوير" أقدم من "النجم" ويبدو هذا في أسلوبها على أنها دقيقة في وصفها.

فالوحي قول من "رسول كريم" أرسله الله، وليس وبالتالي قول الله مباشرة، وهذا الرسول "ذو قوة"، وخير فإن النبي رآه "بالأفق المبين" والأرجح أن هذه الرؤية تمت في الأول، وأن قول هذا الرسول المبلغ الأمين هو الوحي القرآني الذي قد يكون ابتداء مع الرؤية.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لِقَوْلِ رَسُولِنَا مُحَمَّدٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مَطَاعٌ شَمَائِيلٍ، وَمَا صَاحِبُكَ مِنْ جَنَّونٍ، وَلَقَدْ رَأَهُ بِالْأَفْقِ الْمَبِينِ، وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَعْنَىٰ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ مَرْجِيْمٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن سعد: ج ١، ص ١٩٥.

(٢) سورة التكوير: ١٨-٢٥.

أما سورة "النجم" فتوضح التجربة الأولى للوحي بكل دقة وتفصيلاً تفصيلاً موضوعياً وكما انطبعت في نفس محمد ﷺ<sup>(١)</sup>، قال تعالى: «والنجم إذا هوى، ما ظلل صاحبكم وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، علمه شديد القوى، ذومرة فاستوى، وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوْحى إلى عبدِه ما أوْحى، ما كذبَ الفؤاد ما رأى، أقْتَمَ رُونَه على ما يرى، وقد رأه نزلة أخرى، عند سدرة المنتهى، عند هاجنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما نزع البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربِّه الكبُرِي»<sup>(٢)</sup>.

من جانب آخر، فإن آيات القرآن الكريم لم تذكر تاريخاً معيناً لنزلول القرآن على الرسول، بل أشارت بشكل عام إلى يوم نزول الوحي، والشهر الذي أنزل فيه القرآن الكريم، قال تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكُ مَا لِلَّهِ الْقَدْرُ»<sup>(٣)</sup>، «حَمٌ، وَالْكِتَابُ الْمُبِينُ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مِبْارَكَةٍ، إِنَّا مَنْذِرُنَا»<sup>(٤)</sup>، «شَهْرُ مُرْضَانَ الَّذِي أَنْزَلْنَا فِيهِ الْقُرْآنَ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ»<sup>(٥)</sup>.

(١) هشام جعيط، في السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٩.

(٢) سورة النجم: ١٨-١.

(٣) سورة القدر: ٢-١.

(٤) سورة الدخان: ٣-١.

(٥) سورة البقرة: ١٨٥.

## المبحث الثاني

# الدعوة إلى الإسلام

لما أبطأ الوحي عن النبي ﷺ بعض الإبطاء، قال كفار قريش: "ودعه ربه وقلة"، فنزلت عليه سورة الضحى، أقسم له ربه فيها أنه ما تركه وما أبغضه منذ أحبه، وبينما كان يسير يوماً إذ سمع صوتاً، فرفع رأسه إلى مصدره، فإذا جبريل بين السماء والأرض، فخشى منه النبي رهبة، ودخله منه روع، وأسرع إلى داره يرجف وأتى خديجة وطلب منها أن تدثره، فنزلت عليه سورة المذتر: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُذْتَرُ، ثُمَّ فَانذِرْ، وَرِبْكَ فَكَبِرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهَرْ﴾<sup>(١)</sup>، فبادر النبي ﷺ بالدعوة إلى الإسلام وترك عبادة الأوثان والأصنام وبدأ بأقرب الأقربين إليه، ثم دعا قومه مستخفياً ثلاثة سنين، جهر بالدعوة بعدها.

## المسلمون الأولون:

أول ن آمن بنبيوة ورسالة محمد بن عبد الله ﷺ وأسلم زوجه السيدة خديجة بنت خويلد، فهي بذلك أول المسلمين عامة، وأول من أسلم من النساء. ثم اختلف الرواة وكتاب السيرة في ثلاثة أسماء أبיהם أسبق إلى الإسلام هم: علي بن أبي طالب، وأبو بكر عبد الله بن أبي قحافة القرشي، وزيد بن

---

(١) سورة المذتر: ٤-١.

حارثة مولى النبي، والمتفق عليه أن أول من أسلم من الموالى زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزى، من الغلمان على بن أبي طالب وكان يومئذ ابن عشر سنين، ومن الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، وأسلم على يدى أبي بكر خمسة من كبار صحابة النبي هم: الزبير بن العوام بن خويلد، وعثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، وعبد الرحمن بن عوف من بنى زهرة، وسعد بن أبي وقاص من بنى زهرة، وطلحة بن عبيد الله، جاء بهم إلى النبي فأسلموا وصلوا.

أما الدفعة الثالث كما يحددها ابن اسحق فكانت تضم أشخاصا منهم: أبو عبيدة من الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد والأرقمن بن أبي الأرقمن، وعثمان بن مضعون وأخواه قدامة وعبد الله، وعبيدة بن الحارث المطلب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وامرأته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر، وخباب بن الأرت، وعمير ابن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، ومن أبرز من أسلم من قريش سليمان بن عمرو بن عبد شمس، وخنيس بن حذافة بن عدي، وعبد الله بن جحش، وجعفر بن أبي طالب، وخالد بن سعيد بن العاص، ونعيم بن عبد الله بن أسيد النحام، والأخيران من بين الأسماء التي تثير الاهتمام لوضعهما المالي والاجتماعي، فخالد كان أبوه من مشاهير رجال المال والأعمال في مكة، ونعيم كان سيد بنى عدي، وعلى الرغم من أنه كان من أوائل من أسلم وأنه لم يترك مكة ويهاجر إلى المدينة حتى السنة السادسة من الهجرة ولعل السبب في ذلك أنه كان في منعة من قومه ولم تستطع قريش أن تناهه بأذى، كما

أسلم في هذه المرحلة عمار بن ياسر وصهيب بن سنان<sup>(١)</sup> وهم من المستضعفين آنذاك.

وبشكل عام يمكننا أن نصنف المسلمين الأولين في هذه المرحلة من تاريخ الدعوة الإسلامية إلى ثلاثة فئات:

**الفئة الأولى:** وهم الشباب من الأسر المكية ذات النفوذ والقوة، سواء من الناحية المالية أو الاجتماعية أمثال خالد بن سعيد بن العاص، الذي سبقت الإشارة إليه، وغيره شباب آخرون يتصل نسبهم بأعظم الأسر المكية مركزاً ونفوذاً، وكثيراً ما كانت أسرهم في الصف الأول المعارض للرسول ودعوته، وفي أول مواجهة مسلحة واسعة بين المسلمين والمشركين، في معركة بدر، تجسدت حالة الانتقام الجديد بشكل جلي، عندما وقف الابن ضد أبيه أو الأخ ضد أخيه أو بن العم ضد أبناء عمومته وقبيلته، وكان لهذه الفئة مكانة الدعوة الجديدة.

**الفئة الثانية:** هم شباب أيضاً ولكنهم من أسر أقل نفوذاً من رجالات الفئة الأولى، وبينهم رجال وشيوخ لهم مكانتهم ونفوذهم المميز في داخل أسرهم وبطونهم، ولكن عددهم كان قليلاً، ذلك أن غالبية رجال هذه الفئة كانوا دون الثلاثين حين أسلموا، وربما من كان بينهم من هو دون العاشرة من العمر.

---

(١) ابن هشام: ق١، ص٢٥٢ وما بعدها. الطبرى: ج٢، ص٣١٢ وما بعدها.

**الفئة الثالثة:** فهم المستضعفون من قبائل مستضعفه، لا يستطيعون حماية أنفسهم، وأغلب عناصر هذه الفئة رجال لا تربطهم صلة قرابة الدم بقبائل مكة أو بطونها، بل تربطهم بها صلة الولاء أو التحالف، ومن هذه الفئة عبيد بنى تم الدين أسلموا واعتنقهم أبو بكر وهو من تم وفرض على قبيلته حمايته وحماية عبيدة، حتى أن تم لم تقدم الحماية لأبي بكر نفسه ولا لطلحة حين آذتها قريش وقيدهما معاً عقاباً لهم على إسلامهما، ومن هذه الفئة أيضاً عمار بن ياسر وصهيب بن سنان، اللذان كانوا من أحلاف تم وعبد شمس معاً<sup>(١)</sup>.

يمكننا أن نخرج بنتيجة من هذا التصنيف مفادها أن الدين الجديد غداً بعد تنزله على قلب محمد بن عبد الله ﷺ، دين الشباب الطامح إلى تغيير المجتمع، ذلك أن غالبية المسلمين الأولين كانوا دون الأربعين أو حتى دون الثلاثين من العمر.

### الدعوة العلنية ومعارضة قريش:

ظل النبي ﷺ يدعو سراً ثلاثة سنين من مبعثه، ثم جهر بالدعوة عندما أمره الله تعالى بإظهار دينه، قد جاءه الأمر بعلنية الدعوة في الآية الكريمة «فاصدّع بما تُمرِّسْ، وأعرض عن المشركيين، إنا كفيناك المستهزئين»<sup>(٢)</sup>، وقال تعالى: «وَإِنَّمَا عَشِيرَتِكُلُّ الْأُقْرَبِينَ، وَأَخْفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ عَصْوَكَ قَلْ

(١) M. watt. PP. 95-96.

(٢) سورة الحجر: ٩٥-٩٤.

﴿وَإِنَّرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبَينَ، وَأَخْفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنْ عَصْوْكَ فَقْلَ إِنِي  
بَرِّيٌّ مَا تَعْمَلُونَ، وَتَوَكَّلْ عَلَى الْغَنِيَّرِ الْحَمِيدِ، الَّذِي يَرَكُّحِنْ قَوْمَهُ، وَتَقْلِبَكَ فِي  
السَّاحِدِينَ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾<sup>(١)</sup>.

ذكر ابن سعد أنه حين تنزل أمر الله بوجوب نقل الدعوة من مرحلة السر إلى مرحلة العلن، خرج الرسول ﷺ حتى صعد الصفا ونادى بالناس، فتساءلوا عن الذي يهتف فقيل لهم إنه محمد، واجتمع حوله أهل مكة ورجالاتها من مختلف الأحياء والبطون، ولما اكتمل جمعهم قال لهم الرسول: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقين؟! فقالوا له: ما جربنا عليك كذباً. قال إني ﴿نَذِيرٌ لَكُمْ بَنِي دِي عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾<sup>(٢)</sup>، يا بنى عبد المطلب، يا بنى عبد مناف، يا بنى زهرة، -حتى عد الأفخاذ من قريش- إن الله أمرني أن (أنذر عشيرتك الأقربين)، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله، فقال أبو لهب: تبا لك، سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله عزوجل فيه: ﴿تَبَتِّدِي أَبِي لَهَبٍ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة الشعراة: ٢١٤-٢٢٠.

(٢) سورة سباء: ٤٦.

(٣) سورة المسد: ١.

## **أسباب المعارضة للدعوة الإسلامية:**

تذكر كتب السيرة أن قريشا لما تعارض دعوة محمد ﷺ أول الأمر، ولم تبعد محمد عن قومه، ولم تعلن قريش عداءها الجدي للدعوة الإسلامية، إلا بعد أن تعرض الرسول لآلهتها ونذرها بسوء، وهنا لابد من التساؤل: هل كان المكيون على درجة من التدين يجعلهم يحرضون على آلهتهم وينفقون من أجاليها إلى هذا الحد؟ وقد رأينا كيف أن المكيين كانوا في تلك الحقبة قبيل ظهور الإسلام - يستخفون بهذه الالهة، وقناعتهم بأنها لا تملك حولا ولا قوة، وإنما يعبدونها لأنها تقربهم إلى الله زلفى، في حين رفض عدد غير قليل منهم عبادتها، وهناك روايات وحكايات كثيرة حول هذا الموضوع، الأمر الذي يدفعنا إلى القول بأن ذم محمد ﷺ لآلهتهم لم يكن السبب الذي أثارهم ضده، بل أن هناك عوامل وأسباب أخرى تكمن وراء هذا الموقف.

## **العامل السياسي:**

أدرك زعماء قريش أن هذه الدعوة الجديدة هي ثورة دينية، قد تؤدي إلى انقلاب في المفاهيم يكون من نتائجها فقدانهم الزعامة التي يتغذون بظلالها والتي ترتبط إلى حد كبير بزعامتهم الوثنية وجود الكعبة، رمز وحدة العرب ومحط أنظارهم، فهم سدنة هذه الكعبة وهم المشرفون على شؤونها وحمايتها، وهي التي أعطتهم بمناسك حجها وبالآلهة الموجودة في داخلها، ما يتمتعون به من مكانة وسيادة، وكان منيع خوفهم أن يأتي الدين الجديد ليهدم هذه المقدسات وبالتالي ليس لهم مالهم من سيادة وامتيازات.

من جانب آخر، فإن المجتمع الجديد الذي يدعو إليه محمد ﷺ سيكون مجتمعاً تحتاج الزعامة السياسية فيه إلى مواصفات تختلف عن المواصفات التي يحتاجها المجتمع القديم. وسينتج عن نجاح دعوة محمد ﷺ تغيير شامل يتراوّل فيما يتراوّل جانب الزعامة السياسية، وسيزول زعماء قريش التقليديون بنتيجة هذا التغيير وسيجلس في مقاعد الزعامة أشخاص تتبع زعامتهم من متطلبات الدين الجديد. وإن فستكون أولى النتائج السياسية التي تترتب على الاستسلام لدعوة الدين الجديد، أن يحتل محمد ﷺ مركز الزعامة والصدرة في المجتمع، وهذا ما لا تتوافق عليه الزعامة القرشية، لذلك كان من المتوقع أن تدافع هذه الزعامات عن وجودها المهدد.

### **العامل الديني:**

من الطبيعي أن تكون مظاهر المعارضة الأولى دينية، لأن الإسلام جاء بالدرجة الأولى ليؤكد على عبادة الله واحد وليلغى عبادة الأصنام في مكة وخارجها، وأن نجاح الإسلام في تحقيق هذا الهدف الجوهرى، يعني زوال معتقدات وتقالييد ألفها الناس وعاشوا معها زمناً طويلاً، جيلاً بعد جيل، وقد أشار القرآن الكريم في أكثر من مناسبة إلى هذا الجانب كقوله تعالى: «بِلَّا قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةً وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مَهْتَدُونَ»<sup>(١)</sup>، و«إِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَابُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ تَسْعَ

---

(١) سورة الزخرف: ٢٢.

ما وجدنا عليه آباءنا»<sup>(١)</sup>. «لَنْهُمْ أَفْوَاكُبَاعِهِمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَىٰ أَثْمَارِهِمْ يَهْرُونَ»<sup>(٢)</sup>، فالوجه الديني للمعارضة كان أساسياً ولا يمكن إغفاله.

### العامل الاجتماعي:

أدرك القرشيون وأهل مكة أن الإسلام دين يهدد تكوين مجتمعهم ونظمهم وعاداتهم وتقاليدهم التي ألغوها واعتادوا عليها وطبقوها في حياتهم الخاصة وال العامة، وليس من السهل عليهم أن يتخلوا عنها، وليس من ضرورة أن يتتوافق الإسلام وهذه النظم والتقاليد لذا فإن أي ثورة عليها يأتي بها الدين الجديد هي ثورة على مألف محبب، وستلاقي معارضته المتزمتة المتمسكين بالقديم، هذا فضلاً عن تأكيد الإسلام على عصبية العقيدة بدلاً من عصبية الدم، وهذه العصبية الجديدة قد تبعد الأخ عن أخيه والابن عن أبيه، وهذا ما أفزع المشركين وأقلق المجتمع المكي.

### أساليب قوش في مقاومة الإسلام:

اعتمد القرشيون في محاربة الرسول ﷺ ودعوته الإسلامية أساليب وطرق عديدة، منها ما هو معنوي إعلامي، ومنها ما هو مادي.

فالوجه المعنوي للمحاربة اعتمد في البداية أسلوب التكذيب والتشكيك بصدق الرسول ﷺ، فقالوا بأن ما جاء به محمد بن عبد الله من دعوة ليس جديداً

(١) سورة لقمان: ٢١.

(٢) سورة الصافات: ٦٩.

وأنه من أساطير الأولين، ثم اتهموه بأن هذا الذي يدعى بأنه يتزل عليه، ما هو إلا كلام يلقنه له قوم آخرون من الأعاجم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأسلوب وفنده وسخر منه، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿وَقَالُوا أَسْاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾<sup>(٢)</sup>، ﴿وَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعْنَاهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ، فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَنُورًا﴾<sup>(٣)</sup>، ﴿وَقَالُوا أَسْاطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكَتَبْتُهَا فَهِيَ تَلَى عَلَيْهِ بَكْرَةً وَأَصْبِلَ﴾<sup>(٤)</sup>، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ، لَسَانُ الدِّيْنِ يَلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمَى، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مِّنْ﴾<sup>(٥)</sup>.

كما استخدمت قريش أسلوب السخرية والاستهزاء بالدعوة المحمدية، واتهموا الرسول بشتى التهم، فقالوا بأنه ساحر، ومجنون، وكذاب، ومفتر، كما نسبوا إليه صفة الشعر والكهانة، وطالبوه بأن يأتيهم بقرآن غير هذا الذي يوحى به إليه، أو أن يقدم لهم القرآن كله دفعة واحدة، وكانوا لا يخفون شکهم واستغراهم لما يجيء به ويسخرون من المسلمين إلى جانب سخريتهم من الرسول.

ثم لجأ المشركون إلى محااجة الرسول ﷺ ومحاولة إحراجه أمام عامة الناس فطالبوه بأن يعطيهم آياته، وأن يقوم بالمعجزات التي ثبتت نبوته وقد صور القرآن الكريم تلك المطالب المغرضة في آياته خير تصوير، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا

(١) سورة الأنفال: ٣١.

(٢) سورة المؤمنون: ٨٣.

(٣) سورة الفرقان: ٥-٤.

(٤) سورة النحل: ١٠٣.

لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةً مِنْ خَيْلٍ وَعَنْبٍ فَتَفْجُرَ  
الْأَنْهَارَ خَلَطًا تَفْجِيرًا، أَوْ تَسْقُطُ السَّمَاءُ كَمَا زَرَعْتَ عَلَيْنَا كَسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ  
وَالْمَلَائِكَةَ قِبْلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ نَارٍ خَرْفٌ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرَقِيقٍ  
حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كَتَبًا تَقْرُئُهُ، قُلْ سَبْحَانَ رَبِّيِّ، هَلْ كُنْتَ إِلَّا بَشَرًا مَرْسُولاً»<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: «وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَعْشِي فِي الْأَسْوَاقِ، لَوْلَا  
أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ مَلِكًا فِيهِ كَوْنٌ مَعْدُنِيَّا، أَوْ يَلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا، وَقَالَ  
الظَّالِمُونَ إِنَّمَا تَعْبُونَ إِلَّا بِرِجْلِ مَسْحُورٍ»<sup>(٢)</sup>.

ومن الأساليب التي تدرج في إطار المحاربة المعنوية للدعوة الإسلامية،  
لجوء قريش إلى محاولة الضغط الشخصي على الرسول محمد ﷺ من خلال  
أقرب المقربين إليه، فبعد أن باعه بالفشل أساليب المقاومة المختلفة ولم تؤدِ إلى  
ردع الرسول عن الدعوة إلى الدين الجديد، فكرت قريش بالجوء إلى عمه  
وحاميه أبي طالب، فقدم جماعة من أشراف قريش إلى أبي طالب وأبلغوه أن ابن  
أخيه سب آلهتهم وعاب دينهم وسفه أحلامهم وظلل آباءهم، وطلبوه منه إما أن  
يكفه عنهم أو يخلي بينهم وبينه، فردهم أبو طالب رداً جميلاً ووعدهم بمخاطبة  
النبي ﷺ في ذلك، وكان أبو طالب ملماً بكل ما يفعله ابن أخيه، وكان يعطف  
عليه، ويبدو أنه لم يشاً أن يحدثه فيما خاطبه به القرشيون، ومضى رسول الله  
على ما هو بسبيله من الدعوة للإسلام.

---

(١) سورة الإسراء: ٩٤-٩٥.

(٢) سورة الفرقان: ٨-٧.

وكان إيمان النبي برسالته قويا عميقا راسخا، فلم يرهبه تهديد قريش له ووعيدهم لدينه، فواصل أداء رسالته وأدركت قريش مدى خطورة الدعوة الإسلامية على عبادة الأواثان التي هي المصدر الرئيسي لما كانوا يجنونه في مواسم الحج من ثروات، فاجتمع وفد منهم وقصدوا أبي طالب، فقالوا له: "يا أبي طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا، وإننا قد استهيناك من ابن أخيك فلم تتهنّ عنا، وإنما والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيوب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله ولدك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين"، ثم انصرفوا عنه، فعظم الأمر على أبي طالب، وحار فيما يفعل أمام ضغوط قريش عليه، فبعث إلى رسول الله ﷺ وأفضى إليه بما حدثه عن قومه بشأنه، ورجاه أن يبقى على نفسه وعلىه، ولا يحمل عمه ما لا يطيق، فظن رسول الله أن عمه قد ضعف عن نصرته، وخذله، وأنه سيسلمه إلى قريش، فقال رسول الله لعمه: "يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره أو أهلك فيه ما تركته"، ثم استعبر رسول الله، فبكى، وقام منصرا، فناداه عمه وقال: "اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلنك لشيء أبدا" <sup>(١)</sup>.

وقد ذكر القرآن الكريم فتنة من المعارضين، جندوا أنفسهم لصد الناس عن الإسلام، فكانوا يقتسمون طرق مكة لهذا الغرض، لذلك دعاهم باسم "المقتسمين"، فيقول تعالى مخاطبا رسوله الكريم: «وقل إني أنا النذير للمبین، كما أنزنا على المقتسمين، الذين جعلوا القرآن عضين، فوربك لتسألهم أجمعين» <sup>(٢)</sup>، ويقول ابن

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٢٦٤-٢٦٦. الطبری: ج ٢، ص ٣٢٤ وما بعدها.

(٢) سورة الحجر: ٨٩-٩٣.

حبيب في "المهجر" عن هؤلاء أنهم كانوا "سبعة عشر رجلاً من قريش، اقسماًوا أعقاب مكة، فكانوا إذا حضروا الموسم يصدون الناس عن رسول الله ﷺ، وفيهم نزلت "كما أنزلنا على المقتسمين" وهم كما ذكر هشام بن الكلبي عن أبيه عن أبي صالح عن ابن عباس، منبني عبد شمس ثلاثة نفر: حنظلة بن أبي سفيان، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس، ومنبني مخزوم سبعة نفر: أبو جهل، والعاص، وأبو قيس بن الوليد، وقيس بن لفاكه، وزهير بن أبي أمية، والأسود بن عبد الأسد، وصيفي بن السائب، ومنبني عبد الدار هو النضر بن الحارث بن كلدة، ومنبني أسد بن عبد العزى اثنان: أبو البختري بن هاشم وزمعة بن الأسود، ومنبني سهم اثنان: منبه ونبيه ابنا الحاج، ومنبني جمع اثنان: أمية بن خلف وأوس بن معير".

وقد اهتم الرسول ﷺ بأمر هؤلاء فأخذ يرسل شخصاً من أصحابه يقف إلى جانب المشرك المعارض، فيفند ما يقوله للناس ويوضح أكاذيبه وتقولاته على الرسول ﷺ<sup>(١)</sup>.

أما الأساليب المادية في محاربة الرسول و أصحابه فكانت كثيرة ومتعددة، وقد حفلت كتب التاريخ والسير بأمثلة عديدة منها، فقد تأمرت قريش أكثر من مرة على الرسول ﷺ وهموا بقتله عدة مرات، ورموا عليه الأذار، وبلغ الأمر في إحدى المرات بعقبة بن أبي معيط أن حاول خنق الرسول ﷺ حين وجده واقفاً قرب الكعبة، ولو لا أن صادف ذلك وجود أبي بكر بقربه لكان آذاه إيذاء شديداً.

---

(١) ابن حبيب، المجر: ١٦٠-١٦١.

وكان أشد الناس قسوة على الرسول ﷺ عمه أبو لهب وامرأته أم جميل، أروى بنت حرب، فكان أبو لهب يطرح القذر والنتن على باب النبي ﷺ وكانت زوجة أم جميل تحمل أغصان الشوك فتطرحها على طريق النبي ﷺ، ولم يكن هذا حال الرسول ﷺ وحده بل حال جميع من أسلم، فقد جندت قريش كل إمكانياتها ورجالاتها ونفوذها لردع الناس عن الإسلام وإيقاع الأذى بمن أسلم، وبالغت قريش في ذلك حتى وثبتت كل قبيلة منها على من أسلم من أبنائها يعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضان مكة في أيام الحرب الشديد، فتعرض لإيذائهم جمهور كبير من اتباع النبي، وكان أشد المتعرضين للعذاب هم المستضعفون والموالي ومن لا سند قبلى لهم، وفي مقدمتهم بلال بن رباح، مولى أبي بكر، وعمار بن ياسر وأبواه، وقد استشهدت سمية أم عمار، إذ طعنها أبو جهل بحرقة في قلبها، فكانت أول شهيدة في الإسلام<sup>(١)</sup>، وهناك قصص كثيرة جدا في كتب السيرة والتفسير، عن أنواع العذاب الذي تعرض له المسلمون الأوائل.

### المجرة إلى الحبشة:

حين اشتد أذى قريش على المسلمين وخاف الرسول أن يؤدي هذا إلى فتتتهم عن دينهم وهو لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم: "لو خرجمتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجا مما أنتم فيه" وقد استجاب بعض المسلمين لنصيحة

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٣١٧.

الرسول هذه فخرجوا متسللين سراً، وكان عدد أفراد الدفعة الأولى أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وكانت هذه الهجرة في شهر رجب من السنة الخامسة لمبعث الرسول ٦١٥م.

استمرت عملية الهجرة إلى الحبشة حتى انتهى عدد من هاجر من المسلمين إليها إلى ثلاثة وثمانين رجلاً بخلاف الزوجات والأبناء، ويبدو أن هذا العدد كان يضم الدفتين الأولى والثانية، وقد ذكرنا أن الرعيل الأول من المهاجرين كانوا ١١ رجلاً وأربع نسوة، ركباً سفينتين من ميناء الشعيبة (ميناء مكة) تعودان لبعض التجار حملتاهم إلى أرض الحبشة مقابل نصف دينار عن كل شخص، ولما علمت قريش بذلك لحقت بهم بقصد إرجاعهم ولكنها لم تدركهم. ومن بين أسماء من هاجر في الدفعة الأولى: عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وامرأته سهلة بنت سهيل، ومن بني أسد بن عبد العزى الزبير بن العوام، ومن بني عبد الدار مصعب بن عمير بن هاشم، ومن بني زهرة عبد الرحمن بن عوف، ومن بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة، ومن بني جمح بن عمرو عثمان بن مظعون، ومن بني عدي بن كعب عامر بن ربيعة وامرأته ليلي.

أما الدفعة الثانية فقد خرج فيها جعفر بن أبي طالب ومعه امرأته أسماء بنت عميش، وعمرو بن سعيد بن العاص وامرأته فاطمة بنت صفوان، وأخوه خالده وامرأته أمينة بنت خلف، وعبد الله بن جحش وأخوه عبد الله ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، وقيس بن عبد الله، وعتبة بن غزوان، وعبد الله بن

مسعود، والمقداد بن الأسود، وعدد آخر من عاد إلى مكة من المهاجرين الأوائل<sup>(١)</sup>.

إن موضوع الهجرة إلى الحبشة ما زال يطرح جملة من الأسئلة عن أسباب هذه الهجرة، وعن دوافع الاختيار للحبشة دون غيرها من الأقاليم، فإذا كان أحد أهم أسباب هذه الهجرة، كما تشير المصادر، هو الخوف على المسلمين من الفتنة والارتداد عن الدين نتيجة الاضطهاد والضغط القرشي، فإنه كان من بين المهاجرين الكثير من المسلمين الأوائل أصحاب الإيمان القوي الذين لا يخشون فتتهم نتيجة للاضطهاد، كما أن الذين لم يهاجروا لم يكونوا أكثر إيماناً من الذين هاجروا.

وإذا كان سبب الهجرة إلى الحبشة هو حماية المسلمين من الأذى، فلما بقي بعض المسلمين هناك حتى السنة السادسة للهجرة، أي أنهم لم يعودوا حتى بعد أن أصبح الإسلام، بعد الهجرة، قوة ودولة قادرة على حماية المسلمين، علما بأنه لا يعرف أن الرسول ﷺ قد أمرهم بالبقاء هناك.

هذه الأسئلة وغيرها تدفعنا إلى الاعتقاد بأنه لا يمكن حصر أسباب هذه الهجرة بسبب واحد أو اثنين وإنما كان لها أهداف أبعد من ذلك، فمن خلال استقراء العلاقات الدولية آنذاك تظهر لنا أسباب اختيار الرسول ﷺ للحبشة دون غيرها، فقد كان للمكيين علاقات تجارية مع الشام واليمن والعراق ومنذ القديم كان أبناء عبد مناف يتاجرون مع مختلف تلك الأصقاع بموجب اتفاقيات الإيلاف

---

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٣٢٢ وما بعدها. الطبرى: ج ٢، ص ٣٣٣ وما بعدها.

التي أشرنا إليها سابقاً، وكانت الحبشة من ضمنها، على أن العلاقات مع الحبشة لم تكن على نفس القوة، وقد خفت صلات قريش مع الحبشة على أثر حملة أبرهه، كما أن وجود البحر بين البلدين وصعوبة المواصلات زاد في ضعف هذه العلاقات وأغلب الظن أن العلاقات التجارية مع الحبشة لم تكن مباشرة، بل غير مباشرة وعن طريق اليمن، يستنتج من كل ذلك أن الصلات بين الحبشة وقريش لم تكن وثيقة بعكس العراق والشام، لذلك فضل الرسول أن تكون هجرة أصحابه إليها لا إلى غيرها من البلدان التي تربطها بقريش روابط ومصالح متبادلة.

من جانب آخر أراد الرسول ﷺ أن يستفيد من الخلاف الذي كان بين البيزنطيين وقريش، بسبب علاقات قريش التجارية المتميزة مع الفرس خلال تلك الحقبة، وأراد أن يقوى علاقاته مع الأحباش حلفاء البيزنطيين والذين لم يرضهم أيضاً هذا الود بين قريش وفارس، ولعل الرسول أراد بذلك أن يفرض على مكة عزلة تجارية، وأن يستخدم قوة خارجية في الضغط عليها ولهذا كله تقرب من الحبشة وأرسل إليها وFDA من المسلمين وأقام معها علاقات طيبة.

ومن ناحية أخرى فإن محمداً ﷺ رحب في إرسال المسلمين إلى جو غيروثني، والحبشة على النصرانية يومذاك، فهي إذن أكثر استعداداً للدفاع عن المسلمين الموحدين ضد أعدائهم المشركين. وأما ما ورد في المصادر عن عدل النحاشي فقد يكون من العوامل المشجعة الأخرى.

لما رأت قريش أن أصحاب النبي ﷺ قد أمنوا في الحبشة واستقروا بها، انفقو على أن يبعثوا إلى النحاشي رجلين يحملان إليه وإلى بطارقته هدايا مما يستطرون من متاع مكة كلام، وقيل أنهما هدايا إلى النحاشي، فرسا وجبة ديباج، وذلك لإقناعه برد المسلمين، فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة

اللذين دفعا كثيرا من الهدايا إلى بطارقة النجاشي، وخطبواهم في شأن المهاجرين، وقالا لهم: (إنه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم، ليりدتهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشاروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عينا) فوعدهم بطارقة بتأييدهم، ثم قدما إلى النجاشي، وقدما إليه هدية قريش، وسألاه أن يرد إليهم المسلمين، وأيدهما بطارقته، فغضب النجاشي، وأبى أن يسلم قوما استجاروا به، واحتموا فيه، واختاروه دون غيره، قبل أن يسألهم رأيهما فيما يقولاه، ثم أمر بإحضار أصحاب رسول الله، فسألهم عن مبادئ الإسلام الذين فارقوا من أجله دين قومهم ودين المسيحية، فتقدمن منه جعفر بن أبي طالب، وقال له في جملة ما قاله: "يا أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونسألك الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحده ونبعده ونخلع ما كنا نعبد نحن وأباءنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحسنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلة والزكاة والصيام... فصدقناه وأمنا به"، ثم قص عليه ما لقيه المسلمون من اضطهاد قريش وتعذيبهم لهم لإرغامهم على الارتداد إلى الوثنية، وأنهم آثروا أن يفروا بدينهما الحق إلى بلاد لا يظلمون فيها، فاختاروا بلاد الحبشة، فطلب منه النجاشي أن يقرأ عليه شيئاً من القرآن، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم: (كهيعص، نكر رحمة ربك عبده زكرياء، إذ نادى

ربه نداء خفيا) فبكى النجاشي وبكى أساقفته، ثم صرف النجاشي رسولي قريش وأبى أن يستجيب لطلبهما ويرد إليهما مهاجري المسلمين، فغضب عمرو بن العاص ورفيقه، واتفقا على أن يذهبا إلى النجاشي مرة ثانية، ويدعيا أمامه بأن المسلمين يطعنون في عيسى بن مريم، ففقل، فأرسل النجاشي يستقدم المسلمين، فلما اجتمع القوم سأله النجاشي جعفر بن أبي طالب عما يقوله الإسلام في عيسى بن مريم، قال: "هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول" فأعجب النجاشي من إجابته، وتأكد لديه أن محمد بن عبد الله هو الرسول الذي بشر به السيد المسيح فرحب بال المسلمين وأمنهم في أرضه<sup>(١)</sup>.

هذا وقد ظل بعض المهاجرين المسلمين في الحبشة حتى أرسل الرسول إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري وطلب منه أن يرد على الرسول من قبله من المسلمين، فوافق النجاشي وركب المسلمين سفينتين وعادوا، وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة والرسول بخير، وكان عدد الذين عادوا في هذه الدفعة الأخيرة ستة عشر رجلا، ويبدو أن بقاء هذه المجموعة المسلمة في الحبشة طول هذه المدة ١٣ سنة، أي حتى بعد أن أصبح الإسلام قوة ودولة تحمي المسلمين، كان سببه ارتباط أفراد هذه المجموعة بمصالح اقتصادية أو بروابط اجتماعية في تلك البلاد.

---

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٣٣٥.

## المقاطعة الاقتصادية:

وأصل كفار قريش إيذاء النبي واتباعه، وتعرض منهم لكل صنوف الأذى، فأغروا برسول الله سفهاءهم، فكذبوه وأنووه، ورسول الله ﷺ مظهر لأمر ربه لا يبالى بما يرمونه به من سفه، ويصرح لهم بما يكرهونه من عيب دينهم واعتزال أولئك، وظل مقينا مع قريش بمكة يدعوهم إلى الله ولا تلين له في ذلك قتلة، صابرا على أذاهم ورفضهم وتعذيبهم واستهزائهم، وزاد هذا الصبر والجلد على المكاراة في حنق قريش وغضبها من الرسول فعمدت إلى أساليب شتى للضغط على المسلمين، وكان من بين هذه الأساليب الجديدة أسلوب الضغط الاقتصادي، كذلك زادوا في عذاب وإيذاء العبيد والمستضعفين الذين لم يهاجروا إلى الحبشة ولم يكن لهم في مكة السند القوي الذي يمنعهم أو يخفف من المكاراة التي كانت تنزل بهم.

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد هاجروا إلى الحبشة حيث أصابوا أمنا وقرارا، وأن الإسلام قد تعزز وامتنع بإسلام الشخصيات المهمة في مكة أمثال الحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، اجتمع زعماؤهم وقررموا فيما بينهم أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على مقاطعة بنى هاشم وبني عبد الطلب وعزلهم عنهم، فلا يصاهروهم ولا يبيعونهم ولا يبناعوا منهم، ثم تعااهدوا وتوافقوا على ذلك، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيدا على أنفسهم، وكتب صحيفة قريش منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف، فلما سلكت قريش هذا المسالك العدائى انحاز بنو هاشم وبنو عبد المطلب إلى أبي طالب بن عبد

المطلب فدخلوا إليه في شعبه واجتمعوا إليه، ولم يخرج عن إجماعهم إلا اثنان  
هما أبو لهب وعبد العزى عما الرسول فقد انضما إلى قريش وظاهرًا (١).

وتتفيدا لبنيود هذه المقاطعة الاقتصادية، قطعت قريش عن بنى هاشم  
والمطلب كل أنواع المؤن، وكانوا لا يخرجون إلا في موسم الحج، وبلغ بهم  
الجهد حدا لا يطاق، وكان الناس في مكة يسمعون أصوات صبيانهم الجائعين،  
وأقاموا على هذه الحال ثلاثة سنين يعانون خلالها ما لا يطاق من وحدة وجوع  
وحرمان، وشعر أفراد من قريش بينهم هشام بن عمرو ابن الحارث العامري  
وزهير بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي، وكانت أمه من بنى عبد المطلب،  
وهي عائكة بنت عبد المطلب، المطعم بن عدي ابن نوفل بن عبد مناف، أن  
الأمر وصل حدا من الفضاعة والقسوة لا يجوزان، فقرروا في اجتماع سري  
عذوه، العمل على نقض الصحيفة، وأخذ زمام المبادرة بهذه العملية زهير بن  
أبي أمية، فطاف بالبيت سبعاً، وأقبل على الناس وقال لهم: "يا أهل مكة، أناكل  
الطعام، ونشرب الشراب، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكي لا يبايعون ولا يتّسع  
منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة" (٢).

وبعد نقاش حاد بين الحاضرين أبدى فيه المعارضون معارضتهم  
والمواقفون حجتهم، قام المطعم بن عدي فشق الصحيفة وأعلن بذلك رسمياً إنتهاء  
المقاطعة، وخرج بإطال نقض الصحيفة إلى الشعب، وأبلغوا آل هاشم والمطلب  
ما حل بالصحيفة والمقاطعة، ففرح الحاضرون وعادوا إلى بيوتهم في مكة

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٣٥٠-٣٥١.

(٢) أنظر: الطبرى، ج ٢، ص ٣٤١-٣٤٣.

ليستأنفوا حياتهم فيها، وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة للبعثة، أي قبل الهجرة إلى يثرب بثلاث سنين<sup>(١)</sup>.

وفي هذا العام العاشر من البعثة، وفي الوقت الذي اشتد اضطهاد قريش للنبي ولأصحابه، فقد النبي سدين وناصرين له في نضاله في سبيل الحق: أولهما عمه أبو طالب الذي كان يحنو عليه ويعنده من أعدائه، ثم زوجته الوفية خديجة، بعد انتهاء المقاطعة بقليل، وذلك لقسوة الحصار عليهما، وقد كان لفقدهما أكبر الأثر على الرسول، فقد خسر بوفاتهما نصيريin كبارين كان لهما الفضل في تثبيته ورعايته وحمايته، وقد سمي العام الذي توفيا فيه عام الحزن، ويقال إن الرسول ﷺ قال: "ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه، حتى مات أبو طالب"<sup>(٢)</sup>.

---

(١) ابن سعد: ج ١، ص ٢١٠.

(٢) ابن هشام: ق ١، ص ٤١٦.

## المبحث الثالث

### محاولات نشر الإسلام خارج مكة

في ظل هذه الظروف الصعبة، كان على الرسول الكريم أن يفكر في وسائل أخرى يخرج بها من هذا الإطار، وأن يبحث عن طريقة ينشر بها دعوته بين أكبر عدد ممكн من الناس، ورأى ﷺ أن يسلك طريقين أو اتجاهين لتحقيق ذلك:

الأول: أن يحاول الخروج بالدعوة الإسلامية إلى مكان خارج مكة.

الثاني: أن يستغل قدوم رجال القبائل من مختلف أنحاء الجزيرة العربية في مواسم الحج أو العمرة ليدعوهم إلى الإسلام.

#### أولاً: الرحلة إلى الطائف

وفي إطار الوسيلة الأولى قرر الرسول ﷺ أن يتمنس النصرة من تقييف في الطائف، فخرج إليها في شوال من السنة العاشرة للبعثة، عليها تحميء وتمنعة، ورجا أن يجد عندهم قبولاً لما جاءه من الله عزوجل.

تقع مدينة الطائف على ظهر جبل غزوان من جبال السراة، والطائف محلتان، محلة إلى جانب من وادي وج تسكنه تقييف، والأخرى على الجانب المقابل ويقال لها الوهط، وكانت الطائف أصغر من مكة، وهي مثلها مركز تجاري له أوثق الصلات بتجارة اليمن، وكانت تقييف أشهر قبائلها، وتعمل بالتجارة، وبالتعاون مع قريش في بعض الأحيان، وهي ذات مناخ لطف بكثير

من مناخ مكة، وكانت مشهورة بخصبها وجودة محصولاتها التي كان أشهرها الحبوب والفواكه والأعشاب والخضروات، وكان بعض أثرياء قريش يمتلكون الأراضي فيها ويمضون بها فصل الصيف لتلطيف جوها واعتدال مناخها، وكانت بطون هاشم وعبد شمس أكثر بطون قريش صلة بالطائف، وكانت مخزوم على صلات مالية وثيقة بتقيف، أهم قبائل الطائف.

كان في الطائف تكتلان سياسيان رئيسيان هما: بنو مالك، والأحلاف، ويبعدوا أن الأحلاف كانوا أقدم في سكن الطائف من بنو مالك، لأن سدانة بيروت الآلهة هناك كان بيدهم، أما بنو مالك فقد كانوا على صلات وثيقة بيني هوزان الذين كانوا أصحاب السيادة على أغلب الأراضي المجاورة للطائف، لذلك وجد الأحلاف أنفسهم مضطرين أن يمتتو تحالفهم مع قريش حتى يقيموا التوازن بينهم وبين بنو مالك حلفاء هوزان، وتوضح هذه التحالفات بين فرعى تقيف والقبائل الخارجية أن تقيفا كقبيلة كانت تتبعها الوحدة<sup>(١)</sup>.

في مثل هذه الظروف كانت زيارة الرسول محمد ﷺ إلى الطائف يحدوه أمل في أنه واجد في لجوئه إليها ما يحلم به من نصرة وتأييد لم يجدهما في بلده مكة.

تذكر كتب السيرة أن الرسول ﷺ حين وصل الطائف اتصل بمنفر من تقيف هم يؤمذن ساداتها وأشرافها، وهؤلاء هم ثلاثة أخوة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير وأخواه مسعود وحبيب، وكانت زوجة أحد الأخوة الثلاثة هؤلاء قرشية،

---

.Watt, P.138 (١)

وهم من فئة الأحلاف، أي الفئة الأكثر صلة بقريش، ولسنا نجد سبباً لاختياره لهذا الفرع من تقسيف المعروف بصلاته القوية مع قريش. وكان المتوقع أن يتصل بالفرع الآخر (بني مالك) الذين لا تربطهم بقريش صلات متينة.

تحدث الرسول ﷺ مع هؤلاء عن دعوته، ودعاهم إلى الله، ولكنه لم يلق عندهم القبول الحسن، فبعضهم استهزأ به وبعضهم كذبه ورده رداً قبيحاً، ولما يئس الرسول من إقناعهم، طلب إليهم أن يكتموا أمر قدمه عن قريش حتى لا تتخذ من ذلك ذريعة للمبالغة في محاربته وتعذيب أنصاره.

غادر الطائف بعد أن أغروا به سفهاءهم وعييدهم الذين أخذوا يشتمونه ويضربونه بالحجارة، فالتلاجأ إلى بستان قريب حتى خفت ملاحقة مطارديه، ومن هناك اتجه إلى مكة مخدولاً يائساً كسير القلب، وقبل أن يدخل مكة، اتجه إلى حراء، خارجها، ومن هناك حاول أن يتدارر أمره، ويدخل مكة بأمان، من خلال مجاورة أحد الأشخاص المتفذين، وقد وافق على منحه هذا الجوار المطعم بن عدي، سيد بن نوفل، في حين رفض ذلك الأحسن بن شريق، سيد بنى زهرة، وسهيل بن عمرو، سيد بنى عامر.

إن هذه الرواية بحد ذاتها تصور لنا الظرف القاسي الذي كان يمر به الرسول محمد ﷺ في هذه المرحلة، والمعاناة التي كان يحملها بصبر وجلد، فلجوء الرسول إلى أشخاص غرباء عن أسرته لمنحه الحماية والجوار، يعني أن

أسرته، بعد موت عمه، لم تعد السند الذي يعول عليه، خاصة وأن زعامة الأسرة أصبحت بيد أبي لهب في أعقاب وفاة أبي طالب<sup>(١)</sup>.

### ثانياً: الاتصال بالقبائل الأخرى

بعد فشل محاولة إقناع أهل الطائف بقبول الدعوة الإسلامية، وإصرار قومه إصراراً شديداً على مقاومته وعدم تقبل دعوته، وأيقن أن لا أمل بينهم، رأى الرسول ﷺ أن يلجأ إلى أسلوب آخر، وهو أن يعرض نفسه على القبائل العربية في مواسم الحج والعمرة، يدعوهم إلى الإسلام، ويحصل بأشراف العرب، فكان لا يسمع بقادم إلى مكة من سادات العرب وأشرافها، حاجاً أو معتمراً إلا ودعاه إلى الإسلام، ويدرك ابن إسحاق<sup>(٢)</sup>، أن أبو لهب كان يتبع الرسول في جولاتة هذه، فما يكاد يفرغ من شرح أصول الإسلام ويبين أهم تعاليم الدين الجديد، حتى يقف أبو لهب فيقول للناس "يا بنى فلان، إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ... إلى ما جاء به من البدعة والظلالة، فلا تطیعوه ولا تسمعوا منه".

---

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٤١٩ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق: ق ١، ص ٤٢٣.

وقد ذكر ابن إسحاق<sup>(١)</sup> أيضاً أن النبي أتى كندة في منازلهم، فدعاهم إلى الإسلام، وعرض عليهم نفسه، فأبوا عليه، ثم قصد بنى عبد الله الكلبيين في منازلهم، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم، ثم اتصل ببني حنيفة ودعاهم إلى الإسلام، فأعرضوا عنه وردوا عليه أقرب رد، ودعا بنى عامر بن صعصعة إلى الإسلام، وكانوا بسوق عكاظ، فاشترط عليه بحيرة بن فراس، أحد سادتهم، أن يكون لقبيلته الأمر إذا أظهره الله على من خالقه من قريش، فلما أخبره الرسول أن الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، أبوا عليه.

كان لابد لهذا الكفاح المرير والصبر والجلد الذي فاق كل تصور من لدن رسول الله ﷺ إلا أن يؤتي ثماره، وأن يجد في النهاية من يستمع له ويسجيب لدعوته، فلما قدم سعيد بن الصامت (من أهل يثرب) معتمرا إلى مكة دعاه النبي إلى الإسلام، وأسمعه شيئاً من القرآن، فأبدى سعيد استحسانه لما سمع، وانصرف إلى قومه في يثرب، فلم يلبث أن قتله الخزرج قبل يوم بعاث، وذكروا أنه مات وهو مسلم، ثم سمع النبي ﷺ أن أبو الحيسر أنس بن رافع قد米 مكة حاجاً أو معتمراً ومعه فتية من بني عبد الأشهل الأوسين، ومن بينهم إياس بن معاذ، يلتمسون من قريش الحلف على قومهم من الخزرج، أقبل عليهم ودعاهم إلى عبادة الله، وذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم آيات من القرآن الكريم، فخفق قلب إياس بن معاذ عند سماعه لآي الذكر الحكم، ولم يمنع نفسه من إبداء تأثره بما سمع، فقال: "أي قوم، هذا والله خير مما جئتم به"، فعارضه أنس بن رافع وعنفه

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٤٢٤.

على ترك الغرض الرئيسي الذي قدموا إلى مكة من أجله، ثم خرج رسول الله في الموسم الذي لقيه فيه جماعة الأنصار في العام السابق، فعرض نفسه على قبائل العرب مثلما كان يفعل في كل موسم، بينما كان عند العقبة<sup>(\*)</sup> التقى برهط يتألف من ستة شيوخ من الخرج المقيمين بيثرب، وكان الأوس قد غلبوهم في يوم بعث، فدعاهم النبي إلى الإسلام، وتلا عليهم آيات قرآنية، وكان يهود بيثرب قد تبعوا بقرب ظهور النبي يتبعوه وتوعدوهم به، فلما خاطب النبي محمد ﷺ هؤلاء النفر ودعاهم إلى دينه وتلا عليهم آيات من القرآن، أدركوا أنه النبي الذي توعدتهم به اليهود، فصدقوه وأسلموا على يديه، وعزموا على أن يحدثوا قومهم في شأنه ويدعوهم إلى الإسلام، فلما أقبلوا على قومهم بيثرب ذكروا لهم رسول الله. ودعوهم إلى الإسلام، وأجابوهم إليه "حتى فشى فيهم فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ"<sup>(١)</sup>، ويحق للمرء أن يتساءل هنا لماذا كانت استجابة أهل بيثرب للدعوة الإسلامية أكثر من غيرهم من القبائل الأخرى، سواء من حيث سرعة الاستجابة أو من حيث عدد من استجاب لهذه الدعوة؟

للإجابة عن هذا السؤال لابد من التعرف على طبيعة المجتمع البيثري وظروفه ومشاكله قبل الإسلام، وفي عصر البعثة النبوية الشريفة. لقد كان القسم الأكبر من سكان بيثرب عبارة عن تجمع قبلي كبير يضم قبيلتين هما الأوس والخرج، اللتان لكل منهما عدد من الفروع والبطون، وتذكر المصادر أن الأوس والخرج من عرب الجنوب وهاجروا إلى بيثرب وسكنوا بعضًا من

(\*) هي عقبة بين منى ومكة بينها وبين مكة نحو ميلين، ياقوت الحموي: ج ٤، ص ١٣٤.

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٤٢٥ وما بعدها.

أراضيها غير المأهولة، ودخلوا في خدمة القبيلة أو القبائل التي كانت تقطنها، ثم، ومع مرور الزمن، وبسبب من كثرتهم وقوتهم، استطاعوا أن يغتصبوا السيادة من سكانها الأصليين، وأن يغدوا سادتها الجدد، ويعتقد أن هذا حدث في القرن السادس الميلادي.

قبيل قدم الأوس والخزرج إلى يثرب كانت قد استوطنت فيها قبيلتان يهوديتان هما: بنو قريظة وبنو النضير، وقد سكنت هاتان القبيلتان في الأرض الخصبة من إقليم يثرب، وعاشوا حياة مستقلة عن القبيلتين العربيتين الواقفتين، وهناك خلاف بين الباحثين حول أصل هاتين القبيلتين، وفيما إذا كان أفرادهما عرباً تهودوا أم يهوداً تعربوا، وقد انتقلت إلى يثرب في زمان الرسول قبيلة يهودية ثالثة واستقرت فيها، هي قبيلة بنى قينقاع، وكانت أقل نفوذاً من ساقبتها، كما استوطنت في يثرب عناصر عربية أخرى غير الأوس والخزرج، ولعلهم بقايا سكان يثرب الأصليين قبل قدم اليهود إليها.

عاش الأوس والخزرج في يثرب حياة قلقة وكانت بينهم نزاعات كثيرة وحروب طويلة، كان آخرها يوم بعاث، وهي الحرب التي وقعت بين القبيلتين قبل هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب بخمس سنوات تقريباً، وقد أوجدت هذه الحرب الأخيرة نوعاً من التوازن المؤقت بين القبيلتين لأن كلاً من الفريقين كان راغباً في الخلاص من حالة القلق والنزاعات التي أرهقت الطرفين.

عاش الأوس والخزرج في يثرب حياة قلقة وكانت بينهم نزاعات كثيرة وحرب طويلة، كان آخرها يوم بعاث، وهي الحرب التي وقعت بين القبيلتين قبل هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب بخمس سنوات تقريباً، وقد أوجدت هذه الحرب

الأخيرة نوعاً من التوازن المؤقت بين القبيلتين لأن كلاً من الفريقين كان راغباً في الخلاص من حالة القلق والنزاعات التي أرهقت الطرفين.

وكان السكان العرب في هذه المنطقة إضافة إلى قلق الحروب والنزاعات يعيشون أزمة مثل عليا، ولا سيما في المجال الديني، وقد ساعد على هذا الشعور بعدم جدوى أو قصور الديانة الوثنية عن متطلبات العقل، وجود اليهود الموحدين إلى جانبهم، وما كان ينتج عن هذا الاختلاف والنقاش من شكوك تعجز الوثنية من الرد عليها.

من جانب آخر كانت يثرب تعيش أزمة اقتصادية، من أهم أسبابها الزيادة المستمرة في عدد السكان، لا تجارتها، من جانب آخر، زيادة مماثلة في مخزون الطعام، وقد ترتب على النزاعات المسلحة التي كانت تجري بين سكان يثرب، أن المنتصرين كانوا في كثير من الأحيان يحتلون أرض المغلوبين إذا كانت أكثر خصباً من أرضهم حتى يؤمنوا بأنفسهم مورداً للطعام أفضل أو أكثر قدرة على سد حاجتهم. وحين كانت تنتهي الحروب بينهم دونما نتيجة حاسمة، كما حدث يوم بعاث مثلاً، كان على أصحاب الأراضي الخصبة أن يظلوا حذرين وعلى استعداد دائم للدفاع عن أرضهم إذا ما هاجمها مهاجم بقصد الاستيلاء عليها واستثمارها لصالحه، من جانب آخر أدت هذه المشاكل والخصومات إلى إهمال الناس للأراضي الخصبة، وغدت الأرض المنتجة عرضة لشريعة الغزو، التي هي في الأساس من مظاهر انعدام الأمن الغذائي في الصحراء، هذه الشريعة التي ظلت سائدة في يثرب وتطبق على الأرض الزراعية لا على الأموال المنقوله فحسب، كما كانت الحال في المجتمعات البدوية، ومن الطبيعي أن تتسحب هذه الشريعة لتطبيق على قطعات الماشية، وأن تتعرض هذه الثروة

الحيوانية إلى محاولات السلب والاستيلاء القسري، كل هذه الصدامات زادت من مشاكل يثرب، وجعلتها تعيش حالة من القلق والصراع المستمر.

لقد ساهم النظام الاجتماعي السائد في يثرب، كما هو الحال في كل المجتمعات البدوية، في تعقيد أزمات هذه المدينة، فكان التأر والديمة شريعتان هامتان من شرائع هذه المجتمعات، وقد أدى هذا التضامن القبلي (العصبية القبلية) إلى صيرورة مهمة الدفاع عن الممتلكات الشخصية مسؤولية الجماعة القبلية بكاملها لا مسؤولية الفرد وحده، وإذا كان مقبولاً أن تتولى القبيلة ككل في مجتمع صحراوي مهمة الدفاع عن ممتلكات فرد من أفرادها اعتدي عليه، فإن هذا الأمر ليس بنفس السهولة في مجتمع مستقر وصغير الرقعة نسبياً كمجتمع يثرب، لأن مجالات الصدام يومية ومتكررة ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار ما أشرنا إليه سابقاً من شحة في الموارد الغذائية، كانت تؤدي بالضرورة إلى غزو دائم للممتلكات الفردية بقصد الاستحواذ على ما عند الغير من إمكانيات غذائية لا تتوفر عند الغاري.

لم نجد مثيلاً لهذه المشاكل والأزمات في مجتمع مكة، ذلك لأن النشاط الاقتصادي السائد هناك هو التجارة، والتجارة بطبيعتها عامل موحد يجمع شتات الناس، فضلاً عن كونها تؤمن لهم مورداً للرزق يجعلهم في غنى عن الاعتماد على منتوج الأرض من الغذاء. وبالتالي تنتهي من المجتمع شريعة الغزو الصحراوية. كما أن وحدة المصالح التجارية لقرיש أدت إلى وحدة قبلية لم تتهيأ القبيلتين الكبيرتين في يثرب. يضاف إلى هذا أن يثرب بلد زراعي، والأسرة في المجتمع الزراعي هي الخلية الأساسية للإنتاج، في حين أن مجتمعاً كمجتمع مكة يعمل معظم أفراده في النشاط التجاري يحتاج بالضرورة إلى التضامن القبلي،

لهذه الأسباب كان التضامن القبلي في مجتمع مكة أكثر وضوحاً وضرورة منه  
في مجتمع يثرب<sup>(١)</sup>.

في مثل هذه الظروف بدأ الرسول محمد ﷺ اتصالاته بأهل يثرب،  
وتحدث عن دعوته الجديدة إلى أناس هذه معاناتهم وهذه هي مشاكلهم وأزماتهم،  
أناس يبحثون عن الخلاص، وعن قائد يوحدهم، فكان ذلك عاماً مهماً، عجل في  
استجابتهم لدعوته الشريفة. كما أن هناك ظرفاً دينياً خاصاً بهذه المدينة ساعد  
على تمهيد الأرض لهذه الدعوة وحاملها، يذكر ابن اسحق أن الرسول حين لقي  
أول مرة رهطاً من الخزرج وحدثهم عن دينه ودعاه إلى الله، عرفوا فيه نبياً  
كان يحذّهم للانحياز إليه حتى لا يسبّهم إلى ذلك اليهود ويكون لهم النصر  
بواسطته<sup>(٢)</sup>. وهذا يعني أن أهل يثرب بحكم صلاتهم بأناس موحدين يعتقدون  
ديانة سماوية، كانوا أكثر استعداداً لسماع نبي عربي يحذّهم عن الله بلسانهم،  
ويُسخر من عبادة الأوّلاد والأصنام ويبطل عبادتها بالعقل والحجّة الدامغة،  
يضاف إلى هذا أن أهل مكة كانت لهم مصلحة مادية في التمسك بالديانة الوثنية  
والدفاع عنها، بخلاف أهل يثرب الذين لا تربطهم بها أية مصلحة ولا يجنون  
منها أية فائدة.

---

(١) انظر: Watt, 141-145. نبيه عاقل: ص ٤٢١ وما بعدها.

(٢) ابن هشام: ق ١، ص ٤٢٨.

### ثالثاً: بيعتنا العقبة الأولى والثانية

في موسم حج سنة ٦٢١ م أي العام الثاني عشر من النبوة عاد إلى مكة خمسة من الستة اليثربين الذين قابلو الرسول وأمنوا بدعوته في الموسم الفائت ومعهم سبعة آخرون بينهم ثلاثة من الأوس والباقي من الخزرج، من بينهم أسعد بن زرار، وعوف بن الحارث، ومعاذ بن الحارث، ورافع بن مالك، كانوا قد أسلموا في العام الماضي، ثم ذكوان بن عبد قيس الزرقي، وعبادة بن الصامت، وشهد هؤلاء الرجال موسم الحج، ثم عزموا على الاجتماع برسول الله، فلقوه في العقبة فباعوه بيعة تعرف باسم بيعة العقبة الأولى وفيها عاهدهم النبي على ألا يشركونه بالله شيئاً، وأن يتتجنبوا السرقة والزنا وقتل الأولاد، وألا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم وألا يعصوا النبي في معروف، وقد ذكر الله هذه البيعة في القرآن الكريم في قوله تعالى: «**إِنَّمَا يُحَرِّمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَا مَنَعَ إِنْ شَاءَ لِيَعْمَلْ مَا شَاءَ**»<sup>(١)</sup>. وقد سميت هذه البيعة ببيعة النساء لأنها لم يكن فيها بيعة على القتال وإنما أخذ للعهد والميثاق فقط. وقبل أن ينصرفوا عن النبي بعث معهم مصعب ابن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام، ويقفهم في الدين، وعلى يدي مصعب وأسعد بن زرار تم إسلام عدد كبير من أهل يثرب من بني عبد الأهل الأوسين، نذكر منهم سعد بن معاذ وأسید بن حضر اللذان كان لإسلامهما أعظم الأثر في انتشار الإسلام بيثرب.

---

(١) سورة الممتحنة: ١٢.

وفي موسم حج سنة ٦٢٢ أي العام الثالث عشر منبعثة النبوة، توجهت جماعة من يثرب عدد أفرادها (٧٣ رجلاً) وثلاث نسوة إلى مكة لأداء فريضة الحج، وتواجدت هذه الجماعة على اللقاء ليلاً بالعقبة مع الرسول في أوسط أيام التشريق، ولما فرغوا من الحج وكانت الليلة الموعودة ومضى ثلث الليل تسللوا متخفين حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة، وكان عددهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأة وبعد انتظار لم يظل جاء الرسول ﷺ ومعه عمه العباس، وكان يؤمّن ما يزال على دين قومه، إلا أنه حضر ليستوثق أن ابن أخيه في منعة وأمان، وأنه منتقل من حماية أسرته إلى حماية قوم قادرين على حمايته. وتكلم العباس مستهلاً هذا الاجتماع فقال: "يا معشر الخزرج (وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها)، إن محمداً منا حيث قد علمتهم، وقد منعناه من قومنا، ومن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعه في بلده، وإنه قد أبى لالانحياز إليكم، واللحوق بكم، إن كنتم ترون أنكم وافقون له بما دعوتموه إليه، وما نعوه مما خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده" (١).

وما أن أتم العباس كلمته حتى أبدى الأنصار صدق نيتهم، وأظهروا إخلاصهم للنبي، ثم طلبو منه أن يحدثهم فتلا عليهم آيات من القرآن الكريم، ودعاهم إلى الإسلام، ثم قال: "أبعاكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم" فوافقوه على ذلك، ولكن رجلاً منهم وهو أبو الهيثم بن التيهان اعترضه

---

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٤٤٢.

بقوله: "يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال جبالا وإنما قاطعوها، يعني اليهود، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟" فتبسم رسول الله ثم قال: "الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسلام من سالمتم" ثم اتفق معهم على أن يختاروا منهم اثني عشر نقيباً يمثلون قومهم، فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

عندما اجتمع النقباء لمبايعة الرسول ﷺ ذكرهم العباس بن عبدة بن نضلة الأنباري بما سبق أن تحدث به العباس عم النبي، تأكيداً للعهد والبيعة والذب عن الرسول وافتدايه بالمال والروح، فقال لهم: "يا معشر الخزرج، هل تدرؤن علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلا، أسلتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافقون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذلوه، فهو والله خير الدنيا والآخر. قالوا: فإننا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، مما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفيينا بذلك؟ قال: الجنة، قالوا: أبسط يدك. فيسط يده فبايعوه"<sup>(١)</sup>.

ويقال أن قريش علمت بأنباء هذا اللقاء بين الرسول محمد ﷺ وأهل يثرب، فأرسلت جماعة منها إلى اليثربين يتهددونهم، فأنكر بعضهم ما حدث حقنا

---

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٤٤٨-٤٤٩.

للدماء وتفاديها للشر، وعندما خرج اليثرييون يريدون بلهدم تعقبهم القرشيين وقضوا على بعضهم وضربوهم وعذبوهم.

لقد سميت بيعة العقبة الثانية بيضة الحرب، لأن الرسول بايعهم في هذه البيعة الثانية على حرب الأسود والأحمر، ووعدهم بالجنة التي وعد بها الله المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَبُشِّرَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ وَعْدَهُمُ الْأَمْرَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَحْتَهَا النَّهَارُ، كَلَمَّا سَرَّقُوا مِنْهَا مِنْ ثَرْبَةِ سَرَّقَاهُمْ قَالُوا هَذَا الَّذِي سَرَقْنَا مِنْ قَبْلِ وَأَتَوْبَهُ مِنْهُمْ فِيهَا أَنْرَوْجٌ مَطْهُرٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾<sup>(١)</sup>، وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَوْفَوْنَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيَاثِ، وَالَّذِينَ يَصْلُوْنَ مَا أَمْرَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يَوْصِلَ وَيَخْسِنُونَ مِنْهُمْ وَيُخَافِّونَ سُوءَ الْحِسَابِ، وَالَّذِينَ صَرِّبُوا إِلْتِغَاءً وَجْهَ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مَا سَرَّقُوا هُنَّ سَرَّاً وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُوْنَ بِالْحَسْنَةِ السَّيْئَةِ أَوْ أَنْكَلَمْ عَقْبَى الدَّامِرِ، جَنَّاتٍ عَدَنَ يَدْخُلُونَهَا وَمِنْ صَلْحِهِمْ أَنْرَوْجَهُمْ وَذَرِّيَّاتَهُمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

تعد بيعة العقبة الثانية بداية عهد جديد في حياة الجماعة الإسلامية في مكة، فقد تهيأ للمسلمين دار هجرة بعد أن بايع رهط الأنصار النبي ﷺ على الإسلام والنصرة له ولاتباعه، وفتحوا أبواب بلهدم لهم، وأخذ رسول الله يشجع أصحابه على الهجرة إلى يثرب وقال لهم: "إِنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ لَكُمْ إِخْوَانًا وَدَارًا تَأْمِنُونَ بِهَا". وجاء الأذن المسلمين بالهجرة إلى يثرب بعد أن ضيق قريش على المسلمين بعد أن علموا بأنه أصبح للمسلمين منعة ودار هجرة.

(١) سورة البقرة: ٢٥.

(٢) سورة الرعد: ٢٣.

بدأ المسلمين بالهجرة أرتالا وجماعات سرا، أما الرسول ﷺ فقد بقي في مكة ينتظر أن يأذن له ربه بالخروج من مكة إلى يثرب دار الهجرة، ولم يبق معه بمكة من المسلمين إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق ومن كان قد حبسه المشركون في مكة كرها أو فتن عن دينه. وكان أبو بكر كثيراً ما استأند الرسول في الهجرة، فبنصيحة بالتمهل عسى أن يجد له صاحباً ورفقاً يقصد نفسه. فلما رأت قريش أن رسول الله قد أصبح له شيعة وأصحاب من غيرهم وبغير بلدتهم مكة، وأن أصحاب رسول الله قد هاجروا إلى يثرب وأصابوا منهم منعة، خافوا لحاق النبي بهم، وأدركوا أنه قد عزم على محاربتهم، فاجتمعوا في دار الندوة ولم يتختلف أحد من أهل الرأي منهم، ليشاوروا في ما يصنعون في أمر الرسول، فاقتصر عليهم أبو البخري بن هشام أن يحبسو النبي ﷺ في الحديد ويغلقوا عليه باباً، وقال قائل بنفيه من أرض الحجاز، ولكن شيخ قريش لم يأخذوا بأي من الاقتراحين، ثم اقترح عليهم أبو جهل أن يجمعوا من كل قبيلة فتى شاباً قوياً شريفاً في قومه، ذا نسب، يسلحونه بسيف صارم، ثم يعمدوا إلى النبي فيضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيقتلوه، ويتفرق دموع في القبائل جميعاً، وعندئذ لا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا كل قبائل قريش، فاجتمعت قريش على هذا الرأي وتفرقوا وهم مجمعون عليه.

علم الرسول ﷺ بخطبة التأمر التي انفق عليها سادة قريش، وأمره الله تعالى بعدم المبيت على فراشه في تلك الليلة كما أمره بالهجرة إلى يثرب وأنزل عليه قوله تعالى: «وَإِذْ يُكَرِّبُكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَيْهِمْ كَوْكِبُكُوكْ أَوْ يَقْتُلُوكُوكْ أَوْ يَخْرُجُوكُوكْ»

وَيَكْرُونَ وَيَكِرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ<sup>(١)</sup>، فَلَمَّا حَلَّ اللَّيْلَ، حَضَرَ الْمَتَّأْمِرُونَ وَاجْتَمَعُوا حَوْلَ بَابِ النَّبِيِّ يَرْصُدُونَهُ حَتَّى يَنْامَ ثُمَّ يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ مَكَانَهُمْ عَهْدَ إِلَى عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بَأْنَ يَنْامُ فِي فِرَاشِهِ وَيَتَسْجِي بِبِرْدِهِ الْحَضْرَمِيِّ الْأَخْضَرِ حَتَّى يَخْتَلِطَ الْأَمْرُ عَلَى الْمَتَّأْمِرِينَ فَيَظْنُونَ أَنَّهُ النَّبِيُّ، ثُمَّ خَرَجَ النَّبِيُّ مِنْ وَسْطِ الْمَتَّأْمِرِينَ دُونَ أَنْ يَفْطُنُوا لِخُروْجِهِ أَوْ يَبْصُرُوهُ، وَمَضَى إِلَى دَارِ أَبِي بَكْرٍ، وَأَبْلَغَهُ بَأْنَ اللَّهُ قَدْ أَذْنَ لَهُ فِي الْخُرُوجِ وَالْهِجْرَةِ، فَخَرَجَ وَرَكِبَ ارْهَلْتَيْنِ وَمَضِيَا فِي طَرِيقٍ يَثْرِبُ حَتَّى أَتَيَا غَارَ ثُورَ فَدَخَلَا فِيهِ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِخُرُوجِ النَّبِيِّ أَحَدٌ حِينَ خَرَجَ سُوَى عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي اسْتَبَقَ النَّبِيَّ عَلَيِّ فِرَاشِهِ خَدِيعَةً لِلْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى يُؤْدِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ الْوَدَائِعَ الَّتِي كَانَتْ عَنْهُدَ لِلنَّاسِ، وَأَبْوَ بَكْرٍ وَبَنْتَاهُ، فَأَقَامَ النَّبِيُّ وَصَاحِبَهُ أَبْوَ بَكْرٍ فِي الغَارِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبْوَ بَكْرٍ يَزُودُهُمَا خَلَالَهَا بِأَبْنَاءِ مَكَةَ، وَكَانَتْ أَسْمَاءُ بْنَتُ أَبْوَ بَكْرٍ تَأْتِيهِمَا بِمَا يَصْلِحُهُمَا مِنَ الطَّعَامِ.

عِنْدَمَا تَبَيَّنَ لِلْمَتَّأْمِرِينَ أَنَّ عَلَيَا هُوَ الَّذِي كَانَ نَائِمًا فِي فِرَاشِ النَّبِيِّ، وَأَيْقَنُوا أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ غَادَرَ مَكَةَ، بَادَرُوا بِاقْتِفَاءِ أَثْرِهِ حَتَّى انتَهَوْا إِلَى بَابِ الغَارِ، فَوَجَدُوا بَابَهُ مَكْسُوًا بِنَسْجِ عَنْكِبُوتٍ، فَاسْتَبَدُوا أَنَّ يَكُونُ النَّبِيُّ قَدْ دَخَلَ هَذَا الْمَكَانَ، فَانْصَرَفُوا. وَكَانَ النَّبِيُّ قَدْ سَمِعُهُمْ يَتَحَاوِرُونَ، فَجَزَعَ أَبْوَ بَكْرٍ، وَقَالَ لِلنَّبِيِّ: "لَوْ أَنْ أَحَدُهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدْمِيْهِ لَأَبْصِرُنَا تَحْتَ قَدْمِيْهِ" قَالَ لَهُ النَّبِيُّ: "يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنَكُ بِاثْتَيْنِ اللَّهِ ثَالِثَهُمَا" فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى النَّبِيِّ: ﴿لَا تَتَصَرَّفَ وَقَدْ نَصَرَ اللَّهُ، إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذَا هُمَا فِي الْغَارِ، إِذَا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لَا تَحْزِنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

(١) سورة الأنفال: ٣٠

**فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِحَنْوَدٍ لَمْ تَرُوهَا، وَجَعَلَ كَلْمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى،  
وَكَلْمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَاللَّهُ أَعْزَزُ حَكِيمٌ**)<sup>(١)</sup>.

غادر النبي ﷺ مع صاحبه الغار في الرابع من ربيع الأول سنة ٦٢٢ م، وأستأجرا دليلاً يقال له عبد الله بن أريقط الليثي، ورافقهما أيضاً عامر بن فهيرة مولى أبي بكر إلى يثرب، وقد علم المسلمون في يثرب بخروج النبي إلى مكة، فكان الكثيرون منهم منذ أن سمعوا بخروجه أنهم إذا وصلوا الصبح خرجوا من مدinetهم إلى ظاهرها ينتظرون قدومه حتى يشتدد عليهم حر الشمس فيعودوا إلى دورهم، ولما وصل النبي ومراقبوه إلى المدينة، شاع الخبر سريعاً بين المهاجرين والأنصار وخرجوا لاستقباله، ثم نزل رسول الله في علو المدينة في حي يقال لهم بنو عمرو بن عوف، فأقام هناك أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليال أسس خلالها المسجد الذي أسس على التقوى وهو مسجد قباء، ثم ركب الرسول راحلته وسار يمشي معه الناس حتى بركت الناقة بجوار مرbd للتمر لغلامين يتيمين من بنى مالك بن النجار في كنف سعد بن زراره يقال لهما سهل وسهيل، فقال رسول الله حين بركت به الناقة: "هذا إنشاء الله المنزل"، وقد اشترى الرسول ﷺ المرbd من الغلامين بعشرة دنانير، وأمر أن يبني في مكانه مسجد المسلمين، وبنى إلى جانبه مساكنه التي انتقل إليها بعد سبعة أشهر، حيث استكمل بناؤها، وقد أمضى هذه الأشهر السبعة في ضيافة أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة التوبة: ٤٠.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام: ق ١، ص ٤٨٠ وما بعدها. ابن سعد: ج ١، ص ٢٢٦ وما بعدها.

الفصل الثالث

السبيل إلى ولة العرب الإسلامية

### **المبحث الأول: أسس بناء الدولة**

أولاً: المسجد: نواة الدولة الجديدة.

ثانياً: تنظيم الجبهة الداخلية.

### **المبحث الثاني: بدء الأعمال العسكرية**

أولاً: تشريع الجهاد.

ثانياً: الغزوات والسرايا.

### **المبحث الثالث: مقدمة حركة الفتن العربي**

**الإسلامي**

## المبحث الأول

### أسس بناء الدولة

بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام بوصول الكريم ﷺ إلى يثرب، التي أصبحت بعد هذا التاريخ "المدينة". ولم تعد مهمة الرسول في مستقره الجديد مقتصرة على الدعوة إلى دين الله، وتبليغ رسالة السماء فسحب، بل غدا قائداً أمّة رئيس دولة، كما أصبح رئيساً لجماعات غير متGANة، لابد له أن يوحدها وينظم علاقاتها الخاصة والعامة، وفي ميادين عديدة، لم يكن الجانب الديني إلا واحداً منها.

لقد فرضت التركيبة السكانية لمجتمع المدينة على الرسول ﷺ أن يعمل في ظروف صعبة، فقد كان بالمدينة حين هاجر إليها الرسول جماعتان كبيرتان من الناس، جماعة المسلمين وجماعة غير المسلمين.

أما المسلمون فـ كانوا فتيان: الأنصار، أي المسلمين من الأوس والخزر، والمهاجرين، وهو المسلمون المكيون الذين هجروا مدینتهم وانتقلوا للسكن مع الرسول في المدينة المنورة، أما غير المسلمين فقد كانت غالبيتهم من اليهود، وبينهم بعض المشركين من الأوس والخزر الذين لم يدخلوا الإسلام، وفئة المنافقين الذين كان إسلامهم ظاهرياً ويبطونون الكيد للإسلام ولا يؤمنون به.

لم يكن الرسول محمد ﷺ في الأيام الأولى من هجرته إلى المدينة الرجل المطاع الأوحد الذي لا ينافيه سلطته منازع، وإذا صحت هذه الصفة على مرحلة لاحقة من وجوده في هذه المدينة، فإنها لا تصح على الأيام الأولى فيها، لقد كان

﴿أول الأمر، لا يملك السيادة إلا على المجموعة التي آمنت برسالته من مهاجرين وأنصار، لذلك كان عليه أن يقوم بجهد كبير في ميدان الدعوة إلى الإسلام بين أولئك المدينين الذين لم يقبلوا الإسلام ديناً، وقد أثمرت جهوده في هذا الميدان بسرعة ونجح في ضم أغلب الفئات إلى الإسلام في أقل من عام بعد بدء الهجرة، وكان من بين هذه الفئات فئة المنافقين الذين اعتنقوا الإسلام ظاهرياً وحاربوه حرباً مقنعة تبعاً لصالحهم، وكان هناك من تثبت بموقفه المعادي للإسلام واستمر يعارض الرسول ﷺ ويرفض الإسلام، ولم يكن عدد هذه الفئة الأخيرة كبيراً﴾.

وإلى جانب هذه الفئات العربية التي واجهت الرسول ﷺ بمعارضتها ودسائسها حين قدم إلى المدينة، كانت هناك الجماعات اليهودية التي أدركت أن تقدم الرسول ونجاحاته المتلاحقة هي فاتحة لعصر جديد، لن تكون لهم فيه الكلمة الأولى ولا الدور القيادي، فحزموا أمرهم على محاربة الرسول ودعوته بكل أنواع العداء الظاهر والمستتر، وهذا ما سنبحثه مفصلاً في الفراتات اللاحقة من هذا الفصل.

إن هذه الظروف وغيرها دفعت الرسول محمد ﷺ إلى المباشرة بوضع أسس بناء دولته والعمل الحثيث على تثبيت كيانها، فكانت أول أعماله في هذا الاتجاه بناء المسجد وتنظيم الجبهة الداخلية وتوحيدها.

## أولاً: بناء المسجد: نواة الدولة الجديدة

شرع الرسول ﷺ في بناء مسجد المسلمين في مكان المربد الذي قيل أنه كان فيه قبور للمشركين الآخرين، فأزال النبي كل ما حواه المربد وسوى

الأرض<sup>(١)</sup>، وبنى المسجد على شكل مربع أساسه من الحجارة، وأقام للمسجد ظلة<sup>(٢)</sup>، ثم بنى بجواره بيوتاً لأزواجه كانت أبوابها شارعة فيه<sup>(٣)</sup>، ومجموعها تسعه بيوت، أضيفت كلها إلى المسجد بعد موت أزواج النبي<sup>(٤)</sup>.

ولم يكن المسجد في أول بنائه سوى ساحة فسيحة لا ظلة لها، فشكا المسلمين إلى النبي من شدة الحر بسبب تعرضهم لحرارة الشمس، فأقام بهم ظلة، واستخدم جذوع النخل سواري للقبلة المسقوفة، بحيث أصبحت الظلة تضم ستة أساطين، ثلاثة إلى اليمين المنبر وثلاثة إلى يساره<sup>(٥)</sup>، ثم طرحت على سواري النخل العوارض والخصف، وهي عروش وجريدة، وبنى إلى جوار المسجد بيوتاً باللبن سقطت أيضاً بجذوع النخل والجريدة، ثم أقام النبي لعائشة بيته يشرع بابه إلى المسجد، وفتح في المسجد ثلاثة أبواب، باباً في المؤخرة، وباباً يقال له بباب الرحمة، والباب الثالث كان يدخل منه رسول الله بإزاء باب عائشة<sup>(٦)</sup>.

أما القبلة، فقد ترك للمسلمين، في أول عهد الرسالة، حرية اختيارها تنفيذاً لتقوله تعالى: «الله المشرق والمغارب، فainما تولوا قسم وجه الله إنَّ الله واسع عليهم»<sup>(٧)</sup>، ثم حددتها الرسول ﷺ باتجاه بيت المقدس، ظل المسلمين يولون

(١) ابن سعد: ج ١، ص ٢٤٠.

(٢) السمهوري: ج ١، ص ٢٦٩.

(٣) المصدر نفسه والجزء ص ٣٦٦.

(٤) ابن كثير: ج ٢، ص ٣١٤.

(٥) السمهوري: ج ١، ص ٢٣٩.

(٦) المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣٢.

(٧) البقرة: ١١٥.

وجوههم في الصلاة شطر بيت المقدس لمدة سبعة عشر شهراً بعد الهجرة، ثم حولت القبلة إلى الكعبة قبل وقعة بدر بشهرين عندما نزلت الآية: «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضها، فول وجهك شطر المسجد الحرام»<sup>(١)</sup>.

ومن الطبيعي، بعد تغيير اتجاه القبلة أن يجري تعديل في مكان ظلة المسجد فأقيمت ظلة جديدة إلى الجانب القبلي من المسجد، فأصبح للمسجد ظلتان وسمى المسجد لذلك بمسجد القبلتين<sup>(٢)</sup>.

ومن التدابير التي اتخذها الرسول ﷺ لمعالجة موضوع الفقراء من المسلمين الذين هاجروا معه إلى المدينة أن أذن للذين لا منازل ولا عشائر لهم أن يناموا في المسجد فاتخذوا من الظلة الشمالية القديمة بيتاً لهم، لذلك أطلق على هؤلاء اسم "أهل الصفة" لأنهم كانوا يأowون إلى صفة المسجد أي المكان المسقوف منه<sup>(٣)</sup>.

ولم يكن للمسجد في أول بنائه منبر، بل كان للنبي ﷺ يخطب وهو مستند إلى جذع عند مصلاه في الحائط القبلي، ثم عهد النبي ﷺ إلى كلاب مولى العباس بن عبد المطلب بعمل منبر من درجتين أو ثلاثة درجات ومقدم، فوضعه في موضع القبلة<sup>(٤)</sup>.

---

(١) البقرة: ١٤٤.

(٢) السمهوري: ج ١، ص ٢٥٨.

(٣) ابن سعد: ج ١، ص ٢٥٥.

(٤) المصدر السابق: ج ١، ص ٢٥١.

## **أهمية المسجد ووظائفه:**

للمسجد دور هام في تاريخ الدولة العربية الإسلامية الأولى، فضلاً عن كونه مركزاً لصلة المسلمين، كانت له وظائف أخرى، فهو مقر السلطة الدينية والمدنية الجديدة المتمثلة في شخص الرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ. وقد تحول المسجد تلقائياً إلى مركز استقطاب على غرار ما كان سائداً في السابق فيما يسمى بـ "دار الندوة"، وقد يكون استحداث النبي للمسجد ليكون موقع تجتمع فيه المراجع للتشاور والحوار بديلاً عن فكرة دار الندوة، وفيه كان الرسول ﷺ يتشاور مع الصحابة في شؤون جماعة المسلمين وعلاقتهم بقريش وما يتصل بذلك من سلم أو حرب، كما أنه كان موضع اجتماع عامة المسلمين، أو بمثابة المؤتمر العام لهم، ينعقد مرة في الأسبوع في الأقل، وفي المسجد كانت تستقبل الوفود العربية إلى المدينة وتبرم معهم المواثيق والعهود<sup>(١)</sup>، كما كانت تعقد فيه الأولوية للقادة عند خروجهم للحرب أو للمهام الاستطلاعية.

وكان المسجد فضلاً عن وظائفه الدينية والسياسية والإدارية تلك، مركزاً علمياً وثقافياً، فكان الصحابة يتولون تعليم القرآن والسنة لمن أراد أن يتعلمها من العرب الوافدين على المدينة، كما كان مكاناً لتعليم القراءة والكتابة، ثم أصبحت المساجد، بعد ذلك، مراكز علمية يحصل فيها طلاب العلم على علومهم.

وفي مسجد الرسول في المدينة ظهرت نواة مؤسسة القضاء وتألورت معالمها قبل أن تستقل ويتحذ لها دار خاصة في العصر الراشدي، فقد كان يتم التقاضي بين الناس وتحل النزاعات بينهم في المسجد، وكان الرسول ﷺ، في

---

(١) ابن سعد: ج ١، ص ٢٩٤، ٣١٤، ٣١٦، ٣٢١.

أول الأمر، يقوم بهذه المهمة، ثم أخذ يعهد بها إلى بعض الصحابة المعروفين بتقديمهم في الدين والشريعة.

من خلال هذا العرض السريع لمهام المسجد الأول في الإسلام، والذي أسس بعد الهجرة مباشرةً تتضح لنا أهميته ودوره في قيام دولة الإسلام الأولى، باعتباره نواة تشكل تلك الدولة، من خلال ما كان يمثله من سلطة دينية ودينوية، وما ظهر فيه من مؤسسات ونظم قيادية أولية، تفرعت منه، وتطورت فيما بعد، لتشكل النظم الأساسية للدولة العربية الإسلامية.

من جانب آخر، أصبح المسجد في العصر الإسلامي أساساً للتنظيم العمراني في المدينة الإسلامية، والمركز الديني الذي تائف حوله بقية مراكزها العمرانية، والقلب الذي ينبض بالحياة، وهو الذي يطبع المدينة الإسلامية المنشأة أو المفتوحة بطابعها الإسلامي، باعتباره المركز الديني والثقافي والاجتماعي للمدينة.

## ثانياً: تنظيم الجبهة الداخلية

بعد أن استقر رسول الله ﷺ في يثرب "المدينة المنورة" بدأ بوضع المخططات والتصاميم للمجتمع الجديد الذي ينشده. وتنظيم الجبهة الداخلية وتوحيدها وذلك بهدف الاستعداد لمواجهة المخاطر الخارجية المتوقعة، ومن ثم الانطلاق بالدعوة الإسلامية وإلى آفاق جديدة، ومن الإجراءات التي أقدم عليها

رسول الله في هذا المجال:

### ١- تصفية الخلافات بين الأوس والخزرج:

كان بين الأوس والخزرج نزاعات كثيرة، وحروب طويلة، كان آخرها "يوم بعاث"، الذي وقع قبل هجرة الرسول بأعوام قليلة، والذي أقام نوعاً من التوازن الفلكي بين القبيلتين، لأن كلاً من الفريقين كان قد أجهذه الحرب. وقد بدأ الرسول ﷺ بإصلاح ما بين الأوس والخزرج، فأزال من نفوسهم ما كان قد رسب فيها من الخصومات القديمة، وهي خصومات كان يذكّرها اليهود، فعمل على توحيدهم برباط العقيدة الجديدة "الإسلام" ثم وحد بينهما تحت أسم "الأنصار"، أي الذين نصروا وأيدوا الدعوة الإسلامية.

### ٢- المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

بعد توحيد الرسول ﷺ لجبهة الأنصار، أتجه لتوحيد جماعة المهاجرين، فآخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض، ثم ربط بين المهاجرين والأنصار برابطة المؤاخاة، وهو ما كان يعرف في الجاهلية باسم "الحلف"<sup>(١)</sup>.  
وبينما أن المشكلة الأولى التي واجهت الرسول ﷺ وعليه أن يجد لها حلّاً هي مشكلة إقتصادية، نبعث من واقع أصحابه المهاجرين الذين تركوا أموالهم في مكة وغادروها مملقين ولا أمل لهم في العودة أو استرداد ما يملكون. من جانب آخر أراد الرسول أن يقيم رابطة متينة من الأخوة بين المجموعتين

(١) ابن سعد: ج ١، ص ١٣٨.

الأساسيتين اللتين تشكلان المجتمع الجديد في المدينة (المهاجرين والأنصار). لهذا كله وتأكيداً لوحدة المجتمع الإسلامي الأول أوجد الرسول نظام المؤاخاة.

قام نظام المؤاخاة على "الحق والمؤاساة" والتوارث بعد الموت دون الأرحام<sup>(١)</sup>. وفي المرحلة الأولى التي كانت المؤاخاة فيها بين المهاجرين أنفسهم، قال رسول الله ﷺ لأتباعه: "تأخوا في الله أخوين أخوين"<sup>(٢)</sup>. ثم أخذ ييد علي بن أبي طالب، فقال: "هذا أخي"، وأصبح النبي أخاً لعلي، وتآخى حمزة بن عبد المطلب عم النبي مع زيد بن حارثة مولى الرسول، وتآخى جعفر بن أبي طالب وهو غائب في الحبشة مع معاذ بن جبل، وتآخى أبو بكر مع خارجة بن زهير الأنصاري، وعمر بن الخطاب مع عثمان بن مالك الأنصاري، وأبو عبيدة بن الجراح مع سعد بن معاذ، وقيل مع أبي طلحة، وعبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع الخزرجي الأنصاري، والزبير بن العوام مع سلامة بن سلامة بن وقش الأنصاري، وعثمان بن عفان مع أوس بن ثابت بن المنذر، وطلحة بن عبيد الله مع كعب بن مالك الأنصاري.

ويذكر أن المتأخين من المهاجرين والأنصار، كانوا تسعين رجلاً، خمسة وأربعين من المهاجرين، وخمسة وأربعين من الأنصار، على ما تزعم إحدى الروايات، أو مئة على رواية أخرى، خمسون من المهاجرين وخمسون من الأنصار، وقد جرت عملية المؤاخاة قبل غزوة بدر، وكان مبررها أن الرسول ﷺ أراد أن يذهب عن المسلمين المهاجرين وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة

---

(١) ابن سعد: ج ١، ص ٢٣٨.

(٢) ابن هشام: ق ١، ص ٥٠٥. ابن كثير: ج ٢، ص ٣٢٥.

الأهل والعشيرة ويشد أزر بعضهم ببعض، فضلاً عن الناحية الاقتصادية، أو بشكل أوضح الوضع المادي المتردي الذي كان يعاني منه العدد الأكبر من المهاجرين المسلمين الذين تركوا ديارهم وجاؤوا إلى ديار غريبة ليس لهم فيها ما يساعد على سد حاجاتهم وحاجات أسرهم، فجاء نظام المؤاخاة حلاً مؤقتاً لأزمتهم<sup>(١)</sup> وبهذا الإجراء أيضاً توقفت وحدة المسلمين في المدينة، بعد أن كان المسلمون فيها قبائل مختلفة فيما بينها، وأصبح المسلمون المتواخرون يشكلون قوة خطيرة يحسب لها أعداء الإسلام كل حساب.

### ٣- الصحيفة أو "دستور الدولة الجديدة":

بعد أن استقر الرسول ﷺ في المدينة المنورة بدأ بوضع الأسس التي تنظم الحياة العامة فيها. وذلك من أجل تحديد المهام والمسؤوليات بين مختلف الفرقاء الذين يتكون منهم مجتمع دولة المدينة، وتوضيح الأمور والضوابط التي تنظم علاقاتهم وتحكمها، ولا سيما وأنهم من أصول مختلفة وينتمون إلى أكثر من ديانة، ولا تجمعهم وحدة المصالح أو المواقف. فقد كتب الرسول ﷺ، وقبل أن ينصرم العام الأول من الهجرة، كتاباً حدد فيه صورة العلاقات في المجتمع المدني الجديد بفقاته المختلفة وما يترتب على كل فئة من حقوق وواجبات، وعرف الكتاب بالصحيفة، وتعد هذه الصحيفة وثيقة هامة لأنها تصور لنا ما كانت عليه أحوال المجتمع اليثري وإلى أي حد تغيرت نظمه القديمة والأسس التي قام عليها قانون تنظيم الحياة الاجتماعية في المدينة وقد حفظ لنا ابن هشام نص كتاب أورده ابن إسحاق في سيرته ونسبة إلى الرسول ﷺ. وهذا الكتاب،

---

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٥٠٥.

على ما ي قوله ابن إسحاق، وهو نص الكتاب الذي كتبه الرسول، وحدد فيه صور العلاقات في المجتمع المدني الجديد بفئاته المختلفة وما يتترتب من حقوق وواجبات على كل فئة من هذه الفئات.

### نص الكتاب "الصحيفة":

"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي ﷺ نبي المؤمنين وال المسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم<sup>(١)</sup> يتعاقلون<sup>(٢)</sup> بينهم وهم يفسدون عانيها<sup>(٣)</sup> بالمعرفة والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعرفة والقسط بين المؤمنين، وبنو جشم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعرفة والقسط بين المؤمنين، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعرفة والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعرفة والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعرفة والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعرفة والقسط بين

(١) ربعتهم: أي الحالة التي كانوا عليها عند ظهور الإسلام.

(٢) يتعاقلون: يدفعون ديات القتلى المتوجبة عليهم.

(٣) العاني: أي الأسير.

المؤمنين، وأن لا يتركون مفرحاً<sup>(١)</sup> بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن لا يخالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغي منهم أو ابتغى دسيعة<sup>(٢)</sup> ظلم، أو إثم، أو عداون، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيدتهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجبر عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم مولى بعض دون الناس. وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متاصرين عليهم، وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسلام مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غَزَتْ معنا يعقب بعضها بعضاً، وإن المؤمنين يبَيِّن<sup>(٣)</sup> بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجبر مشرك مالاً لقريش ولا نفسها، ولا يحول دونه على مؤمن، وإنه من اعتبط<sup>(٤)</sup> مؤمناً قتلاً عن بيته، فإنه قُوْدَ بِهِ<sup>(٥)</sup> إلا أن يرضي ولِيَ المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً<sup>(٦)</sup> ولا يأويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيمة، ولا يؤخذ منه صرف ولا

(١) مفرحاً: المتنقل بالدين والكثير العيال.

(٢) الدسيعة: العطية.

(٣) يبَيِّن: يكف ويمنع.

(٤) أي قتله بدون سبب يستدعي ذلك.

(٥) قُوْدَ بِهِ: أي يقتل القاتل المعتمد تعويضاً عما جنت يداه.

(٦) المحدث: هو المبدع، الذي يقوم بعمل غير الأوضاع القائمة في المجتمع.

عدل، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مردك إلى الله عزوجل، وإلى محمد ﷺ، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهودبني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، موالיהם وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ<sup>(١)</sup> إلا نفسه وأهل بيته، وإن ليهودبني النجار مثل ما ليهودبني عوف، وإن ليهودبن الحارث مثل ما ليهودبني عوف، وإن ليهودبني الأوس مثل ما ليهودبني عوف، وإن ليهودبني ثعلبة مثل ما ليهودبني عوف، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وإن جفنة بطنه من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهودبني عوف، وإن البر دون الإثم، وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة<sup>(٢)</sup> يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد، إلا بإذن محمد ﷺ، وإنه لا يحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك بنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا<sup>(٣)</sup>، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأت أمرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو استجار يخاف فساده، فإن مردك إلى الله عزوجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا تجار قرش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه

(١) يهلك:

(٢) بطانة: أي ذويهم وأهل بيتهم.

(٣) أي يرضى به.

ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل أنس حصتهم من جانبهم التي قبلهم، وإن يهود الأوس موالיהם وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن برأ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

هذه الوثيقة المهمة وردت عند ابن اسحاق فقط، ونقلها عنه ابن هشام، وهي في نصوصها تتوافق تماماً مع ما كان قائماً من الظروف والأحداث في المراحل الأولى لتأسيس الدولة الإسلامية (دولة المدينة)، وكانت بحق دستور المرحلة من خلال ما نصت عليه من أمور أهمها:

- اعتبرت الصحيفة جميع المسلمين على اختلاف فئاتهم وانتسابهم القبلي أمة واحدة، فتجاهلت نظام القبيلة الذي يمزق وحدة العرب، وألغت الحدود والفاصل القبلي، فاندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة التي ترتبط فيما بينها برابطة الإسلام، فهم متضامنون تضامناً تاماً فيما بينهم، وهم ينصرون المظلوم على الظالم، ويرعىون حقوق القرابة والصحبة والجوار. ولم يقتصر مفهوم الأمة، وفق هذه الصحيفة، على الجماعة الإسلامية فقط، وإنما شمل الفئات التي لم تعتنق الإسلام بعد، وإن كانت درجة الانتماء إلى الأمة الإسلامية تتفاوت بين طبقات

---

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٥٠١-٥٠٤.

سكان المدينة، إذ كان المهاجرون والأنصار يحتلون المرتبة الأولى في سلم هذا الانتماء.

٢- فتحت الصحيفة المجال أمام اليهود الراغبين في الدخول في الإسلام، في الوقت نفسه الذي أقرت لهم بحرية الاعتقاد.

٣- أكدت الصحيفة على وجود سلطة دينية ومدنية عليها تهيمن على شؤون المدينة فجعلت الحق في فض النزاعات والخصومات بين أهل المدينة يعود الله ورسوله ﷺ.

٤- حددت الصحيفة لأهل المدينة جميعاً بفناهم المختلفة موقفاً واضحاً من قريش لا يجوز لأي أحد مخالفته، وأن الدفاع عن المدينة مسؤولية جماعية، وكذلك الحرب في حال نشوبها وعلى كل فئة أن تتحمل النفة التي تترتب عليها.

٥- حسمت الصحيفة موضوع الأخذ بالثار بأسلوب يتجنب تجدد الحروب الداخلية، فأقرت بأنه إذا اعتدى شخص ما على مؤمن بالقتل وجب على أهل الجاني أن يسلموا القاتل لولي القتل، أي لصاحب الثأر لكي يقتاد منه بالعدل، وبذلك تحول مبدأ الأخذ بالثار إلى مبدأ القصاص والأخذ بالعقاب. وبعد انتقال حق التأديب والجزاء من الفرد إلى الجماعة تطوراً حاسماً في تاريخ المجتمع العربي، على طريق قيام سلطة الدولة، من جانب آخر وفر للمجتمع حالة من الاستقرار والهدوء الذي لابد منه في مرحلة البناء والتقدم.

٦- أبقت الصحيفة على تنظيمات القبائل، وعلى رابطة الولاء وما يترتب عليها من حقوق الموالاة، فلم تجز لأحد أن يخالف مولى دون مولاه،

بالإضافة إلى ذلك أباحت الصحيفة حق إجارة أي شخص غريب، ما عدا قريش ومن ناصرها.

٧- أوضحت هذه الوثيقة شدة الصلة بين المؤمن والمؤمن، هذه الصلة التي تبلغ حد التفضيل على القرابة بالتوالد، كما قررت أهمية الولاء والجوار وأعطت المولى والجار نفس الحقوق والواجبات التي أعطتها لأبناء القبائل العربية أو اليهودية.

#### ٤- الموقف من اليهود:

حرص الرسول ﷺ على استمالة يهود المدينة منذ أن قدم إليها منهاجرًا، فوادعهم بوسائل متعددة، كان أهمها ما ورد في بنود الصحيفة التي منحهم حرية الاعتقاد وإقامة الشعائر الدينية، فضلًا عن مساواتهم سياسياً بال المسلمين واعتبارهم جزءاً من الأمة الإسلامية. ولكن اليهود، وعلى الرغم من كل هذه المواقف الودية تجاههم، كانوا يكتمون استياءهم من قيام دولة عربية إسلامية في المدينة يرأسها النبي محمد بن عبد الله ﷺ، فنظاهروا، أول الأمر، بالترحيب والرضا عن وجود النبي محمد ﷺ بينهم انتظاراً لما ستؤول إليه الأوضاع الجديدة في يثرب، وكانوا يطمعون إلى تحقيق مصالحهم الذاتية، وتعزيز مكانة مدينتهم التجارية والسياسية على حساب مكة، التي غادرها عدد منهم من كبار التجار والوجوه الاجتماعية فيها، وإلى استرجاع سيادتهم القديمة في يثرب، واعتقدوا أن وجود النبي ﷺ قريباً منهم أفضل من ظهوره وتعاظم شأنه في مكان آخر بعيد يصعب عليهم التامر عليه، والقضاء على دعوته، لكل هذه الأسباب، لم يلبث اليهود أن نقضوا عهدهم مع النبي وأفصحوا عن عدائهم له، وبدؤوا يحاربونه

بسلاح الدسائس والمؤامرات والنفاق عندما تأكد لهم نجاحه وثبات خطواته في بناء الجبهة الداخلية الرصينة لدولته الوليدة.

تبه الرسول ﷺ إلى ما يخفيه اليهود من مشاعر العداء والكراهية له ولدينه، والتي كانوا يسعون إلى إخفائها تحت قناع زائف من التظاهر بالرضا والتأنيد فأخذ يحذرهم ويراقب تصرفاتهم التي اتخذت أسلوباً خفياً في بث بذور الخصم والشقاوة بين المسلمين، فأخذوا يثيرون الفتنة والخصومات القديمة بين الأوس والخزرج بقصد إشعال نار الحرب في المدينة وإفشال المشروع السياسي والحضاري الذي جاءت به الرسالة المحمدية، وكان الأوس والخزرج يصطدمون صداماً مسلحاً لو لا تدارك النبي ﷺ للأمر<sup>(١)</sup>. ثم اشتدت حملة لهم في عداء المسلمين بعد انتصار المسلمين الساحق في معركة بدر، وبدؤوا يظهرون نوایاهم، فبغوا وقطعوا ما كان بينهم وبين النبي من عهود ومواثيق، فما كان من النبي ﷺ إلا أن يتخذ منهم موقفاً واضحاً، صارماً ومحدداً، حفاظاً على مصلحة الإسلام والمسلمين وعلى كيان الدولة الوليدة.

### أ- أمر بغي قينقاع:

كان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين الرسول، مستغلين حادثة السوق التي خلاصتها: أن امرأة عربية من الأنصار قدمت بحلي لها إلى سوق بنى قينقاع في المدينة لتبيعها، وجلست في دكان صائغ منهم وعنده بعض من صحبه فطلبوها منها أن تكشف عن وجهها فأبكت، فجاء يهودي من بنى قينقاع وجلس من ورائها، وعمد إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت

---

(١) المصدر السابق: ق ١، ص ٥٥٠-٥٥٦

سوءتها، فضحكوا منها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على اليهودي فقتلته، فوثب اليهود على المسلم وقتلوه.

وهكذا تجمعت عناصر مسلمة لمؤازرة صاحبها كما تجمعت عناصر يهودية للغرض نفسه، ولما علم الرسول ﷺ بالأمر جمع بنى قينقاع في سوقهم وحضرهم من مغبة عملهم ومعاداتهم للمسلمين، ولكنهم ردوا عليه رداً حسناً وقالوا له: "لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب - إشارة إلى انتصاره في معركة بدر - فأصبحت منهم فرصة، إنما والله لئن حاربناك لتعلمنا أنا نحن الناس" وإذاء هذا التحدي والإصرار على معاداة المسلمين وجد الرسول نفسه مضطراً إلى حربهم فحاصرهم في ديارهم خمس عشرة ليلة استسلموا بعدها لحكمه، فأجلهم عن المدينة بعد وساطة عبد الله بن أبي سلول وتركوها إلى أذرعات بالشام وأقاموا فيها<sup>(١)</sup>، فتخلصت المدينة من شرور هذه الفتنة ونواياها المؤذية لوحدة المجتمع واستقراره، وكان ذلك في مطلع الشهر العشرين من الهجرة<sup>(٢)</sup>.

#### بـ- أمر بنى النضير:

خرج الرسول ﷺ إلى يهود بنى النضير يستعينهم في أمر دية قتيلين من بنى عامر قتلا بطريق الخطأ من قبل أحد المسلمين بعد أن كان بينهما وبين الرسول عقد وأمان، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف، فوجدهم الرسول في ناديهم، فجلس إليهم وكلمهم في أمر القتيلين وديتهم وضرورة اشتراكهم في دفع هذه الديات، فقالوا له نفعل يا أبا القاسم ما أحببت، وطلبوه إليه

---

(١) المصدر السابق: ق ٢، ص ٤٧-٥٠.

(٢) الواقدي: ج ١، ص ١٧٦.

البقاء حتى يصنعوا له طعاماً لضيافته، ثم خلا بعضهم إلى بعض يتآمرون على شخصه الكريم، وانتفقوا على أن يطرحوا عليه حجارة من فوق البيت الذي هو تحته، جالس مسندأً ظهره إليه ليقتلوه، وقام رجل منهم وهياً صخرة ليرميها على الرسول، وشعر الرسول بما يدبر له، فقام وعاد هو وصحابه إلى المدينة قبل أن يستطع بنو النضير تنفيذ مؤامرتهم، وجمع أصحابه بعد عودته وحدثهم بما هم به بنو النضير وأمرهم بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، وهكذا خرج الرسول إلى ديار بني النضير ومعه عدد كبير من أصحابه، وبادر إلى محاصرتهم، واشتبك المسلمون معهم في قتال عنيف، وطال حصار المسلمين لهم عشرين يوماً فضاقوا بهذا الحصار وقلت موارد عيشهم واشتد بهم الخوف، لذا طلبوا الصلح مع النبي، فصالحهم على الخروج من المدينة لكل ثلاثة منهم بغير بما حمل سوى الحلقة (أي الدروع) والآلة ولرسول الله أرضهم ونخلهم والحلقة وسائر السلاح، ثم رحلوا في شهر ربيع الأول من بداية العام الرابع للهجرة، فحملوا على ٦٠٠ بغير، وفيهم يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ كَأُولَءِ الْحُشْرِ مَا ظَنَّتْهُمْ أَنْ يَخْرُجُوا، وَظَنَّوا أَنَّهُمْ مَانِعُهُمْ حَصْنُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حِيثِ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدْ فِي قُلُوبِهِمُ الْرُّعبُ بِخَرْجِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ، فَاعْتَرُوا يَا أَوْلَى الْأَبْصَارِ، وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءُ لَعَذَبُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَعَذَابُهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾<sup>(١)</sup>، وقد رحل فريق منهم إلى خير، بينما توجه الآخرون إلى بلاد الشام، وبين القرآن الكريم في سورة الحشر حكم الأموال التي

(١) سورة الحشر: ٣-٢.

تركوها وسمها فیئاً وجعل أمرها لرسول الله أن يضعها حيث أمره (الله وللرسول ولذى القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل)<sup>(١)</sup>.

### جـ- أمر بنى قريظة:

بعد طرد المسلمين ليهود بنى قينقاع وبني النضير، بسبب خيانتهم وغدرهم ونقضهم للمواثيق والعهود، خرج جماعة منهم إلى قريش بمكة يحرضونهم على مهاجمة المدينة، ولم يتردد هؤلاء اليهود عندما سألهم أهل قريش باعتبارهم أهل كتاب عن أي الدينين أفضل: دين الوثنية أم الإسلام، أن فضلوا الوثنية على التوحيد ناقضين بذلك التفضيل تعاليم التوراة، فقالوا لهم: "بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه ومن اتبعه"<sup>(٢)</sup>.

فلما أقتعوا قريشاً مضوا إلى غطفان وبني مرة وفزاره وأشجع وسلمي وبني سعد وبني أسد يحرضونهم على الأخذ بثارهم، وإعلانها حرباً شاملة على رسول الله محمد ﷺ. ونجحت خطتهم في تحشيد عدد مهم من القبائل لمهاجمة المسلمين، وقد استعد المسلمون لمواجهة هذا العدوان الذي لم يسبق له مثيل من حيث الحجم وعدد القبائل المتحالفة ضدهم، وانتهى يوم الأحزاب أو الخندق بفشل ذريع لليهود وأنصارهم من عرب قريش وغطفان ومرة وأشجع من خارج المدينة، ويهود بنى قريظة من داخلها، وكان بنو قريظة موادعين للرسول ﷺ، ولكنهم لم يلبثوا أن غدروا به ونقضوا ما كان بينهم وبينه من عهد، إذ رأوا في غزوة الأحزاب فرصة مواتية لهم للانتقام من المسلمين الذين أخرجوا أشقاء لهم

---

(١) انظر: الواقدي: ج ١، ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٢) ابن هشام: ق ١، ص ٥٦٢.

من المدينة، فأحاط الأعداء المسلمين من كل جهة نتيجة خيانة وغدربني قريظة. فلما رحلت الأحزاب وانصرفوا عن محاصرتهم المدينة، كان أول عمل قام به الرسول ﷺ أن أمر صحبه بالتوجه إلى بني قريضة ليقاصهم على نقضهم عهدهم معه وخيانتهم له، وقد حاصرهم خمساً وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار ودب الرعب في قلوبهم، فقبلوا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ حليفهم القديم، فحكم فيهم بحكم رسول الله، وهو أن تقتل الرجال وتتقسم الأموال وأن تسبى النساء والذرية<sup>(١)</sup>، فأمر بهم الرسول فسيقوا جماعات إلى موضع سوق المدينة، حيث حفرت لهم خنادق ثم أمر الرسول فضربت أعناقهم في تلك الخنادق<sup>(٢)</sup>، وبلغ عدد القتلى منهم ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ يهودي، وقتلت من نسائهم امرأة واحدة هي بنانة امرأة الحكم القرضي وكانت قد ألت حجرأ للرحي على خlad بن سويد بن الصامت فقتلته<sup>(٣)</sup>.

وهكذا تطهرت المدينة من كل العناصر اليهودية التي كانت تسكنها، وضمن الرسول ﷺ بهذا الإجراء سلامة الجبهة الداخلية وخلاصها من عدو خطير كان يهدد وحدتها باستمرار.

#### د- أمر اليهود في أطراف العجاز:

لم ينته الخطر اليهودي على دولة المدينة تماماً طالما أن هناك فئات منهم تستوطن مدن خيبر وفلك وتيماء ووادي القرى تنتظر أية فرصة للتآمر عليها،

(١) البلاذري: فتوح ص ٢٣.

(٢) ابن هشام، ق ٢، ص ٤١.

(٣) المصدر نفسه، والقسم، ص ٤٢.

لذلك ظلّ الرسول ﷺ ينظر إلى هذه التجمعات بعين الحذر والتحسّب وينظر الفرصة المناسبة لإخضاعها لسلطة الدولة العربية الإسلامية وسيادتها، لذلك قرر بعد أن عقد صلح الحديبية مع قريش أن يبدأ بإخضاع خيبر وما جاورها، فتوجه إليها بحملة عسكرية في مطلع سنة 7 للهجرة وقاتل أهلها واستولى على جميع حصونهم عنوة، ويذكر ابن اسحق<sup>(١)</sup> أن الرسول ﷺ حين رجع من الحديبية أقام في المدينة بعضاً من الوقت، ثم خرج في نهاية شهر المحرم من عام 7 للهجرة إلى خيبر حتى حلّ بساحتها ليلاً، وفي صبيحة اليوم التالي نازل حصونها حسناً حسناً وصار يفتحها حتى جاء على آخرها، وصالحه أهلها من اليهود على أن يبقوا فيها ويدفعوا نصف ما يخرج من أرضهم، وإذا شاء المسلمون أخرى جوهم.

وبعد أن انتهى من فتح خيبر ذهب إلى وادي القرى فحاصر أهلها عدة ليال، ولما بلغ أهل فدك ما حلّ بأهل خيبر أبلغوا الرسول أنهم يصلحونه على ما صالحه عليه أهل خيبر قبل الرسول ذلك منهم. أما يهود تيماء فقد بادروا بمصالحة النبي بعد أن بلغتهم أخبار المدن السابقة ودخوله في منطق وادي القرى<sup>(٢)</sup>.

بهذه الخطوة اتسع السلطان السياسي للدولة العربية الإسلامية إلى مناطق خارج حدود المدينة، وأصبح يخضع لسيادتها قوم من غير المسلمين عرفوا بـ(أهل الذمة) كما أصبح، ولأول مرة أيضاً، للدولة موارد اقتصادية من خارج أملاك المدينة، فضلاً عما وفرته تلك الاتفاقيات من مزايا وضمانات أمنية لحدود الدولة الشمالية.

(١) المصدر نفسه، ق ٢، ص ٣٢٨ وما بعدها.

(٢) انظر: البلاذري، ص ٢٨ وما بعدها.

## المبحث الثاني

### بدء الأعمال العسكرية

#### أولاً: تشرع الجمادات

اتسمت المرحلة المكية من حياة الرسول ﷺ بالسياسة السلمية، ولم ينشب بينه وبين قريش أي نزاع مسلح يتعدى الخصومات الفردية أو التضارب بين الأفراد، وكان منهجه سلبياً يعتمد المجادلة ومحاولة الإقزاع بالمثل والدليل والبرهان، وعلى الرغم من كل العنت والأذى الذي تحمله هو واتياعه من لدن قريش، والذي بلغ في بعض المراحل حدّاً لا يطاق.

كان الرسول ﷺ لا يأذن بقتل ويحضر صحبه على الصبر والتحمل، وحين تماطلت قريش في عدائها، وإيذائها للمسلمين، أمر من لا يطيق صبراً من أصحابه أن يهاجر بنفسه وأسرته إلى الحبشة، وظل هو يواجه الأذى ويصدع بكلمة الحق في وجه الشرك والعدوان، وعندما تهيأت الظروف، بعد لقاء الوفد البثري، وهو ما عرف ببيعة العقبة الثانية، أمر صحبه بالتوجه إلى يثرب، وما لبث هو أن غادر مكة بعد أن أطمأن إلى سلامة جماعته الذين سبقوه في الهجرة إلى عاصمة الإسلام القادمة، وحتى ذلك الحين لم يدخل المسلمون في أي نزاع مسلح مع أعدائهم.

وبعد أن هاجر الرسول ﷺ إلى يثرب ظل يؤثر الوسائل السلمية في الدعوة إلى الإسلام، ويرفض سياسة العنف والقوة، ولكن الظروف الجديدة التي

قامت فيها دولته في المدينة وما يحique بها من مخاطر جسيمة تمثلت في نوايا قريش في القضاء عليها، وكذلك في مؤامرات اليهود في داخل المدينة أدت إلى تشرع الجihad والأمر بالقتل.

ففي السنة الثانية للهجرة، حين استقر بالمسلمين الأمر في المدينة، وقوت شوكتهم فرض الله عليهم الجihad، والآيات القرآنية الآتية توضح في ثناياها الأسباب الموجبة لهذا التشرع.

- **﴿إِذْنَ لِلَّذِينَ يَقَاطِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾**<sup>(١)</sup>، واضح أن المبرر الذي يقدمه هذه الآية للإذن بالقتل هو الظلم الذي لحق بال المسلمين في مكة حيث أخرجوا من ديارهم لا لسبب سوى عبادتهم للله.

- **﴿وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونُ الدِّينُ كَلِمَةُ اللَّهِ، إِنَّ اتَّهَاوْ فِيَنَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**<sup>(٢)</sup>، وفي هذه الآية بيان بأن الله شرع القتال حتى لا يفتن مؤمن عن دينه.

- **﴿كُتُبَ عَلَيْكُمُ الْقَتْلُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكُرُّهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تَحْبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شُرٌّ لَكُمْ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَاتَلَ فِيهِ قَاتَلَ فِيهِ كَيْرٌ وَصَدَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرَ بِهِ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ وَأَخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرٌ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَرِزُ الْوَنْ يَقَاطِلُونَكُمْ حَتَّى يَرْدُو كُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُو وَمَنْ يَرْتَدَ عَنْ دِينِهِ فَإِنَّمَا**

(١) الحج: ٤٠-٣٩

(٢) الأنفال: ٣٩

وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون<sup>(١)</sup>، وهذه الآية تقرر أن القتال والجهاد واجب على المسلم أحبه أم كرهه وهي عامة ولا تقدم سبباً محدداً.

- «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعذين، واقتلوهم حيث ثققتوهم وأخرجوهم من حيث آخر جوكم والفتنة أشد من القتل»<sup>(٢)</sup>.

- «... وإن نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم يهتدون»<sup>(٣)</sup>، وفي هذه الآية من سورة التوبة مبرر آخر للقتال هو نكث العهد.

- «وقاتلوا المشركون كيما يقاتلونكم كافة»<sup>(٤)</sup>، وفي هذه الآية إشارة صريحة إلى أن أمر القتال لم يعد قاصراً على قريش ومن يتحالف معها من اليهود وغيرهم، وإنما هو موجه لكل قبائل الجزيرة العربية التي تعادي الرسول وتحاربه، ووجوب قتال كل من يقاتل المسلمين كائناً من كان. ومن خلال نصوص تلك الآيات نستطيع أن نوجز أهم أسباب نزول الإذن بالقتال وتشريع الجهاد:

أ- الدفاع عن النفس عندما يتعرض المسلمون إلى الاعتداء.

---

(١) البقرة: ٢١٦ - ٢١٧.

(٢) البقرة: ١٩١ - ١٩٠.

(٣) التوبية: ١٢.

(٤) التوبية: ٣٦.

بـ- الدفاع عن الدين والعقيدة الإسلامية وردع كل من يقف في سبيل تلك الدعوة السامية، وحتى لا يفتن مسلم عن دينه، أو حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام من الدخول فيه خوفاً من أذى أو مطارده.

جـ- الدفاع عن الدين والعقيدة الإسلامية وردع كل من يقف في سبيل تلك الدعوة السامية، وحتى لا يفتن مسلم عن دينه، أو حتى لا يخشى من يريد الدخول في الإسلام من الدخول فيه خوفاً من أذى أو مطاردة.

من جانب آخر، وعد الله المسلمين المقاتلين بالجنة، وضاعف ثواب المجاهدين في سبيله، وقال تعالى: (فَلِيَقْاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَنْ يَقْاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُ أَوْ يَغْلِبَ فَسُوفَ نَؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)<sup>(١)</sup>، كما يتجلّى ذلك الوعد في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَمُوا وَجَاهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُهُمْ دِرْجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاتَّرُونَ، يَشْرُهُمْ بِهِمْ بِرَحْمَةِ مِنْهُ وَرِضْوَانُهُ وَجَنَّاتٌ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مَقِيمٌ خَالِدُونَ فِيهَا أَبْدَأَ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّهُمْ بِالْجَنَّةِ يَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَقًا فِي التُّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمِنْ أُفْيَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِرُوا بِيَعْكُمُ الذِّي يَا يَعْتَدُ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾<sup>(٣)</sup>.  
لقد كان السلم هو الأساس في الإسلام، وما اللجوء إلى القتال إلا ظرف يقترب عليه المسلم وهو لا يحبه ولا يريد، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَا كُمُّ اللَّهِ عَنِ الظِّنَّ﴾

(١) النساء: ٧٤.

(٢) التوبة: ٢٠-٢٢.

(٣) التوبة: ١١١.

يقاتلونكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم لأن تردهم وقصروا إليهم إن الله يحب المقطعين، إنما ينهكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخر جوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم لأن تردهم ومن يوطد فاؤلئك هم الظالمون<sup>(١)</sup>.

كان لتشريع الجهاد آثار هامة بالنسبة لدولة الرسول في المدينة، فقد اكتسبت به صفة سياسية، وأعطت مجتمع المدينة صفة الدولة التي أصبح لها الحق في الدفاع عن نفسها ضد القوى والأطراف المعادية لها من داخل المدينة أو خارجها.

## ثانياً: الغروات والسرايا

### ١- السرايا الاستطلاعية (السلمية):

اتسمت الأعمال الحربية الأولى للرسول ﷺ بأنها كانت منسجمة مع الأهداف التي من أجلها تنزل تشريع الجهاد، إذ من المعروف أن سراياه الأولى كانت سرايا استطلاعية الهدف منها رصد تحركات قريش، لأن الرسول ﷺ بعد أن هاجر إلى يثرب، وأسس فيها نواة الدولة العربية الإسلامية، كان على يقين من أن قريش لن تتركه يتغلب عليها، أو على الأقل ليتحرش بقوافلها التجارية القادمة والمغادرة من وإلى بلاد الشام، ولأن الترشيبين، كما بينت الآيات التي ذكرنا، اغتصبوا من المسلمين أموالهم وطردوهم من ديارهم فحق للمسلمين أن يقاتلوهم لاسترداد أموالهم وثاراً لكرامتهم وأن يعتبرونهم العدو الأول لهم،

(١) المتنفذة: ٩-٨.

وقد نصت الصحيفة على تحريم إجارة قريش ونصرتها وتحريم إجارة مال لقريش أو نفس، وبناء على كل ذلك أخذ الرسول ﷺ يبعث السرايا لتعترض قوافل قريش في طريقها إلى الشام أو عند عودتها إلى مكة، دون أن تشتبك معها في قتال أو تستولي على حمولتها، وقد ساعد على ذلك، الوضع الجغرافي للمنطقة، إذ كان لابد للقافلة المتوجهة من مكة إلى الشام وبالعكس أن تمر بين المدينة وشاطئ البحر.

كان سبب تسيير النبي لهذه السرايا مضائق قريش وتلتف وجمع ما أمكن من أخبارها وتحركاتها، كما كان الهدف منها استعراض قوة المسلمين وموادعة القبائل النازلة في طريق القوافل والتحالف معاً<sup>(١)</sup>.

ومن أهم تلك السرايا:

#### - سرية حمزة بن عبد المطلب:

بعد سبعة أشهر من الهجرة النبوية الشريفة، وفي شهر رمضان عقد النبي، ولأول مرة منذ الهجرة، اللواء لحمزة بن عبد المطلب وبعثه إلى سيف البحر في ثلاثين راكباً جميعهم من المهاجرين ليس فيهم واحداً من الأنصار، ليتعرض غير قريش فلقي أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في قافلة لقريش قادمة من الشام في ٣٠٠ راكب من أهل مكة، فاصطف الفريقان لقتال، ولكن مجدي بن عمر الجهي حجز بينهما موادعاً، فانصرف الفريقان كل إلى جهته<sup>(٢)</sup>.

---

(١) الواقدي: ج ١، ص ١٩-٩.

(٢) المصدر نفسه والجزء ص ٦.

## - سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب:

يذكر ابن اسحق أن أول سرايا رسول الله وبعوته بعد مقامه في المدينة كانت سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين فقط، وأن لواء عبيدة هو أول لواء عقده النبي ﷺ في الإسلام لأحد من المسلمين، ثم يفسر هذا الاختلاف في أول قائد لسرايا المسلمين بأن بعث حمزة بن عبد المطلب وبعث عبيدة كانوا معاً في الوقت نفسه فشَبَّه ذلك على الناس<sup>(١)</sup>.

خرج عبيدة بن الحارث في ستين راكباً، فالتحق بأبي سفيان بن حرب على ماء يقال له أحياء من بطن رابغ، وكان أبو سفيان يؤمئذ في مائتين من أهل مكة فلم يحدث قتال بينهما سوى أن سعد بن أبي وقاص رمى يومئذ بسهم، وتفرق الطرفان<sup>(٢)</sup>.

## - سرية سعد بن أبي وقاص:

في مطلع الشهر التاسع من الهجرة سير النبي ﷺ سرية بإمرة سعد بن أبي وقاص إلى منطقة الخرار، ومع سعد عشرين من المهاجرين على أقدامهم، فكانوا يكمنون في أثناء النهار ويسيرون في الليل حتى وصلوا منطقة الخرار ثم عادوا إلى المدينة بعد أن مررت بهم عبر قريش بدون صدام<sup>(٣)</sup>.

---

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٥٩١.

(٢) المصدر نفسه والقسم، ص ٥٩١. الواقدي: ج ١، ص ١٠.

(٣) الواقدي: ج ١، ص ١١.

## - غزوة الأبواء:

تعد غزوة الأبواء أول غزوة غزاها النبي بنفسه، ففي شهر صفر على رأس ١١ شهراً من الهجرة، خرج النبي ﷺ بنفسه حتى بلغ قرية الأبواء القريبة من المدينة، بهدف اعتراف عير قريش، وقد استعمل على المدينة مدة غيابه سعد بن عبادة، وقد وادع خلال خروجه في هذه الغزوة بنى ضمرة من كانة على ألا يكثروا عليه ولا يعينوا عليه أحداً<sup>(١)</sup> وعاد الرسول من هذه الغزوة بدون قتال.

## - غزوة بواط:

في شهر ربيع الأول بعد مضي العام الأول من الهجرة غزا الرسول ﷺ بواط في ٢٠٠ من المهاجرين بهدف قطع الطريق على عير قريش، ثم رجع منها بدون حرب<sup>(٢)</sup>.

## - غزوة بدر الأولى (غزوة سفوان):

جاءت هذه الغزوة بعد غزوة بواط بأيام، فقد خرج النبي ﷺ في طلب كرز بن جابر الفهري الذي كان قد أغاد على المدينة ولكنه لم يدركه<sup>(٣)</sup>.

## - غزوة ذي العشيرة:

في شهر جمادى الأولى بعد مضي ١٦ شهراً من الهجرة، غزا النبي ﷺ ذي العشيرة، وهي منطقة من ناحية ينبع بين مكة والمدينة، وكان هدف هذه

(١) المصدر نفسه، ج ١، ص ١١-١٢.

(٢) ابن هشام: ق ١، ص ٥٩٨. ابن سعد: ج ٢، ص ٨.

(٣) الواقدي: ج ١، ص ١٢.

الغزوة اعترض قوافل قريش وهي في طريقها إلى الشام، فخرج يومئذ في ١٥٠  
وقيل ٢٠٠ من أصحابه، فأقام في الشعيرة جمادى الأولى كله وليلالي من جمادى  
الآخرة ووادع بعض القبائل هناك ثم عاد إلى المدينة دون أي صدام أو قتال<sup>(١)</sup>.

- سریہ نخلہ:

تعد هذه السرية ذات أهمية في تاريخ الإسلام الأول، لأنها نقطة تحول في السياسة الإسلامية بعد تشرعِيْجَهَادِ، وهي التي مهدت لغزوَة بدر الكبُرى وفتحَت للMuslimين بابَِِجَهَادِ المسلح ضد أعدائهم وقصة هذه السرية كما توردها المصادر على التشكيل الآتي:

في رجب بعد مضي سبعة عشر شهراً من الهجرة، أمر النبي ﷺ عبد الله بن جحش بن رئاب الأنصاري ومعه ثمانية من المهاجرين بالتوجه إلى موضع يطلق عليه اسم بطن نخلة يقع بين مكة والطائف، وكان الهدف الرئيس من هذه السرية استطلاع تحركات العدو والوقوف على أخبار قريش، بدليل أن عدد أفرادها كان قليلاً، من جانب آخر حرص النبي على ألا يبوح بوجهة السرية حتى لقائدها، واكتفى بأن أعطاهم صحيفة من أبيه كتبت فيها الوصايا والتعليمات، وأمره بـألا يفتح كتابه إلا إذا سار ليلتين في الطريق المؤدية إلى النجدية، وأنذ له أن يقرأ ما جاء في الكتاب بعد ذلك على أن يمضي لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحد، فانطلق عبد الله مع رفقاء حتى إذا وصل إلى بئر ابن ضميرة نشر كتاب النبي فقرأ فيه ما يأتي: "إذا نظرت في كتابي فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم" ثم أنه خير رجاله بين

(١) الواقدي: ج١، ص١٢.

المضي معه أو العودة، فمضوا معه ولم يختلف منهم أحد فلما وصلت السرية إلى معدن يقال له بحران تخلف سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان في طلب عير لها، ومضى عبد الله بن جحش في بقية أصحابه حتى نزل نخلة، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رأهم أصحاب العير هابوهم وأنكروا أمرهم، فخرج إليهم عكاشه بن محسن من أصحاب عبد الله بن جحش وقد حلق رأسه حتى يوهم التجار القرشيين بأنهم جاؤوا معتمرین، ونجح عكاشه في خطته، واطمأن تجار قريش، فقيدوا ركبهم وسرحوها، وعندئذ تشاور عبد الله بن جحش وأصحابه فيما يفعلونه بهم، وكانوا بين أمرتين، إما أن يقاتلوهم في آخر يوم من شهر الحرام فينتهكون بذلك الشهر الحرام وإما أن يتزكوهם الليلة فيتيحوا لهم بذلك فرصة دخولهم الحرم والامتناع به منهم، ورجحت كفة أصحاب الرأي الأول، فشجعوا رفاقهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، أما نوفل بن عبد الله فنجد في الإفلات منهم، وعادت السرية بالعير والأسرى إلى المدينة، فلما قدموا إلى رسول الله ﷺ أنكر عليهم ما فعلوه وقال لهم: "ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام" ثم وقف العير والأسرى وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فأسقط في أيدي ابن جحش ورفاقه، وتحملوا الكثير من اللوم والتعنيف من بقية المسلمين فيما اقترفوه من فعل لم يحضر برضاء رسول الله، ويختلف توجيهاته.

من الطبيعي أن تنتهز قريش هذه الحادثة لتحشيد الرأي العام ضد المسلمين واظهارهم بمظاهر المعتمدي الذي لا يحترم مقدسات العرب وحرماتهم، كما استغل اليهود والمنافقون هذه الفرصة لإشعال نار الحرب ضد المسلمين وتتأليب العرب ضدهم، هذا فضلاً عن حالة الجدل وعدم الرضا التي سادت بين جماعة المسلمين في المدينة وإنكارهم لما صنعته سرية عبد الله بن جحش، وكانت الأمور أن تتخذ مساراً خطيراً؛ سواء على الصعيد الداخلي لدولة المدينة الناشئة، أم على صعيد علاقاتها الخارجية مع القبائل والأطراف العربية الأخرى، ولم تحسم تلك الفتنة إلا بعد أن أنزل الله تعالى على نبيه: ﴿يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قَتَالَ فِيهِ كَثِيرٌ وَصَدَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرُ بِهِ وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفَتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَنْزَهُ الْوَنْعَنَ تِقَاتُلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرْدُوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَإِنَّمَا هُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ هُبْطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾<sup>(١)</sup>، أي أنه إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع كفرهم به وعن المسجد الحرام في الحج والعمر، وغير ذلك الكثير من المعاشي والآثام التي ارتكبواها بحقكم فضلاً عن استمرارهم في الكفر وإصرارهم عليه.

ترك نزول هذه الآية ارتياحاً كبيراً لدى المسلمين وأزاح الخوف من قلوبهم وأتاح للرسول ﷺ التعامل مع الحدث وفق سياقه الطبيعي، فقبض العير والأسرى، وزع الأموال كغنائم وقيل فدية الأسرى من قريش وحسنت

---

(١) سورة البقرة: ٢١٧

الأزمة على الصعيد الداخلي على الأقل<sup>(١)</sup>، إلا أنها فتحت الباب واسعاً أمام مرحلة جديدة من العلاقة مع قريش، هي المرحلة الحربية.

### ٣- الغزوـات والمعارك الحربية:

تعد (سيرة نخلة) بداية صفحة جديدة في تاريخ العلاقات مع المسلمين والمشركين، أو لنقل كان حداً فاصلاً بين سينaitين أو مرحلتين، المرحلة السلمية التي حرص رسول الله على اعتمادها في السنوات الأولى من الدعوة، والمرحلة الحربية، التي أصبحت ضرورة لابد منها لمواجهة التحديات الجدية والكبيرة لدولة الإسلام، فقد أيقن الرسول ﷺ أن دولته الناشئة سوف لن يكتب لها الاستمرار والتطور دون قوة عسكرية جهادية، رادعة لكل من يعاديها أو يحاول تقويضها، وأن دخول قريش في الإسلام بالطرق السلمية فقط أصبح غير ممكن إن لم يكن مستحيلاً.

#### - غزو بدر:

بعد تشرعـيـجـ الجـهـادـ وـنـزـعـ الإـذـنـ بـالـقـتـالـ قـرـرـ الرـسـوـلـ الـكـرـيـمـ أـنـ يـقـفـ مـنـ قـرـيـشـ مـوـقـاـ صـارـمـاـ لـاـ تـهـاـوـنـ فـيـهـ، وـأـنـ يـحـارـبـهـ بـكـلـ السـبـلـ وـأـهـمـهـ عـدـمـ السـماـحـ لـتـجـارـتـهـ بـالـمـرـورـ إـلـىـ الشـامـ عـبـرـ أـرـاضـيـ الـمـدـيـنـةـ، لـذـكـ أـخـذـ يـتـرـصـدـ القـوـافـلـ الـقـرـشـيـةـ الـقـادـمـةـ مـنـ بـلـادـ الشـامـ وـحـيـنـ تـأـكـدـ مـنـ اـنـصـرـافـ إـحـدـىـ الـقـوـافـلـ مـنـ الشـامـ وـفـيـهـ أـمـوـالـ كـثـيرـةـ إـلـىـ مـكـةـ، نـدـبـ أـصـحـابـهـ لـاعـتـراـضـ الـعـيـرـ، وـبـعـثـ الـعـيـونـ لـتـحـسـسـ خـبـرـهـاـ، وـذـكـ قـبـلـ أـنـ يـخـرـجـ مـنـ الـمـدـيـنـةـ بـعـشـرـ لـيـلـاـ، ثـمـ خـرـجـ فـيـ الـثـامـنـ مـنـ شـهـرـ رـمـضـانـ / ٢ـ هـجـرـيـةـ فـيـ ٣١٩ـ رـجـلـاـ، وـقـيلـ ٣٠٥ـ رـجـالـ، مـنـهـمـ ٧٤ـ مـنـ الـمـهـاجـرـينـ

. ٢١٧ . (١) البقرة: ٢١٧

رمضان / ٢ هجرية في ٣١٩ رجلاً، وقيل ٣٠٥ رجال، منهم ٧٤ من المهاجرين وسائرهم من الأنصار<sup>(١)</sup>، وتختلف من المسلمين عدد كبير لم يلهم النبي لأن المسلمين لم يكن هدفهم من هذا الخروج القتال وإنما خرجو لاعتراض العير فقط. وقد اشترك الأنصار في هذه الغزوة أول مرة ولم يشتركون في السرايا السابقة لعدة أسباب أهمها:

- أ- أنهم اشترطوا على أنفسهم يوم بيعة العقبة الثانية أن يحموا النبي ﷺ ما دام في المدينة، ولم يشترطوا على أنفسهم أن يقاتلوا معه خارج حدود مدينتهم.
- ب- إن موقفهم الاجتماعي والسياسي يختلف كثيراً عن موقف المهاجرين، ذلك أن المهاجرين أخرجوا من ديارهم رغمًا عنهم، بعد أن تحملوا الأذى والاضطهاد من قبل أهل مكة، فهم إذن في حالة حرب ويحق لهم قتالهم في أي وقت.
- ج- التزم الأنصار وتعهدوا بنصرة النبي ﷺ إذا دهمه بالمدينة خطر من عدوه<sup>(٢)</sup>. أما في هذه المرحلة، (قبيل غزوة بدر) فقد كان الوضع مختلفاً بالنسبة للأنصار خاصة، ولعموم المسلمين عامة، فقد ذكروا أن سعد بن معاذ كان قد خرج معتمراً قبل بدر، فنزل على أميه بن خلف، فأتاه أبو جهل، وعنده على إِنْزَاله عنه، فهدده سعد بن معاذ باعتراض عيرهم عندما تمر بأراضي المدينة، لذلك لم يتردد سعد بن معاذ في الخروج مع النبي ﷺ إلى بدر عندما أراد أن

---

(١) ابن سعد: ج ٢، ص ١٢.

(٢) انظر: الواقدي، ج ١، ص ١١-١٠. ابن هشام: ق ١، ص ٦١٥. السيد عبد العزيز سالم: ص ٣٧٧.

يستوثق من الأنصار ويتبين موقفهم، وأعلن موقفه صراحة بقوله: "... لقد آمنا بك وصدقناك وشهادنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيتكم على ذلك عهودنا، ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، مما تختلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، وإنما لصيبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله"<sup>(١)</sup>.

نعود إلى موضوع القافلة القرشية المغادرة إلى بلاد الشام، فقد وصلت الأخبار إلى قائدتها أبي سفيان بأن المسلمين قد استعدوا للتعرض للعير، فحذر عند ذلك وأرسل رجلاً إلى مكة يستقر قريشاً إلى أموالها ويخبرهم أن محمدًا قد تعرض لها في أصحابه، وفي الوقت نفسه، سلك أبو سفيان طريقاً غير مأهولة توصله إلى مكة من جهة الساحل وترك بدرأ على يساره، فأنقذ بذلك القافلة من سيطرة المسلمين عليها.

وصل رسول أبي سفيان إلى مكة فاستقرت قريشاً وتجهزت للمسير بأشرافها وشبابها لقتال المسلمين، وكان عددهم يقارب ألف رجل، فنزلت بالعدوة القصوى من الوادي، وعندما وصل أبو سفيان إلى مكة حاول إقناع رجالات قرش بعدم جدوى الخروج لمحاربة المسلمين طالما أن العير والرجال والأموال قد وصلت سالمة ولم يعد هناك مبرر للحرب، إلا أن المشددين منهم وعلى

---

(١) الواقدي: ج ١، ص ٤٩.

رأسهم "أبو جهل" رفضوا التراجع عن قرارهم قبل أن يردوا "بدرًا" حتى تسمع بهم العرب فيهابونهم على حد قولهم<sup>(١)</sup>.

أشرنا إلى أن خروج المسلمين إلى بدر لم يكن هدفه القتال، وإنما للتعرض إلى غير أبي سفيان، وبينما هم في طريقهم أتاهم الخبر بمسير قريش ليمنعوا غيرهم، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه فأيدوه جميعاً ووافقوه على القتال، على الرغم من أن موقفهم كان حرجاً، فهم قد خرجوه في قلة عدد ليواجهوا حامية أقل منهم عدداً، على غير استعداد للقتال، ففوجئوا بخروج قريش لهم، بل مكة كلها، ولم يكن هناك مناص من القتال، إذ لا يمكن للنبي وأصحابه أن يعودوا إلى المدينة ناكصين لسبب مهم، هو أنهم سيضعون أنفسهم في تلك الحالة، موضع الضعف المهزوم، أمام أهل يثرب، فيطمعون فيهم يهودها ومنافقيها، فضلاً عن طمع قريش فيهم، وقد يؤدي ذلك إلى الإطاحة بهيبة الدولة الإسلامية و يجعلها هدفاً لعدوان المتربيسين بها من الداخل والخارج، لذلك وقف المسلمون جميعاً صفاً واحداً، وأجمعوا على خوض المعركة مهما كانت النتائج، فاطمأنّت نفس رسول الله ﷺ لهذه المعنويات العالية والإيمان العميق، وبعد مشاوره أهل الرأي والخبرة من أصحابه أنزل المسلمين منزلة أقرب إلى مياه بدر، بحيث يضمنون لأنفسهم السيطرة على مياهها والتحكم فيها وحرمان قريش منها.

بدأ الرسول بتنظيم قوته القتالية المتواضعة العدد، وحدد مواضعها، قبل أن تنزل قريش فاستقبل جهة المغرب بحيث جعل الشمس خلق المسلمين، أما قريش فاستقبلوا الشمس، فنزل رسول الله بالعدوة الشمالية، بينما نزل المشركون

---

(١) ابن هشام: ق ١، ص ٦١٨ - ٦١٩.

بالعدوة القبلية، ثم دعا رسول الله ﷺ ربه، فنزل عليه جبريل بهذه الآية: ﴿إِذْ  
تَسْتَغْيِثُونَ بِنَحْنٍ كَمَا فَاسْتَجَابَ لَكُمْ إِنِّي مَدِّكُمْ بِأَلْفِ مَلَائِكَةٍ مَرْدَافِينَ﴾<sup>(١)</sup>،  
وكان مع المسلمين ثلاثة ألوية، لواء المهاجرين يحمله مصعب بن عمير، ولواء  
الخرج مع الحباب بن المنذر، ولواء الأوس مع سعد بن معاذ، وكان مع قريش  
أيضاً ثلاثة ألوية، ثم خطب النبي في أصحابه ليرغبهم في الأجر ويحثهم على  
القتال، فقال: "أما بعد، فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنه لكم عما نهاكم الله  
عنه، فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق، ويرحب الصدق، ويعطي على الخير أهله،  
على منازلهم عنده، به يذكرون وبه يتفضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل من  
منازل الحق، لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه، وإن الصبر في  
مواطن البأس مما يفرج الله به الهم، وينجي به من الغم، وتدركون به النجاة في  
الآخرة فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عزوجل على  
شيء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول: ﴿لَقَتَ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتَكُمْ  
أَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، انظروا إلى الذي أمركم به كتابه، وأراكم من آياته، وأعزكم بعد  
ذلك، فاستمسعوا به يرضي ربكم عنكم، وأبلغوا ربكم في هذه المواطن أمراً،  
تسألوا الذي وعدكم به من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله صدق،  
وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتمدنا،  
وعليه توكلنا، وإليه المصير، يغفر الله لي وللمسلمين<sup>(٣)</sup>.

(١) الأنفال: ٩.

(٢) غافر: ١٠

(٣) انظر: الواقدي: ج ١، ص ٥٩. ابن هشام: ق ١، ص ٦٢٣، ابن كثير: ج ٢، ص ٤٠٧.

ابن كثير: ج ٢، ص ٤٠٧.

بدأت أحداث المعركة عندما اندفع الأسود بن عبد الأسد المخزومي من معسكر المشركين، وكان شرساً سيئاً الخلق، فتحدى المسلمين وهاجمهم، فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب وتبازز معه فقتله، بعد ذلك نزل ثلاثة من أشراف قريش هم: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة وابنه الوليد، ودعوا المسلمين إلى المبارزة، فتقدم إليهم عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب، وبدأت المبارزة وانتهت بمقتل شيبة والوليد، أما عتبة فقد أصيب بجرح، ولم يستطع عبيدة أن يجهز عليه لإصابته هو الآخر بجرح، فكر حمزة وعلي على عتبة فقتلاه، ثم حملوا عبيدة الجريح إلى معسكر المسلمين.

أصيب المشركون بالذعر لهذه الخسارة، وبادروا بالهجوم على معسكر المسلمين، وقد صمد المسلمون بقوة الإيمان وتقىهم برسول الله وبأنفسهم، فانهزم المشركون هزيمة نكراء، وفرروا من أرض المعركة، والمسلمون يقتلون ويأسرون، وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة لقريش وقتل من أشرافها وساداتها سبعون رجلاً، وأسر منهم سبعون رجلاً أيضاً.

عاد النبي ﷺ إلى المدينة ومعه الأسرى والغائم، وقبل أن يصل إلى المدينة سير رجلين إليها للبشرة بالنصر المبين، وأخذوا يمررون على دور الأنصار داراً، وأكثر الناس لا يصدقون الخبر، وأخذ اليهود والمنافقون يشيعون أخباراً عن هزيمة المسلمين، ولكن الرسول ﷺ وصحابه وصلوا المدينة مزهونين بالنصر فخرست الأفواه المغرضة، وقدم الناس يهنئون الرسول ﷺ بفتح الله ونصره.

كانت نتائج معركة بدر باهرة بالنسبة لوضع الرسول في المدينة، فقد قوي مركزه فيها وأخذ المشككون في مقدراته يشعرون أن دعوا them تنهار بعد ما

قدمه النصر في بدر من برهان على هذه المقدرة، وقد دخل في الإسلام بعدها كثير من المشركين، ومن نتائجها أيضاً أنها أضعفت شوكة اليهود والمنافقين وقللت من كبرائهم وشغفهم.

أما أهم النتائج المادية لنصر بدر فهي انتعاش حال المسلمين المادي، بما أفاءه الله عليهم من غنائم، بعد بؤس وفقر شديدين داماً ما يقرب العامين، فلم يعد من حاجة لنظام المؤاخاة ولم يعد هناك من لا يجد ما يسد رمقه، فألغيت المؤاخاة وعاد التوارث بالقرابة وفرج الله كرب المسلمين<sup>(١)</sup>.

#### - غزوات ما بعد "بدر":

أدرك الرسول ﷺ أن علاقاته مع قريش قد دخلت مرحلة جديدة بعد معركة بدر، وأن الحرب هي السمة التي ستطبع تلك العلاقة، لأن المكيين سوف لن يتازلوا عن محاولاتهم في استرداد مركزهم وهيبتهم التي نكسها المسلمون، فضلاً عن عدم سكتهم عن استمرار تهديد الرسول لآمن وسلامة الطريق الذي تسلكه قوافهم، وما يتترتب على ذلك من تهديد جدي لاقتصادهم ولمكانة مدينتهم التجارية والدينية، لذلك قام الرسول ﷺ بسلسلة من الأعمال الحربية بعد بدر وقبل أحد، هدفها التمهيد للمواجهة الحاسمة القادمة مع قريش ومن أهم هذه الأعمال:

#### - غزوة بنى سليم:

وّقعت بعد سبعة أيام من غزوة بدر، لم يحدث فيها قتال بسبب هرب رجال بنى سليم وغطfan تركهم إيلهم قبيل وصول المسلمين، فاستفاق الرسول

---

(١) الواقدي: ج ١، ص ١١٤ وما بعدها، ابن هشام ق ١، ص ٦٤٤ وما بعدها.

الإبل وعاد بعد إقامة قصيرة في تلك المنطقة المسمى "الكدر" التي كانت قد تجمع فيها بنو سليم لمهاجمة المدينة.

### - غزوة السويق:

كانت ردأ على غارة قام بها أبو سفيان ومعه مجموعة من القرشيين على أطراف المدينة وقيامهم بقتل اثنين من المسلمين وحرقهم لبيوتهم، وذلك ثاراً لخسارة قريش في بدر، ولما علم الرسول بالأمر جمع أصحابه وخرجوا في أثر أبي سفيان إلا أنه عجل بالهرب وعاد المسلمون إلى المدينة.

### - غزوة ذي أمر:

لما رجع الرسول من غزوة السويق أقام بالمدينة بضعة أيام ثم غزا نجداً يريد غطfan، وبقي في نجد مدة تقارب الشهر دون أن يلقى كيداً وعاد بعدها إلى المدينة<sup>(١)</sup>.

### - غزوة أحد:

عز على قريش أن تهزم ويقتل سادتها، فكانت الهزيمة شغلها الشاغل خلال السنة التي انقضت، وقد أمضت هذه السنة بعد هزيمتها في بدر، في الاستعداد للأخذ بالثأر وبذلت في هذا السبيل كل جهدها، كما خصصت أموال القافلة التي حاول المسلمون اعتراضها وهي قادمة من الشام والتي كانت السبب في وقعة بدر للإنفاق على هذه الاستعدادات، واستغلت قريش ما كانت تشعر به القبائل المجاورة للمدينة من ضيق بسبب ما تعرضت له تجارتها من بوار في كل سرية إسلامية تعترض غير مكة، فأخذت تتصل بهذه القبائل لتستفزها على

---

(١) ابن هشام: القسم الثاني، ص ٤٣ وما بعدها.

ال المسلمين، وتمكنت خلال عام كامل من إعداد جيش كبير يتكون من ثلاثة آلاف كلهم من سادة مكة ومواليها وأحابييها من بني كنانة وغيرهم، وأنضاف إليهم نحو مائة من تقيف، ولما أتمت قريش استعداداتها خرجت بحفائتها تقصد المدينة وذلك في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، وكان يقودها أبو سفيان بن حرب، فنزلت بقرب جبل أحد على حافة الوادي المواجه للمدينة.

بلغت أنباء خروج قريش النبي الكريم ﷺ فخرج في ألف من أصحابه، ونزل الشعب من جبل أحد في عروة الوادي وجعل ظهره إلى جبل أحد.

ابتدأت المعركة بهجوم شنه جيش المسلمين على كتائب قريش وحفائتها، فاختلت صفوفهم، وولوا منهزمين، فتبعهم المسلمين وأخذوا يجمعون ما يجدوه في طريقهم من غنائم، ولما رأى الرماة الرسول وأصحابه قد اخترقوا صفوف المشركين وتغلوا في عسكرهم، تركوا أماكنهم وسارعوا لجمع الغنائم، وانتهزت قريش وحفائthem الفرصة فجمعوا صفوفهم وانتقلوا من الهزيمة إلى الهجوم وحاصروا المسلمين من جميع الجهات.

أما خالد بن الوليد فقد لاحظ ترك رماة المسلمين أماكنهم وجلو الجبل من المدافعين عن مؤخرة المسلمين، فأتاهم من الخلف وأعمل الرماح في ظهورهم، فانتقضت صفوف المسلمين، وصاروا بين قتيل وجريح ومهزوم<sup>(١)</sup>، ولم يثبت مع الرسول ﷺ سوى أربعة عشرة رجلاً، وقد أصيب الرسول إثر هذه الفوضى فتكسرت بعض أسنانه، وسرت بين المسلمين إشاعة مفادها أن الرسول الكريم قد قتل، فزادت هذه الإشاعة من الفوضى التي عمت صفوفهم وأضعفـت من حماسهم

---

(١) الطبرى: ج ٢، ص ٥١٤.

في قتال أعدائهم، واستطاع الرسول والمجموعة التي كانت حوله من المسلمين أن يصلوا إلى سفح أحد، فكان لظهوره سالماً معافى الأثر الكبير في رفع معنويات المسلمين مجدداً، فالتفوا حوله وغسلوا جراحه، واستمروا في مقاومة عدوهم بعد أن كثُر فيهم القتل.

أسفرت المعركة عن هزيمة للمسلمين، وقتل منهم فيها ٧٤ رجلاً، أكثرهم من الأنصار، وقد بالغت قريش في إظهار حقدها على المسلمين فمثلت بقتلاهم، جدعت الأنوف وقطعت الآذان، وكان عدد القتلى المشركين ٢٢ رجلاً<sup>(١)</sup>.

وقد تنزل في هذه المعركة ستين آية قرآنية تضمنتها سورة آل عمران، وقد احتوت هذه الآيات عدة محاور منها: تعزية المسلمين فيما أصابهم، وتوبتهم على ما كان من ضعفهم حين سرت شائعة مقتل الرسول ﷺ، وبيان الأسباب الحقيقة التي أدت إلى انكسارهم، والتذديد بجماعة المنافقين، والثناء على شهداء الموقعة ووعدهم بالجنة.

### - غزوة الخندق (الأحزاب) ٥ هجرية:

أمضت قريش المدة بين معركة أحد ٣ وغزوة الخندق (الأحزاب) ٥ في تجميع الأنصار والخلفاء والاستعداد لضرب المسلمين ضربة قاصمة، من جانب آخر قام الرسول ﷺ بالعديد من الأعمال والإجراءات التي حاول من خلالها أن يظهر قوته حتى يردع كل من يفكر في الانضمام إلى التحالف القرشي، كما أمضى هذه المدة في تصفيه عدد كبير من خصومه في الخارج، ومنع أي تحركات عدائية توجه ضد المدينة، وذلك عن طريق بث العيون

---

(١) الواقدي: ج ١، ص ٣٤١ وما بعدها.

والأرصاد حول عاصمتها، وكانت مهمة هؤلاء العيون إخبار الرسول ﷺ بكل التحركات المرية التي يكون هدفها المدينة، وكان حال سماعه بأنباء هذه التحركات يرسل جماعات من أصحابه لردها قبل وصولها أو لتفريق جموعها، وكان الرسول ﷺ يستعد بثقة إلى يوم ستحاول فيه قريش تحقيق ما عجزت عنه في (أحد) وهو القضاء عليه وعلى دينه.

نجحت قريش في تكوين حلف كبير يضم العناصر المعارضة للرسول مثل فزارة وأشجع ومرة وغطفان وبني قريظة، وزحفت إلى المدينة في العام الخامس للهجرة، فأقام الرسول خندقاً حصن به الجانب الشمالي من المدينة، وهو الجانب المفتوح والأضعف من الناحية العسكرية، ولكن قريش وحلفاءها لم يستطيعوا دخول المدينة، ف العسكروا خارج الخندق.

نزل القرشيون وحلفاؤهم في شمال المدينة في مكان يقال له مجمع الأسياخ، وقد سعى أبو سفيان إلى استمالة يهود بني قريظة الذين ظلوا على حلفهم للرسول، ونجح في مسعاه من خلال انتداب حبي بن أخطب لهذه المهمة وقال له: "إئتْ قومك حتى ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد" وخرج حبي ونزل على كعب بن أسد سيد بني قريظة وحاول أن يقنعه أن مصلحته ومصلحة قبيلته نقض العهد الذي بينه وبين الرسول والانضمام إلى قريش وحلفائها، وظل يحاوره ويجادله حتى أقنعه بالعدول عن رأيه، وبذلك نقض بنو قريظة حلفهم مع الرسول<sup>(١)</sup>، ولما علم الرسول بتغيير موقف بني قريظة اسند عليه ذلك، وأصبح المسلمين بين عدوين داخلي وخارجي، أما قريش وحلفاؤها فقد هالهم منظر

---

(١) ابن سعد: ج ٢، ص ٦٧.

الخندق وأخذوا يطوفون حوله دون أن يستطيعوا تجاوزه، وعلى الرغم من أنهم اكتفوا بالحصار إلا أن بعض الفرسان منهم أمثل: عمرو بن عبد العامري، وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب وضرار بن الخطاب، خرجوا على خيلهم وتيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه وجاؤوه، ودعوا إلى القتال والبارزة، فخرج علي بن أبي طالب رض إلى عمرو بن عبد العزى وقتلته، فخاف الباقيون وخرجوا من حيث دخلوا.

على الرغم من أن الحصار لم يطل أمده فإن آثاره كانت سيئة بالنسبة لل المسلمين، ورأى الرسول ﷺ أن يعمد إلى الحيلة لفكه، وتمزيق تحالف الأعداء، لذلك عهد إلى نعيم بن مسعود الغطفاني بتقريف كلمة الأحزاب وفض تجمعهم، وكان نعيم قد قدم مع قومه من غطfan لحرب المسلمين، ولكن الله هداه إلى الإسلام وجاء سراً إلى الرسول ﷺ في ليلة من الليالي وأعلن إسلامه، وكان نعيم على جانب كبير من الدهاء، فطلب منه النبي أن يخذل عن المسلمين إن أمكنه ذلك وقال له: "إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة"<sup>(١)</sup>، فمضى نعيم إلى بني قريظة وكانت ترتبه بهم صدقة قديمة، فنصبهم بala يقاتلوا مع قريش وغطfan حتى يأخذوا منهم رهناً، لأن المدينة ليست بلهem وأن بإمكانهم الرجوع إلى بلدhem متى شاءوا، ويتركونهم بعد ذلك تحت رحمة المسلمين، فأعجبهم رأيه وأخذوا به، ثم نهض نعيم إلى قريش وقال لأبي سفيان: "قد عرفتكم صداقتكم لكم، وبلغني أمر لزمتي أن أعرفكموه، فاكتموا عنـي. قالوا: وما هو؟ قال: أعلمـوا أن اليهود قد ندموا على ما فسخوا من عـهد محمدـ، وقد

(۱) ابن هشام: ق۲، ص۲۲۹.

أرسلوا إليه أن يأخذوا منكم رهناً يدفعونه إليه، سبعين رجلاً من أشراف قريش وغطفان ليضرب أعناقهم على أن يعيد بنى النضير إلى ديارهم في بئرب، وأشار عليهم إلا يعطوا قريظة ما ستطلبه من رهائن، ولما شعر بأن قريشاً افتعلت بما قاله لها، ذهب إلى غطفان وحدثها بحديث مماثل ونصحها بألا تعطي أي رهينة من رجالاتها<sup>(١)</sup>.

أرسل أبو سفيان وغطفان إلى بنى قريظة في ليلة سبت من شوال سنة ٥ هـ يطلب منهم أن يخرجوا في الغد للقتال، ومحاربة محمد، فكان جوابهم للوفد القرشي الذي كان على رأسه عكرمة بن أبي جهل، بأن غداً يوم سبت وهم لا يقاتلون فيه ولا يعملون عملاً، وأنهم لن يقاتلوا محمداً حتى يعطون رهائن من قريش وغطفان يكونون عندهم خشية هزيمة القبيلتين إذا كانت الحرب لغير صالحهما، وتركهم وحدهم.

وقد أكد هذا الموقف من يهود قريظة ما كان عند قريش وغطفان ما معلومة مصدرها نعيم، فامتنعوا من إعطاءهم الرهائن، من جانب آخر أثبت موقف قريش هذا ما قاله نعيم لبني قريظة، فاقتصر الطرفان برواية نعيم، فأبوا القتال<sup>(٢)</sup>، وفي تلك الليلة هبت عاصفة عاتية على الأحزاب أرغمنهم على العودة من حيث أتوا، ولما سمع الرسول ﷺ برحيل الأحزاب أذن للمسلمين بالعودة إلى منازلهم في المدينة، فعادوا بعد أن دام حصار الخندق مدة تقارب ثلاثين يوماً، واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة أشخاص، وقتل من الأحزاب ثلاثة، وقد

---

(١) المصدر السابق والقسم ص ٢٣٠.

(٢) المصدر نفسه والقسم ص ٢٣١.

ذكر الله تعالى قصة الأحزاب في سورة سميت باسمهم وهي السورة الثالثة والثلاثون من سورة القرآن الكريم.

لقد كانت سياسة الرسول ﷺ في إدارة هذه المواجهة الخطرة متفوقة على سياسة خصومه، ونجح نجاحاً باهراً في تمزيق جبهة أعدائه التي تفوق قواته بما يزيد على ثلاثة أضعاف، فحفره الخندق، وطلائعه التي كانت تزوده بالأخبار وبتحركات العدو، كانا من أهم الأسباب في فشل أعدائه وعدم تحقيق أهدافهم، فضلاً عن الدبلوماسية الناجحة التي اعتمدها، ووحدة الصف الإسلامي وانضباط المسلمين ووقفهم صفاً واحداً وراء الرسول، كل ذلك كان له الأثر الأكبر في سير المعركة وتغيير نتائجها.

بعد غزو الخندق، بدا واضحاً لقريش أن جهودها للقضاء على محمد عن طريق عمل عسكري لن يكتب له النجاح، ولا سيما وأن قريش استنفذت كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة للقضاء على دولة الرسول بالمدينة، كما استنفذت كل طاقاتها وإمكاناتها الاقتصادية، في محاربته مضحية في ذلك بهيبيتها وتجارتها، ولم تعد مشكلة قريش الآن القضاء على محمد، بل غدت مشكلتها الحفاظ على وجودها هي، هذا الوجود الذي أصبح تحت رحمة المسلمين.

وكان رسول الله ﷺ قد عزم على التغلب على مكة سلミاً مستغلًا فرصة ما أصابها، واستعدادها لتقبل الصلح معه حتى يتيسر لها بعد ذلك أن تعاد نشاطها التجاري في أمان، فإذا ما تمكن رسول الله من تحقيق هذا الهدف سهل عليه بعد ذلك ضم بقية قبائل بلاد العرب، التي كانت تتربّص نتيجة الصراع بين الإسلام في المدينة والوثنية في مكة لتخذ قرارها بالانضمام إلى الطرف المنتصر، ولغرض استثمار حالة النصر بعد (الأحزاب) بادر رسول الله ﷺ إلى

تجريد قريش من قوتها فغزا غزوتين بعد (الخندق أو الأحزاب) إحداهما غزوة بنى لحيان والثانية غزوة بنى المصطلق من الأحابيش حلفاء قريش، وذلك في العام السادس للهجرة فهزمهم ووقع معهم عهداً، وتزوج الرسول جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد بنى المصطلق، فضمن انضمامهم تحت سيادة الدولة الإسلامية<sup>(١)</sup>.

### - صلح الحديبية

بعد هزيمة الأحزاب في غزوة الخندق، انتقل الرسول ﷺ في سياساته الخارجية من مرحلة الدفاع إلى مرحلة التحدي، وبعد أن اطمأن الرسول إلى قوته وتفوقه على أعدائه، غدا ينشد مهاجمة قريش وتحديها في عقر دارا تمهدأ للقضاء على نفوذها والإطاحة بوثنيتها، لذلك قرر أن يقصد مكة معتمراً في شهر ذي القعدة من العام السادس للهجرة، وكان على يقين أن قريشاً ستمنعه من أداء العمرة، ولكنه كان يسعى من وراء ذلك إلى إظهار قريش بمظاهر المعتمدي الذي يرفض السلام ويصد عن بيت الله من جاء يعظمه، كما كان يسعى أيضاً إلى الإفصاح عن احترام الإسلام للكعبة والبيت الحرام وتعظيمه للحج والعمرأة أمام قبائل العرب جميعاً.

رحب المسلمون بدعوة الرسول لهم للخروج معه لقضاء العمرة، فخرج بهم جميعهاً وقد بلغ عددهم ما يقارب الألف وأربعمائة رجل من الأنصار والمهاجرين ومن لحقهم من الأعراب، ليس معهم من السلاح إلا السيوف في أغماضها، أحرب الرسول ﷺ بالعمرأة من "ذي الحليفة"، (وهو موقع على مقربة من

(١) ابن هشام: ق٢، ص٣٦.

المدينة يحرم به عادة أهل يثرب إذا أرادوا الخروج إلى حج أو عمرة)، وأحرم معه سائر المسلمين، وساقوا الهدي، فلما بلغ قريشا ذلك خرج معظم رجالها لصد رسول الله عن البيت، أو قتاله دون ذلك، وقدموا خالد بن الوليد في خيل إلى كراع الغميم، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك سك طريقا آخر انتهى إلى الحديبية من أسفل مكة، وأمر بالنزول هناك، ثم جرت مفاوضات بين رسول الله ﷺ وبين قريش، كان هدف المكيين منها منع الرسول من أداء العمرة.

انتدب الرسول ﷺ لمهمة مفاوضة قريش عثمان بن عفان، لمكانته بين قريش وقرابته لأبي سفيان رئيسها، وقد طلب رسول الله ﷺ من عثمان أن يقول لقريش: إنا لم نأتي لقتال أحد، وإنما جئنا زواراً لهذا البيت معظمين لحرمه ومعنا الهدي ننحره وننصرف، مضت ثلاثة أيام لم يعد عثمان خلالها وشاع بين المسلمين أنه قتل مع عشرة من المسلمين كان الرسول قد سمح لهم بالتوجه إلى مكة لزيارة أهلهم فيها، فدعا رسول الله ﷺ إلى المبايعة على الموت، وأن لا يفر المسلمين عن القتال وهي بيعة الرضوان التي تمت تحت الشجرة، وعندئذ أدركت قريش أن مناصبة المسلمين العداء سيؤدي إلى سفك المزيد من الدماء، دون جدوى، فأرسلت سهيل بن عمرو في وفد من قريش لمفاضلة النبي ﷺ في الصلح وتم الاتفاق أخيراً بين قريش والنبي على الشروط الآتية<sup>(١)</sup>:

١- أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنين.

(١) انظر: ابن هشام: ق٢، ص٣٦ . ابن سعد: ج٢، ص٩٧، والبلذري، فتوح البلدان: ج١، ص٤١ . البلذري، فتوح البلدان: ج١، ص٤١ .

٢- أن يرجع الرسول وصحابه هذا العام دون أن يؤدوا العمرة، فإذا كان العام القادم، دخلوا مكة بعد أن تخرج منها قريش، وليس معهم إلا سلاح المسافر.

٣- من أراد الدخول في عهد قريش فله ذلك ومن أراد الدخول في عهد محمد من غير قريش جاز له ذلك.

٤- أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلماً بدون إذن وليه، ولا تلتزم قريش بذلك.

وتنذر المصادر أن المسلمين استأروا من هذا الشرط الأخير وعظم عليهم صد قريش لهم عن زيارة بيت الله وعودتهم إلى المدينة دونما أداء العمرة، ولكن رسول الله ﷺ أعلم أصحابه أن الله سيجعل للمسلمين فرجاً، وأن هذا الصلح يعد نصراً وفتحاً مبيناً.

وهكذا قد كان صلح الحديبية نصراً لسياسة الرسول بعيدة المدى، على الرغم من أنه بدا حين عقده وكأنه يقدم لقريش الكثير من التنازلات التي لا مبرر لها مما أدى إلى غضب أصحابه وامتعاضهم فامتنعوا عن نحر هديهم وحلق شعورهم أول الأمر، ولكن عادوا بعد ذلك فتابعوا الرسول في فعله، ولعل أهم ما حققه الرسول بنتيجة هذا الصلح والهدنة التي عقدها مع قريش هو تفرغه لأمور الدعوة وبث الدين بين القبائل المختلفة، وضم الكثير منها إلى جانبه، وفي ذلك تدعيم لموقفه وإضعاف لموقف قريش ومحاصرتها تمهدًا لفتح مكة.

## المبحث الثالث

### مقدمات حركة الفتح العربي الإسلامي

بين صلح الحديبية وفتح مكة سنتان، كان الرسول ﷺ خلالها يخطط ويعمل جاهداً لتنفيذ مشروعه السياسي والحضاري في بناء الدولة العربية الإسلامية، تنفيذاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَةً لِلنَّاسِ بُشِّرًا وَنذِيرًا وَكَثُرَ النَّاسُ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وقد اتخذت سياسة الرسول في هذا المجال اتجاهين يكمل أحدهما الآخر:  
الاتجاه الأول عسكري حربي:

فتذكر المصادر ما لا يقل عن سبع عشرة غزوة وسرية قام بها الرسول أو قادة المسلمين الآخرين خلال المدة بين صلح الحديبية وفتح مكة، وإذا استثنينا من هذه الغزوات، غزوة خيبر، فإن تلك الغزوات يمكن أن نصنفها إلى ثلاثة فئات:

الفئة الأولى: وتضم عدداً من العمليات العسكرية الموجهة ضد قبائل لم يحسم موضوع ولائها للرسول، على الرغم من أنها لم تبد عداءاً صريحاً ضده.

(١) سبا: ٢٨.

**الفئة الثانية:** فتتضمن الغزوات التي وجهت ضد فروع من هوازن، وعلى الرغم من أن هذه الغزوات لا تعد لها قيمة عسكرية إلا أنها توضح الاتساع الجغرافي الذي امتدت إليه عمليات الرسول العسكرية.

**الفئة الثالثة:** من هذه العمليات، فهي الأهم من حيث التوجهات، فهي موجهة إلى الشمال، وضد موقع وقبائل على الطريق التجارية إلى بلاد الشام، هذا الطريق الذي يهم الرسول كثيراً، والذي قاد بنفسه أول الغزوات باتجاهه وهي غزوة دومة الجندل، وتتضمن عمليات الفئة الثالثة ثلاثة حملات هي سرية كعب بن عمر الغفاري وغزوة مؤتة<sup>(١)</sup>، وغزوة ذات السلاسل.

### **الاتجاه الثاني:**

هو الاتجاه الذي اعتمدته الرسول ﷺ في هذه المرحلة هو اصطناع سياسة خارجية ترمي إلى نشر الإسلام في مجالات خارج حدود دولة المدينة وعلى نطاق الجزيرة العربية، بل على نطاق أبعد من ذلك في مداء، فأرسل الرسول إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتاباً مختوماً بخاتمه، فخرج ستة نفر من هؤلاء الرسل في سنة سبع للهجرة وهؤلاء الرسل هم<sup>(٢)</sup>:

- ١- عمرو بن أمية الصمرى، وقد وجده الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة.
- ٢- دحية بن خليفة الكلبى، بعثه النبي إلى قيصر ملك الروم.

---

(١) وهي أهم تلك الغزوات، وسنخصص لها حديثاً مفصلاً في موضع آخر من هذا البحث.

(٢) انظر: ابن سعد: ج ١، ص ٢٥٨، وما بعدها.

- ٣- عبد الله بن حذافة السهمي، بعثه النبي إلى كسرى ملك بلاد فارس، يدعوه إلى الإسلام، وأرسل معه كتابا، فلما طالع كسرى كتاب النبي مزقه، فبلغ ذلك رسول الله، فقال: "اللهم مزق ملکه".
- ٤- حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، مبعوث النبي ﷺ إلى المقوف نائب هرقل على مصر في الإسكندرية يدعوه إلى الإسلام.
- ٥- شجاع بن وهب الأنصري، بعثه رسول الله ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني، أمير الغساسنة يدعوه إلى الإسلام.
- ٦- سليمان بن عمرو العماري، بعثه الرسول ﷺ إلى هودة بن علي الحنفي أمير اليمامة يدعوه إلى الإسلام ولكنه لم يرد على النبي.

وقد تحدثت المصادر عن أن الرسول ﷺ وجه رسلًا آخرين إلى سائر قبائل العرب في الجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام، ففي العام الثامن أرسل عمرا بن العاص إلى جيفر وعید ابني الجلندي الأزديين أميري عمان يدعوهما إلى الإسلام فصدقوا النبي ﷺ وأمنا به وأسلما، كما وجه مبعوثين إلى كل من: المنذر بن ساوي العبدى أمير البحرين، وإلى أقبال اليمن من بينهم الحارث بن عبد كلل، وشريح بن عبد كلل، وإلى بني معاوية من كندة، وإلى بني عمر من حمير، وإلى جبلة بن الأبيهم ملك غسان، وإلى أساقفة نجران، وإلى أمراء ذي مرحب بحضرموت.

كما كتب إلى بني طي وإلى بني ذام، وإلى بني زرعة وبني الريعة من جهينة، وإلى بني جعيل من بيلي، وإلى بني الجرمز من ربعة وإلى بني سليم وغيرهم من قبائل العرب<sup>(١)</sup>.

وهكذا فقد صار الرسول ﷺ على طريق تعميم نشر الدعوة الإسلامية، وحاول بالطرق السلمية أولاً أن يحقق هذا الهدف، على أن هذه الطريق السلمية لم تكن ناجحة دائماً، واضطرّ الرسول في سبيل إشهار عمومية الدعوة أن يلجأ إلى القتال، فجرد الحملات العسكرية ممهداً بذلك الطريق لانطلاق مرحلة الفتح العربي الإسلامي.

وأهم تلك المعارك:

#### - غزوة مؤتة:

بقيت مؤتة مجرد قرية منسية حتى العام السابع الهجري حين قرر النبي ﷺ إخراج دولته من عزلتها الحجازية وتجاوز الصراع الداخلي مع قريش الذي أخذت تضيق دائنته ويتراجع خطره على المدينة بعد فشل غزوة الأحزاب سنة (٥) هجرية، فقد أثبتت هذه الدولة حينذاك قدرتها على الصمود، والخروج سالمة من التحديات الخطيرة التي واجهتها، فتخلصت من خطر اليهود ومؤامراتهم، وفرضت هيبة الدولة على طرق التجارة، ونجحت في إفشال حركة المنافقين كما نجحت في استيعاب الصراع الوثني - القبلي.

---

(١) ابن سعد: ج ١، ص ٣٦١ وما بعدها.

هذه المتغيرات قادت إلى اتخاذ خطوات عملية تحمل معها مشروعًا سياسياً واضح المعالم، وهو التحول من دولة المدينة، الحجازية الملامح، إلى الدولة الإسلامية الكبرى الأكثر تعبيراً عن عالمية الدعوة، وكانت حملة مؤتة الخطوة الرائدة على هذا الطريق.

تنأتى أهمية موقع مؤتى من العلاقة بين الحجاز والشام، أكثر من الموقع نفسه، الذي يبدو هامشياً من جميع الجوانب، ذلك أن مؤتة لم تكن على امتداد الطريق التجاري المعروف الذي كان يجتاز عدداً من المحطات الهامة، إلا أنها كانت في قلب هذه الدائرة الحيوية أو في الفلك منها تلك التي عرفت بـ(البلقاء) وضمت أشهر القبائل التخومية المهمة من أمثل: لخم وجذام وبلقن وبهراء وبلي التي كانت في الغالب تدين بال المسيحية ومعها الولاء للحكم البيزنطي الذي يسيطر على تلك المناطق.

لقد كانت طبيعة العلاقة بين هذه القبائل والبيزنطيين اقتصادية، أو بتعبير أدق مصلحية، وذلك من أجل تأمين الحدود وحماية الطرق التجارية، فكان ولاؤها بالدرجة الأولى بيزنطياً، وكانت الدولة البيزنطية تستغلها حاجزاً بينها وبين القبائل العربية الأخرى في الحجاز.

إن طول الحرب بين الفرس والبيزنطيين، فضلاً عن سياسة البيزنطيين المتذهبية تجاه هذه القبائل أسهم عن غير قصد في تداعي هذا الحاجز (القبائل النصرانية) الذي أقامته بينها وبين القبائل الحجازية في شبه الجزيرة العربية وأطرافها، واستناداً إلى خلفيات هذا الوضع فإن حملة مؤتة لم تكن تحركاً عفواً اتخذ طابعه الثأري ضد حاكم قتل موعد النبي ﷺ، وإنما فرضته في المقام الأول مستجدات المرحلة، حيث الطريق مفتوحة، والقبائل متداخلة الانتماء والمصالح،

فضلا عن معرفة النبي ﷺ التفصيلية بمجمل هذه المعطيات، ومتابعته عن كتب أخبار الشام، لا سيما قرى التخوم وقبائلها النصرانية.

حدثت غزوة مؤتة، كما هو معروف، بسبب اعتداء وقع على رسول كان النبي قد أرسله إلى ملك بصرى بكتاب، فلما نزل موعد النبي أرض مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فقال له: أي تريده؟ قال: الشام. قال: لعلك من رسول محمد؟ قال: نعم، أنا رسول الله، فأمر شرحبيل فأوثق الرجل، وضربت عنقه، وبلغ الخبر الرسول ﷺ فأمر الناس أن يتهيؤوا للخروج دون أن يبين لهم الوجهة التي سيقصدونها، وأعلن لهم أن إمارة الجيش لزيد بن حارثة، فإن قتل فلجعله بن أبي طالب، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة الأنصاري، وكانت عدة الجيش ثلاثة آلاف رجل.

ثم أوصى رسول الله زيدا وأمراء جيشه وصيته المشهورة التي عدت ناموس الحرب خلال معركة الفتوحات العربية الإسلامية، فقال: "أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا، أعزوا باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغروا ولا تغلو، ولا تقتلوا ولیدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث فأيتها ما أجبوك إليها، فأقبل منهم وأكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فاخبرهم أن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، إن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين ويجري عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الفيء، ولا في الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم، وأكف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله، فلا

تستنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟ وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإن تخروا ذمتك وذمة آبائكم خير لكم من أن تخروا ذمة الله وذمة رسوله، وستجدون رجالا في الصوامع معتزلين الناس، فلا ت تعرضوا لهم... لا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ضرعا ولا كبرا فانيا، ولا تغرقن نخلا، ولا تقعلن سجرا ولا تهدموا بيتا<sup>(١)</sup>.

سارت الحملة باتجاه الشمال، وحين وصلت إلى معان من أرض الشام سمعت بأن جيشا بيزنطيا كبيرا يضم عددا من رجالات القبائل العربية ينتظرونها غير بعيد، وتدارس زيد الموقف مع صحبه فقر رأيهم على متابعة السير وملقاء العدو مما كانت النتائج.

التقى الجمuan في مؤتة، وقاتل المسلمون الروم ببسالة، حتى استشهد قادتهم الثلاثة المعينون من قبل الرسول بالتالي، وحينئذ أخذ الراية رجل منهم حتى يتلقوا على من يولونه قيادتهم، كما أمر الرسول، فاتفقوا على أن تولى القيادة لخالد بن الوليد، فقاتل بمهارة قتالا متراجعا، وصار يتأخر بال المسلمين قليلاً محتفظاً بنظام جيشه، ولم يتبعه الروم لأنهم ظنوا أنه يخدعهم حتى يرمي بهم في الصحراء، واستطاع خالد بهذه الطريقة أن يعود بال المسلمين إلى المدينة، وتعد هذه العملية العسكرية الذكية أول موقف برز فيه دور خالد بن الوليد بعد إسلامه وتجلت فيه قابلياته القيادية العسكرية وخدمته الجليلة للإسلام.

---

(١) ابن سعد: ج ٢، ص ٧٦٠.

تكتسي معركة مؤتة، على الرغم من نتيجتها المعروفة، أهمية خاصة في التاريخ العربي الإسلامي في صدر الإسلام، فهي أول اشتباك بين المسلمين وبين الروم وحلفائهم، أي أنها أول تجربة حربية تجتازها الدولة العربية الإسلامية على مستوى دولي، وإذا كانت موقعة مؤتة انتهت بهزيمة المسلمين، ووصفتها المصادر بأنها أسوأ هزيمة في تاريخهم، فضلاً عن استكثار أهل المدينة واتهامهم أهل مؤتة بالقصیر والتخاذل، فإن الرسول ﷺ واجهه هذه النكمة بحزم وبدد الشكوك التي أطاحت بقدرة أهل الإيمان وصمودهم البطولي فكثرة العدو لم تخيف المسلمين أو تدعوهم إلى التراجع، وقد أدى ذلك بالنتيجة على المدى البعيد إلى تكوين مقاتل يسعى طوعاً إلى الشهادة، وشكل رافداً جديداً لتراث المسلمين في هذا المجال، كما شكل أداة التعبير الفاعلة في التطورات الجذرية الممتدة ما بين مؤتة ومعارك الفتوح الكبرى في العصر الراشدي.

من هذا المنظور حرص الرسول الكريم ﷺ على حماية معنويات العائدين وصد الاتهام عنهم، واعتبرها جولة تعقبها كرها، فلما اتهم أهل المدينة أصحاب مؤتة بأنهم (الفرار) من المعركة رد على هذا الاتهام بقوله "بل هم الكرار إن شاء الله" <sup>(١)</sup>.

## - فتح مكة : ٥٨ -

من الطبيعي بعد خسارة المسلمين في معركة مؤتة أن يبدأ تفكير النبي ﷺ بتعزيز وضعه الداخلي، وتقوية انتشاره وتحصين موقعه، ففكر في فتح مكة تمهيداً للتفرغ للتأثير من الخارج لاحقاً، وكان الحادث الذي أرى إلى نقض صلح

(١) ابن هشام: ق٢، ص٣٨٢.

الحديبية ووقف العمل ببنوه وأدى وبالتالي إلى مسيرة الرسول إلى مكة فاتحا، هو القتال الذي وقع بينبني بكر حلفاء قريش وبني خزاعة حلفاء المسلمين، وقد انضمت قريش إلى حلفائها البكريين في هذا القتال وأمدتهم بالرجال والسلاح سرا.

ويبدو أن قريشا شعرت بخطر فعلها ونقضها العهد مع الرسول، فأرسلت أبا سفيان ليشد العقد ويجدد العهد مع الرسول، وصل أبو سفيان إلى المدينة وقابل الرسول وكلمه فلم يرد عليه الرسول بشيء، فذهب إلى أبي بكر وطلب منه أن يتوسط له عند الرسول لتجديد العقد، فرفض أبو بكر أن يتدخل في الأمر، فحاول الأمر نفسه مع عمر وعلى فرضها وهكذا عاد أبو سفيان إلى مكة دون أن يحقق ما هدف إليه.

وعزم رسول الله على فتح مكة، فأعد جيشا كبيرا من أهل المدينة لم تشهد له الحجاز مثيلا من قبل عدته عشرة آلاف مقاتل، وأراد الرسول ﷺ إلا يشيع الخبر وإلا تعلم به قريش حتى لا تستعد للقائه، ولكن شخصا من عملاء قريش في المدينة أرسل كتابا سريا مع امرأة إلى قريش يخبرهم فيه بخروج الرسول لحربهم، وعرف الرسول بخبر الكتاب، فأرسل من احتجز المرأة، واسترد الكتاب وعفا عن مرسله، وكان خروج هذا الجيش من المدينة في العاشر من رمضان، وقد استخلف الرسول على المدينة أبا رهم كلثون بن حصين بن عتبة الغفاري.

وفي الطريق لقي الرسول ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب مهاجرا بعياله، فأسلم بين يديه، وأراد العباس بعد إسلامه أن يقوم بعمل ينفذ به مكة ورجالاتها من كل ما قد يتعرضون إليه من مخاطر أو إهانات من المسلمين،

فارسار بعد مقابلته الرسول يبحث عن رجل يوفده إلى قريش لتأخذ حذرها وتبادر بالاستسلام، وصادف أن لقى أبا سفيان بن حرب، وربما لم يكن هذا اللقاء مجرد صدفة أو محض اتفاق، إذ من المحتمل أنه اتفق معه مسبقاً على هذا اللقاء حتى يجبره العباس أمام المسلمين ويمنعه من التعرض لسيوفهم، وفي الوقت نفسه يمثل قريش أمام الرسول، أو يعلن إسلامه ليأخذ منه أماناً للقرشيين فلا تفتح مكة عنوة.

رافق العباس أبا سفيان إلى حضرة الرسول، وتوسط له عنده، وعندما أسلم أبو سفيان في حضرة النبي ﷺ قال العباس: "يا رسول الله إن أبا سفيان يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً" فقال له الرسول ﷺ: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن" وبذلك أصبحت مكة مؤمنة على دماء أهلها وذاريهم، وأموالهم ونسائهم، إلا من قاتل أو استثنى فقط، وعاد أبو سفيان مسرعاً إلى مكة ليدعو قريشاً إلى الإسلام، والاستسلام للرسول لأنها لا قبل لها بما جاء به من جيش وعدة كبيرين.

عندما اقترب جيش المسلمين من مكة، قسم الرسول ﷺ الجيش إلى أربعة أقسام، وأمر أن يدخل كل قسم من جهة للقضاء على ما قد يجدونه من مقاومة، وكان دخول الجيش المسلم إلى مكة دخولاً يسيراً ولم يلق مقاومة تذكر، وكان القتال الوحيد الذي جرى هو القتال بين الفريقين من الجيش المسلم الذي على رأسه خالد بن الوليد وبعض من القرشيين وأحبابيهم في مكان من مكة يقال له الخدمة، وبدخول المسلمين مكة، سقط معقل الوثنية في جزيرة العرب في أيدي المسلمين.

وبعد أن تحقق هذا النصر الباهر، جاءت قريش إلى الرسول ﷺ معانة إسلامها بين يديه، ومباعدة على السمع والطاعة لله ورسوله، وعفا رسول الله عن عامة قريش، وعاملهم معاملة تتضمن على جانب كبير من التسامح والمحبة، وأجابهم حين سأله عمّا تراه فاعل بهم بمقولته المشهورة: "اذهبوا فأنتم الطقاء"، ثم طاف رسول الله ﷺ بالكعبة وأمر بتحطيم الأصنام الموجودة في الكعبة وخارجها، وأذن له بلال على ظهر الكعبة، وأعلن الرسول بعد فتح مكة مباشرة عن انتهاء الهجرة.

بقي الرسول في مكة بعد الفتح خمسة عشر أو عشرين يوماً أشرف خلالها على تحطيم أصناف الكعبة والأصنام الخاصة الموجودة في البيوت، واهتم بعض الأمور الإدارية والتنظيمية، ومن بينها تأمين نفقة الفقراء من أصحابه الذين رافقوه في الفتح والذين لم يحصلوا على أية غنيمة، لأن الرسول منع استباحة مكة أو سلب أموال أهلها، فاستدان مالاً من بعض رجالات مكة وزعنه على أصحابه، بحيث أصاب الواحد منهم ٥٠ درهماً، وقد أعاد الرسول المال الذي استلفه إلى أصحابه بعد انتصاره في غزوة حنين<sup>(١)</sup>.

وبفتح مكة، خرجت الدولة العربية الإسلامية من نطاق دولة المدينة إلى نظام الدولة الكبيرة، وتحققت بذلك المرحلة الأولى من مراحل بناء الدولة العربية الإسلامية الكبرى.

---

(١) ابن هشام: ق٢، ص٤٠٧ وما بعدها.

## - غزوة حنين وحصار الطائف ٥٨:

كان فتح مكة حدا فاصلاً بين حقبتين في تاريخ الدعوة الإسلامية، كما أشرنا، حقبة كانت فيها قريش حامية الوثنية العربية، تحمل لواء المعارضة للإسلام، وحقبة شهدت تأييد قريش وانضمامها إلى صف المسلمين، وعلى الرغم من هذا التحول الكبير في تاريخ منطقة الحجاز، فإن بعض القبائل المهمة في هذه المنطقة ظلت على معارضتها للرسول وأبى أن تظهر الخضوع له أو القبول بالدين الجديد، ومن هذه القبائل، قبيلة تهيف وهوازن في مدينة الطائف.

بدا للرسول ﷺ أن الخطر الحقيقي الذي يهدده هو ما سمعه من أنباء عن حشود كبيرة تهيؤها هاتان القبيلتان وخلفاؤها ضدّه على مسافة لا تزيد عن مسيرة يومين أو ثلاثة من مكة، ولما عرف الرسول بتجمع هذه القبائل ونواباً لها، خرج من فوره لصدّها على رأس الجيش الذي قدم به مكة فاتحاً بعد أن ضم إليه ألفين من القرشيين فغدت عدّة الجيش ١٢ ألف مقاتل.

وصلت طلائع المسلمين إلى وادي حنين وعسكرت هناك في العاشر من شوال سنة ٨ للهجرة، وهو واد منحدر من أودية تهامة قريب من الطائف، وفي صبيحة اليوم التالي سارت تشكيلات الجيش الإسلامي باتجاه الوادي، وكان على مقدمتهم خالد بن الوليد، وكان يخالطهم شعور فيه شيء كثير من الزهو والإعجاب بالنفس لكثرة عددهم، وكانت المنطقة المجاورة للوادي جبلية تتخللها الوديان والشعاب وقد فوجئ الجيش الإسلامي بكمائن هوازن تترصدّهم في جنبي الوادي وممراته الضيقة، وأحدث هذا الهجوم المفاجئ أثره في إرباك المسلمين، وأشاع الفوضى في صفوفهم، فأسرع بعضهم بالهرب ولاسيما حديثوا الإسلام من القرشيين، فناداهم رسول الله فلم يرجعوا، وقد ظلّ الرسول صامداً

في مكانه ومعه عدد قليل من كبار الصحابة، ورأى أن أهم ما يجب عليه عمله هو إعادة تنظيم صفوف المسلمين بعد أن دبت الفوضى بينهم وسيطر الرعب على بعضهم، فطلب من عمه العباس، وكان جهوري الصوت، أن ينادي الناس، فسمعه الناس، فكر عدد منهم إلى النبي، استقبلوا هوازن بالقتال، ثم توافد المسلمين، واشتد القتال، وانتهت المعركة بانتصار حاسم للمسلمين، فانهزمت هوازن، واستمر القتال فيبني مالك من ثقيف، وفر مالك بن عوف إلى الطائف، كما فر بقية المهاجمين فتعقبهم بعض الصحابة للقضاء على مقاومتهم وضرب قولهم، وهكذا كان نصر الرسول ﷺ في حنين نصراً مؤزراً، واستطاع أن يفروق تجمعـاً كبيراً كاد أن يلحق ضرراً باستقرار الدولة الإسلامية الناشئة ووجودها.

أرجأ رسول الله توزيع الغنائم لكي لا يشغل رجاله بأمرها، فأمر بجمعها ووضعها في مكان يقال له الجعرانة، حتى يتفرع من أمر العدو، فقد عزم على المضي من حنين إلى الطائف مباشرةً متبعـاً فلول ثقيف التي لجأت إليها، وكانت الطائف آنذاك مدينة محسنة، وجرت مناورـات وترافق بالنبال عبر السور بين المسلمين وسكان الطائف، مما اضطر الرسول إلى أن يعسكر بمكان آخر يأمن فيه على أصحابه من رمي أهل الطائف، وأقام رسول الله على حصار الطائف خمس عشرة ليلة، ثم رحل عنها إلى الجعرانة حيث رد على هوازن أبناؤهم، وقسم الأموال بين المسلمين ثم أعطى نصيبـه (الخمس) بعض حديثـي العهد بالإسلام من قريش أو رجالـات العرب هدايا إضافـية من الغنائم وقد عرف هؤلاء باسم "المؤلفة قلوبـهم" منهم: أبو سفيان بن حرب وابنه معاوية وحـكيم بن حـرام بن خـويـلد والـحارثـ بنـ الـحارـثـ بنـ كـلـدةـ، ثم اعتـمـرـ رسولـ اللهـ منـ الجـعـرـانـةـ إلىـ مـكـةـ ورجـعـ إلىـ المـديـنـةـ بعدـ أنـ استـعـمـلـ علىـ مـكـةـ عـتابـ بنـ أـسـيدـ لـيـنـظـمـ شـؤـونـهـاـ

ويشرف على إدارتها، كما أبقي معه فيها معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري ليعلم الناس القرآن ويفقهانهم بالدين وسننه.

ولم يلبث بنو ثيف أن أدركوا عبث مناؤتهم للرسول، وبأنه لن يتاح لهم الصمود طويلا في موقفهم المعادي له، لضعف إمكاناتهم قياسا بقوه المسلمين، فبعثوا إليه وفدا يرأسه عبد ياليل بن عمير فصالحهم الرسول على أن يسلموا ويقرهم على ما في أيديهم من الأموال<sup>(١)</sup>.

لقد أدت هذه الانتصارات التي حققها الرسول ﷺ إلى نتائج هامة جدا في ميدان علاقات الإسلام بالقبائل البدوية الضاربة في مختلف أنحاء الجزيرة، إذ شهد العام التالي لغزوة حنين (أي سنة ٥٩هـ) قدوم عدد كبير من وفود هذه القبائل إلى المدينة معلنة ولاءها لرسول الله، وخضوعها لسلطان الدولة الجديدة.

## - غزوة تبوك: ٥٨

إن الأسباب التي دعت الرسول إلى القيام بهذه الغزو أن جماعة من الأنباط يسيئهم الواقدي بـ(الساقطة) كانوا منذ الجاهلية يقدمون المدينة بالدقيق والزيت يبيعونها لأهلها، واستمروا على هذا الحال بعد الإسلام، وكان الرسول بعد هجرته إلى المدينة يتلقى منهم أخبار الشام وما يجري فيها وما يهمني ضده من قبل حكام الروم، وهذا كانت أخبار الشام عند المسلمين كل يوم، لكثرة ما

---

(١) طلب الوفد التقى من الرسول أن يترك لهم اللات فلا يهدمها فرفض ذلك، كما سأله أن يعفيفهم من الصلاة، وأن يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال الرسول: أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه، انظر: ابن هشام: ق ٢، ص ٤٨٥ وما بعدها.

يقدم عليه من الأنباط<sup>(١)</sup>، وقد وصل إلى علم الرسول من خلال هؤلاء أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد أعطى المسلمين وأنه ضم إلى جيشه جماعات كثيرة من قبائل لخم وجذام وغسان وعاملة وغيرها من القبائل النازلة في الشام، كما علم أن بعض هذه القوات قد زحفت إلى البقاء وعسكرت فيها بانتظار التقدم نحو المدينة.

استناداً إلى هذه المعلومات، أذن رسول الله ﷺ بغزو الروم، واتفق على أن استفاره جاء في أواخر حر شديد حين طاب أول الشمر، وفي عام مجب، ولهذا قوبل الاستفار بفتور من المنافقين وتناقل من بعض الصحابة، وقد دعت الظروف القاسية التي جهز الرسول في ظلها جيشه هذا، إلى تسمية هذا الجيش بجيش العسرة.

خرج رسول الله ﷺ من المدينة فتختلف جماعة من أهل النفاق يتراوح عددهم ما بين السبعين والثمانين، كما أخذ بعض من رجال جيشه يتخلفون عنه في أثناء الطريق بسبب ما شاع بين الناس من أنه لا قبل لجيش كجيش الرسول هذا بمقابلة الروم والدخول معهم في قتال، وكانت عدة الجيش الإسلامي ثلاثة ألفاً، ومن الخيل عشرة آلاف فرس، واستمر النبي ﷺ في مسيرته حتى وصل إلى تبوك، فلم يلق بها كيداً، وصالحه أهلها على الجزية، وأقام بها عشرين ليلة، أتاه إليها وهو بها يحنّة (يوحنا) بن رؤبه صاحب أيله، فصالحه على الجزية، كما أتاه أهل جرباء وأذرح وأعلنا ولاءهم وطاعتكم ودفعوا الجزية، وقد كتب الرسول ﷺ ليوحنا وأهل جرباء وأذرح كتب أمان واعتبرهم ذمة الله ورسوله،

---

(١) الواقدي: ج ٣، ص ٩٨٩ وما بعدها.

هم ومن كان معهم من أهل الشام، ثم أرسل خالد بن الوليد إلى بعض أمراء القرى المجاورة، حتى يضمن خضوع كل منطقة شمال الحجاز والبادية للدولة العربية الإسلامية، فلا يمكن أهلها من إعانة الروم إذا ما قدموا إلى بلاد الحجاز من هذه الناحية، وقد نفذ خالد ما أمر به وأجبر سكان هذه الأراضي على الصلح ودفع الجزية، ثم عاد الرسول ﷺ إلى المدينة بعد عشرين ليلة قضياها في تبوك، فوصل إلى المدينة في رمضان سنة تسع من الهجرة، وتعد غزوة تبوك آخر غزوة غزاها النبي بنفسه.

#### عام الوفود : ٥٩

عرف العام التاسع للهجرة بعام الوفود، كما ذكرنا، ففي هذا العام توالت وفود العرب تعلن إذعانها للإسلام، وبدأت بوادي توحيد كل جزيرة العرب تحت راية الإسلام تظهر بعد عودة رسول الله من غزوة تبوك، فقد ذكر ابن اسحاق: "لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت قيف وبأيوب، ضربت إليه الوفود من كل وجه، وعرف العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله، كما قال عزوجل أفواجاً، يضربون إليه من كل وجه" <sup>(١)</sup>.

وقد ذكرنا سابقاً أن وفد قبيلة قيف كان أسبق الوفود في القدوم على الرسول ﷺ، وبإسلام قيف غدت الحجاز بكمالها تخضع لدولة الإسلام، كما أخذت القبائل العربية الأخرى التي كانت ما تزال على الشرك تحذو حذو قيف وترسل بعوثاً منها إلى المدينة لتعلن انطوانها تحت راية الإسلام ومباهعة

(١) ابن هشام: ق٢، ص٥٥٩-٥٦٠.

الرسول، وكان من الوفود التي قدمت على الرسول: وفد تميم، ووفد بني عامر، ووفد بني سعد بن بكر، ووفد عبد القيس، ووفد بني حنفة وفيه مسلمة ابن حبيب (الكذاب) الذي أسلم أول الأمر ثم عاد وارتدى، ووفد طيء، ووفد زبيد، ووفد كندة وعلى رأسه الأشعث بن قيس، ووفد الأزد.

كما أرسل إليه ملوك حمير رسولا يعلمه بإسلامهم، وقدم عليه أيضا وفد بني فزاره، ووفد بني مرة، ووفد بني كلاب، ووفد بني قشير بن كلب، ووفد بني البكاء، ووفد بني عذرة، ووفد بلي، ووفد الداريين<sup>(١)</sup>.

### توحيد جزيرة العرب

وعلى الرغم من كثرة الوفود التي زارت المدينة مبايعة الرسول الكريم، والتي لم تذكر إلا القليل القليل منها، فإنه ظل في الجزيرة العربية فريق يحرص على دينه القديم، فلما حان موعد الحج، عهد رسول الله ﷺ إلى أبي بكر بإمرة الحج، وذلك في نهاية العام التاسع للهجرة، ثم أصدر بيان "براءة" تضمنتها سورة من سور القرآن الكريم هي سورة التوبة، وفوض إلى علي بن أبي طالب مهمة قرائتها على مشهد من جميع الحجاج بمكة، وفي هذا البيان نبذ الرسول عليه وآله وصحبه ما كان قد عقدها مع القبائل التي وادعها والتي لم تدخل بعد بالإسلام، وألغى كل عقد أبرمه معها، وأمهل هذه القبائل أربعة أشهر لإشعار إسلامها، والدخول في ظل سيادة الدولة العربية الإسلامية، وإلا اعتبروا خارجين على نظامها ووجب على المسلمين محاربتهم، وجاء في البيان أن مكة أصبحت بحرها إسلامية بعد أن برئت الكعبة من الأصنام، وأن الحج أصبح يجري على الطريقة الإسلامية، وأنه لا يجوز لغير المسلم أن يحج ويقرب من المسجد الحرام تنفيذا

(١) ابن هشام: ق٢، ص٥٦٠ وما بعدها. ابن سعد: ج١، ص٣٠٠ وما بعدها.

لأمره تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ كُونُ نَجْسٍ، فَلَا يَقْرِبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِ هَذَا﴾<sup>(١)</sup>، وقد كان لهذا التهديد والإذار أثراًهما في حدث من بقي على الشرك من العرب أن ينضموا للصف الإسلامي فتابعت الوفود قدمها على المدينة خلال العام العاشر للهجرة بهدف إعلان المبايعة والخضوع للدولة العربية الإسلامية.

وبعد أن اطمأن الرسول ﷺ إلى توحد جزيرة العرب تحت راية الإسلام، قرر الذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج، ودعا المسلمين لأداء الفريضة معه، فاستجابوا لدعوته، ووفد على المدينة عدد كبير من رجال القبائل يريدون أن يأتموا برسول الله في حجته هذه، وفي الخامس والعشرين من ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة غادر الرسول المدينة يصحبه عدد كبير من المهاجرين والأنصار ورجال القبائل بلغ عددهم ما يقرب الألف رجل، وأدوا جميعاً فريضة الحج، وفي يوم عرفات، ألقى الرسول خطبته الخالدة التي يعدها المسلمون منهجاً ودستوراً لهم، ثم نزلت الآية الكريمة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَنْتُمْ عَلَيْكُمْ نَعْمَلٌ وَرَضِيتُ لَكُمْ إِلَاسْلَامَ دِينَنَا﴾، وقد تمت رسالة النبي بنزول هذه الآية، وتلاها على المسلمين حين نزولها، فكان لها بالغ الأثر في نفوسهم، من جانب آخر شهد النبي ﷺ كيف ارتفعت كلمة الإسلام في هذا العدد الضخم من الحاج الذي بلغ ما يقرب من مائة ألف حاج من العرب ليس بينهم مشرك واحد.

وهكذا دخلت معظم قبائل العرب في الإسلام، وبدأت صفحة جديدة في تاريخ الدولة العربية الإسلامية التي ضمت كل أقسام جزيرة العرب، باستثناء

---

(١) التوبة: ٢٩.

الأقسام الشمالية، حيث يرابط الروم في جنوب بلاد الشام، فكانوا يشكلون خطراً مماثلاً على الجبهة الشمالية لدولة الإسلام، وقد أدرك النبي هذه الحقيقة، فوجه همه إلى تأمين حدود بلاده الشمالية ومد سلطانه إلى مناطق التخوم حيث يخشى تسرب الروم أو عملائهم إلى مناطق التخوم من ثم إلى داخل دولته، ومن أجل ذلك، وبعد قليل من عودته من حجه أمر بتجهيز جيش لغزو أطراف الشام الجنوبيّة وعهد بقيادته إلى أسامة بن زيد ابن حارثة وأمره أن يوطئ الخيل تحوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين<sup>(١)</sup>، وقد ساء بعضهم أن يولي الرسول عليهم شاباً في عمر أسامة، وبلغت الأخبار الرسول فهداً خواطيرهم وأظهر لهم هدفه من تأمير أسامة، وما في ذلك من إكرام لذكرى أبيه شهيد مؤته، ولكن لم يقدر لهذه الحملة أن تحقق مهمتها في حياة الرسول، فتأجل مسيرها إلى خلافة أبي بكر الصديق رض.

وفي أواخر شهر صفر من السنة الحادية عشر للهجرة أخذت بوادر الحمى تلم بالرسول الكريم، وطال مرضه صلوة اثنى عشر يوماً وقيل أربعة عشر يوماً، وفي يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ للهجرة لحق صلوات الله عليه بالرفيق الأعلى بعد أن أكمل رسالته وأتم نعمته على الإنسانية، وإذا كانت شعلة الحياة قد خبت في صدر محمد بن عبد الله فإنه قد أوقف مشاعل الإسلام، ومشاعل الحرية والعدالة والمساواة في أرجاء المعمورة، ويكتفي فخراً وعزه أن صوت "أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله" ما زال يصدح في مشارق الأرض ومغاربها، وأن سيرته الشريفة ما زالت درساً يليغاً في الجهاد والكافح الذي لا يعرف النكوص أو التراجع عن المبادئ، لكل الأجيال وعبر العصور.

(١) ابن هشام: ق٢، ص٦٠٦.

## المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧م.
- أحمد أمين، فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٤٥.
- الأزرقي، أخبار مكة، بيروت، ١٩٦٤م.
- الأصبهاني، أبو الفرج، كتاب الأغاني، بيروت، ١٩٥٦م.
- الأصطخري، كتاب المسالك والممالك، ليدن، ١٩٢٧.
- البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٧.
- ابن خلدون، كتاب العبر، بيروت، ١٩٦٥.
- الدنیوری، أبو حنیفة، الأخبار الطوال، القاهرة، ١٩٦١.
- سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ الدولة العربية حتى سقوط الدولة الأموية، بيروت، ١٩٨٦.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد، الطبقات الكبرى، بيروت، ١٩٥٧.
- السيوطي، حسن المحاضرة، القاهرة، ١٣٢٧.
- ابن شریة، عبید الجرمی، أخبار الین، ملحق بكتاب التجان، حیدر آباد الدکن، ١٣٤٧ھ.
- الطبری، محمد بن جریر، تاریخ الرسل والملوک، تحقیق محمد أبو الفضل إبراهیم، ١٩٦٨.
- عاقل، نبیه، تاریخ العرب القديم وعصر الرسول، دار الفکر، دمشق، ١٩٨٣.
- علی، جواد، المفصل في تاریخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٦٨.
- فروخ، عمر، تاریخ الجاهلیة، بيروت، ١٩٦٤.
- ابن قتيبة الدنیوری، أبو محمد عبد الله بن مسلم: كتاب المعارف، القاهرة، ١٣٠٠ھ.
- ابن الكلبی، الأصنام، القاهرة، ١٩٦٥.
- المسعودی، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقیق محیی الدین عبد الحمید، القاهرة، ١٩٤٨.
- المقدسی، المطہر بن طاہر، كتاب البدء والتاریخ، باریس، ١٩٠٣.
- المقدسی، شمس الدین أبو عبد الله محمد، أحسن التقاسیم فی معرفة الأقالیم، لیدن، ١٩٠٦.
- نولدکه، ٹیودور، أمراء غسان، ترجمة بندلی جوزی وقسطنطین زریق، بيروت، ١٩٣٣.
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، كتاب سیرة النبي، تحقیق مصطفی السقا وآخرين.
- الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد، صفة جزیرة العرب، نشرة محمد عبد الله بهید النجیدی.
- الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، مغازی رسول الله، تحقیق مارسدن جونس.
- یاقوت الحموی، معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٥.
- یحیی الشامی، الشرک الجاهلي وآلہ العرب المعبدة قبل الإسلام، دار الفکر، بيروت، د.ت.
- الیعقوبی، احمد بن ابی یعقوب، تاریخ الیعقوبی، دار صادر، بيروت، د.ت.

الفصل الأول: تاريخ العرب قبل الإسلام - ٣ -

الفصل الأول: تمهيد جغرافية بلاد العرب وسكانها .....	٥
المبحث الأول: طبيعة بلاد العرب.....	٧
المبحث الثاني: السكان.....	٢٥
<b>الفصل الثاني: حضارة جنوب الجزيرة العربية (دول اليمن))</b>	<b>٣٩</b>
المبحث الأول: الدور المعيني (الدولة المعينية) .....١٣٠-٦٣٠ق.م.	٤٦
المبحث الثاني: الدور السبئي (الدولة السبئية) .....١٥١ق.م - ٨٠٠ق.م.	٥٤
المبحث الثالث: الدور الحميري "الدولة الحميرية" (١١٥ق.م - ٢٥٢م)	٦٠
<b>الفصل الثالث: ممالك شمال الجزيرة العربية (نحو الشام والعراق)</b>	<b>٦٩</b>
المبحث الأول: الأنباط .....	٧٣
المبحث الثاني: التدمريون .....	٨٢
المبحث الثالث: الفساسنة .....	٩٥
المبحث الرابع: المناذرة (ملكة الحيرة)	١٠٨
<b>الفصل الرابع: الحجاز قبل الإسلام.....</b>	<b>١٣٣</b>
المبحث الأول: حواضر الحجاز .....	١٣٥
المبحث الثاني: أحوال العرب العامة .....	١٧٩
المبحث الثالث: الحالة الدينية في الحجاز قبل الإسلام .....	١٨٧
<b>الفصل الثاني: عصر النبوة - ٢٢١</b>	
<b>الفصل الأول: سيرة الرسول محمد بن عبد الله من المولد حتى المبعث.....</b>	<b>٢٢٣</b>
المبحث الأول: المولد والنشأة .....	٢٢٥
المبحث الثاني: المشاركة في الحياة الاجتماعية .....	٢٣٣
<b>الفصل الثاني: سيرة الرسول محمد بن عبد الله من المبعث حتى الهجرة .....</b>	<b>٢٣٩</b>
المبحث الأول: التحثت ونزلوا الوحي .....	٢٤١
المبحث الثاني: الدعوة إلى الإسلام .....	٢٥١
المبحث الثالث: محاولات نشر الإسلام خارج مكة .....	٢٧٢
<b>الفصل الثالث: تأسيس الدولة العربية الإسلامية .....</b>	<b>٢٨٩</b>
المبحث الأول: أسس بناء الدولة .....	٢٩١
المبحث الثاني: بدء الأعمال العسكرية .....	٣١٢
المبحث الثالث: مقدمات حركة الفتح العربي الإسلامي .....	٣٤٠
المصادر والمراجع .....	٣٥٩